
دكتور
حسين مؤنس
نور الدين محمود

نور الدين محمود

الدكتور حسين مؤنس

الطبعة الاولى ـ سنة ١٩٥٩

نور الدين محمود

سيرة مجاهد صادق

قصة بناء الوحدة العربية الاسلامية لاخراج الصليبيين من الوطن العربى فى القرن السادس الهجرى

تأليف

دكتور حسين مؤنس

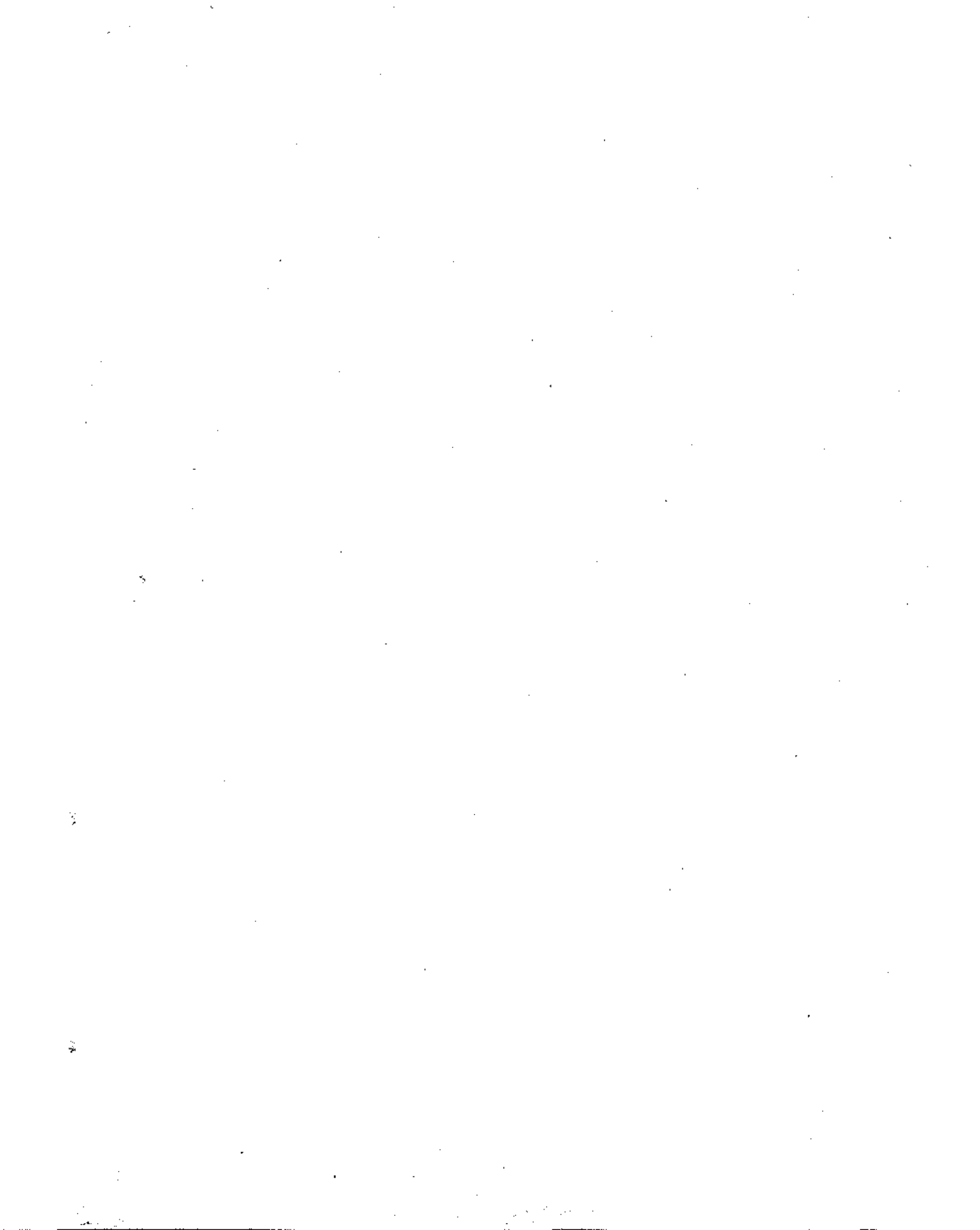
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

مدير معهد الدراسات الأسلامية بمدريد



القاهرة ١٣٧٨ - ١٩٥٩م





الإهداء

إلى المجاهدين في سبيل بناء

الوطن العربي الحر المتحد



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب وفاء بعهد قطعته على نفسى منذ سنين ..

فان فى حياة نور الدين محمود لعظة وعبرة تنفعنا فى كل حين..

وكنت كلما طالعت سيرته وقفت طويلا عند ما يبدو لى من خلاله وخصاله ، وتعجبت من تشابه الظروف التى ظهر فيها وظروفنا منذ سنوات ، فقد ظهر فى أوائل القرن السادس للهجرة وقد استقر الصليبيون فى الشام وأنشأوا فيه امارات باغية عادية تشبه عدوان جماعات الصهيونيين على فلسطين ، وكانت تؤيدها وتمدها بالعون بلاد الغرب الأوروبى كما تؤيد العدوان الصهيونى اليوم ، وما مكّن لأولئك فى الماضى ولهؤلاء فى الحاضر الا تفرق الكلمة واختلاف الرؤساء ..

وكان زوال العدوان الصليبى رهينا بجمع الكلمة وتوحيد الصفوف ، كما أن زوال العدوان الصهيونى رهين بما نحن ماضون فيه اليوم من توحيد ...

ظهر نور الدين فى ظروف تشبه ما كنا عليه قبل سنوات ...

وتصدى لانقاذ الوطن العربى الاسلامى ، فكان عليه أن يقوم برسالتين : التوحيد والتحرير ..

وقد وفق فى الرسالتين ، بفضل ما آتاه الله من ايمان عميق يسر له العسير ، واقدام رشيد كتب له التوفيق يوما بعد يوم ، وخلق فاضل كريم ، مكّن له من أن يخوض صراع الموت مع خصوم لا يعرفون معنى الخلق ، فسادهم بالخلق قبل أن يهزمهم فى الميادين ، وألقى هيبته فى قلوبهم بالفضل ، وضرب مثلا عاليا للمجاهد المؤمن فى كل زمان ومكان كيف يكون .

وما من عقبة اعترضتنا أو تعترض طريقنا الا وقفت فى طريق نور الدين .

وما من صنف من صنوف أعداء القومية العربية اليوم الا عرفه نور الدين على أيامه ..

عرف أعداء البلاد المحتلين من الصليبيين والبيزنطيين ..

وعرف الأنانيين الطامعين الذين يخونون القضية الكبرى فى سبيل مغنم يسير ..

وعرف المضللين الذين يزعمون أنهم مع المكافحين وهم أضرُّ بنا من الأعداء المواقفين ..

وعرف ضعاف النفوس الذين يقعد بهم الخوف والصّغار عن التقدم الى ميدان الفداء ..

وعرف المدبرين بليل ، الذين يندسون بين المجاهدين للافساد والتخـذيل ..

وعرف ضعاف الأخلاق الذين تغلب عليهم الشهوات ..

عرفهم كما عرفناهم ، وكان عليه أن يصارعهم كما نصارعهم اليوم ..

وعرف الى ذلك قلة المال والحاجة الى الموارد للنفقات .

وعرف من مشاكل الادارة ومتاعب الاصـلاح الاجتمـاعى ما نعرفه نحن اليوم .

وعرف ، بعد هذا كله ، كيف يواجه الأعداء جميعا ، والمشاكل مجتمعات . وكانت له مع الأعداء الأيام البيض ، فعقد براياتنا من النصر ما يجعله فى الطليعة بين قوادنا المظفـرين ، وكانت له فى المشاكل الداخليـة آراء وحلول تجعـله فى الرعيل الأول من المصلحين الاجتماعيين .

وقد نهض لهذا كله وهو أقل أمراء عصره أرضا ومالا ، ولكنه أوتى من الايمان والحزم والفضيلة ما جعله أقوى رجال عصره وأوسعهم بلادا فى الشرق والغرب على السواء ..

فاذا كانت فى ماضينا عبرة تنفعنا فى يومنا ، فهذه العبرة هى سيرة هذا المجاهد فى سبيل الحق ، المرابط فى سبيل وحدة الوطن العربى ، المكافح فى سبيل اجلاء العدو عن ديارنا ، نور الدين

لهذا ، أخذت على نفسى ، منذ سنين ، عهدا بأن أقدم لأبناء الوطن العربى الناهض سيرة هذا البطل الذى وحد مصر والشام ، وجمع العالم الاسلامى كله على لواء النصر والفداء .

وهذه هى بين يديك ، أرجو أن يحقق الله بها من النفع ما أرجوه ..

والله المستعان ، سبحانه ولى المجاهدين ..

ولى كلمة قبل أن أدع هذا التقديم اليسير ..

لقد تصدى نور الدين لحرب الصليبيين على أنهم أعداء معتدون على الوطن العربى ، لا على أنهم مسيحيون ..

وقد كان ايمان الرجل بالاسلام ايمانا سليما يذكرنا بايمان رجال الدولة الاسلامية الأولى ، ممن كانوا يعرفون أن دار الاسلام دار سلام لمواطنيها أجمعين ، لا فرق بين مسلمين وغير مسلمين ..

وقد تصدى نور الدين لاستنقاذ نصارى الوطن العربى من ظلم الصليبيين ، وكان الصليبيون اذا دخلوا بلدا اعتدوا على المقدسات ، أما نور الدين فلم يمس كنيسة ولا آذى غير مسلم ، وكان يكرم الرهبان والقسيسين .

واذا كنا نقول انه جمع المسلمين وأعز الاسلام ، فالمراد أنه جمع مواطنى دولة الاسلام وأعز أديانهم أجمعين ..

وحقيق بالعرب والمسلمين جميعا أن يملأوا قلوبهم من سيرة نور الدين ..

فقد نهض للدفاع عن وطننا أجمعين ، وان كانت لغة العصر تعبر عنا كلنا بلفظ المسلمين ..

وسبحان من أراد له أن يسمى نور الدين ، وهو نور لكل دين.

حسين مؤنس

مدريد { ذو القعدة ١٣٧٨
مـايو ١٩٥٩



— ١ —

عقيدة التوحيد والاتحاد

الاسلام دين التوحيد

ودولة الاسلام دولة الاتحاد .

فكما أن الايمان بوحدانية الخالق جل جلاله ركن الاسلام ، فاذا أشرك الانسان بالله أو شابت عقيدته فى وحدانيته شائبة خرج من زمرة المؤمنين ، فكذلك دولة الاسلام لا يستقيم أمرها الا اذا توحدت أطرافها واجتمع الناس فيها تحت راية واحدة وعلى كلمة واحدة ، فاذا تفرق المسلمون واختلف أمرهم وانفرد كل منهم بناحية وتنافسوا على السلطان ، وهنت دولة الاسلام وعدا على نواحيها الطامعون وتقاسموها وذهب أمرها بددا .

والتاريخ خير شاهد على ما تقول :

فقد اجتمعت كلمة المسلمين أيام الرسول صلوات الله عليه وأيام أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما ، فدان لهم من البلاد فى نصف قرن من الزمان ما لم يوفق الى مثله الرومان فى قرون ، ثم

اختلفوا خلال النصف الثانى من خلافة ذى النورين عثمان وخلافة فارس الاسلام علىّ كرم الله وجهه فتوقفت الفتوح ، وتقلص ظل الاسلام عما فتح من بلاد المغرب .

وعادت الوحدة على يد معاوية بن أبى سفيان وخلفائه ، فتجدد نشاط الفتوح فى كل وجه ، وبلغت رايات الاسلام سهول الهند وغابات وسط فرنسا ، وانتظمت أمور المسلمين وأزهرت حضارتهم ، وبدت وكأنها نجم صاعد لا يزداد على الأيام الا بهاء .

ثم اختلف أمر المسلمين ، وانتثر نظام الوحدة ، وانفرد أهل كل صقع اسلامى بدولة حسبوا أنهم يبلغون بها ما لا يبلغونه بالوحدة ، فما أسرع ما انفرد بكل فريق منهم طاغية يرهقهم من أمرهم عسرا ويذيقهم من العذاب ألوانا ، ثم شدت عليهم جحافل الأعداء وتكالبوا عليهم من كل طريق ، واستغلبوا بلادهم بلدا بعد بلد ، فضاع الأندلس رويدا رويدا حتى لم يبق فيه موحد بالله أو مسجد يتردد من صومعته الأذان ، وضاعت جزائر البحر الأبيض : صقلية والجزائر الشرقية وكريد وما اليها . وما هو الا قليل حتى أقبلت جحافل العدو كأنها قطع الليل تدق أبواب المغرب والشام ، بل تدفقت جيوش الروم من آسية الصغرى فاستغلبت حواضر الاسلام فى شمال الشام والجزيرة ، وبدا وكأن مصير خلافة الاسلام كلها فى الميزان .

كل ذلك والمسلمون سادرون فى الطـريق الذى ارتضـوه لأنفسهم ، غافلون عما يؤدى بهم اليه من التلف ، وقد انفرد بكل ناحية من نواحيهم ، بل بكل بلد من بلادهم ، نفر من طواغيت الحكام يستنزفون خيراته ويذلون أهـله ويجمعون الأموال ، حاسبين أن ذلك السلطان الذى بأيديهم هو أقصى ما تطمح اليه النفوس ، فما راعهم الا جحافل الصليبيين تنصب عليهم من الشمال فتنزعهم عن عروشهم نزعا ، وتعمل فى رعاياهم السيف والنار ، فلا ينجو من القتل الا الأسير والشريد ، ثم يدخل الصليبيون بيت المقدس فيغرقونه فى بحر من الدماء ويسيطرون على عقدة بلاد الاسلام ، ويعبرون العراق وينشئون فى الجزيرة الفراتية امارة الرها ، وتستقر لهم فى عقر ديارنا مملكة وأربع امارات ، أصبحت كالسيف المصلت على رقاب العرب والمسلمين أجمعين . وترامت أطماع هؤلاء الغزاة الى مصر ، بل أخذ بعضهم يعد العدة للسير الى الحجاز والاعتداء على أقدس مقدسات المسلمين ، امعانا منهم فى الاستضعاف والاستذلال .

ومع ذلك لم يفطن قادة المسلمين الى أن ذلك الشر كله انما نجم عن التفرق وضيعة الاتحاد ، وأن العلاج الناجع هو ضم صفوفهم واجتماعهم يدا واحدة ، ولكن همتهم لم تَسْمُ بهم الى

هذا المطلب اليسير على المخلصين العسير على الضعفاء والضالين . فلم يزالوا فى عز ذليل بين أيدى الغاصبين حتى تدارك الله دينه وأهله بدعوة الوحدة ينادى بها نفر من فرسان الاسلام فى الموصل ، وما زالوا يجاهدون ويستشهدون ، ويعقب بعضهم بعضا على حمل الراية حتى انتهت الى نور الدين محمود ، فعاد بالدعوة الى صفاء الاسلام الأول وروحانية صدر الاسلام ، وما زال يستألف المتردد ويغالب المعاند حتى جمع الشام وشمال العراق على غاية واحدة ، ثم مد نظره الى مصر وبعث جنده ليستنقذوها من فوضى الفاطميين قبل أن تغرقها أمواج الصليبيين ، ثم مضى الى ربه شهيدا كريما وخلفه صلاح الدين ، وعلى يديه اكتملت الوحدة ، فضرب الضربة القاضية التى أعزت الاسلام وحررت الشـــام واستخلصت بيت المقدس وخرجت بالعرب والمسلمين من غمرات العدوان والظلمات .

وما بقى من تاريخ الاسلام الى يومنا هذا ان هو الا تكرار لما أوردنا فى ايجاز : اتحاد وقوة وعزة ، أو تفرق وضعف وذلة ، وما مأساة العالم الاسلامى فى العصر الحديث الا مصـــداق لما ذكرناه . فقد استغلبتنا أمم الغرب وتوزّعتنا مستعمرات وحمايات، لأننا كنا تفاريق يجرى كل منا فى طريق ، ولا يكاد بلد من بلادنا يحفل لما يجرى فى البلد الآخر ، فسهل على الأعداء استغلابنا ،

فلما أفقنا من الغفوة وتنبهنا الى ما صرنا اليه وصرفنا همتنا الى الوحدة خرجنا من الظلمات الى النور ، وأظلتنا رايات الاستقلال والحرية والعزة ، وعدنا الى فتوة الصحوة الكبرى أيام نور الدين الشهيد وصلاح الدين المجيد .

*

وهذا الاتفاق فى تاريخنا بين الوحدة والعزة ليس من قبيل المصادفات ، ولا نقوله على أنه لون من فلسفة التاريخ ، بل هو فى واقع الأمر حقيقة بسيطة نبعت من طبيعة الاسلام الذى انعقدت عليه قلوبنا .

فان الاسلام — كما قلنا — دين توحيد : توحيد البارى جل جلاله ، وتوحيد القلوب على ما فيه خير الاسلام والمسلمين ..

وليس فى قواعد الاسلام وفرائضه الا ما يحمل معنى الوحدة والدعوة الى الاتحاد :

فان الصلاة فى صميمها دعوة الى التوحيد والاتحاد ، وما اجتماع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ووقوفهم صفا واحدا فى ساعات معينة من النهار والليل ، واتجاه وجوههم نحو قبلة واحدة ، الا ايحاء بالاتحاد وتذكير به من قريب ومن بعيد ، فليس بين عقائد البشر عقيدة تأمر المؤمنين بها بالاتجاه أثناء

الصلوات وجهة واحدة وتوقتها بمواقيت واحدة الا الاسلام ، وليس المقصود بالقبلة الواحدة الاتجاه الى الله نحوها ، فان الله سبحانه وتعالى فى كل مكان (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وانما المقصود أن يشعر المسلمون أنهم أمة واحدة ، ذات وجهة واحدة ، وتسير فى طريق واحد ، فى وقت مقرر معلوم ، حتى يتحقق توحيد الحركة فى الزمان والمكان .

والحج الى بيت الله لم يقصد من ورائه الا اجتماع المسلمين وتلاقيهم مرة فى العام فى صعيد واحد ، ليعرف بعضهم بعضا وليتبادلوا الرأى والمشورة ، وان من حضر الموسم وشهد اجتماع الحجيج على عرفات ، أمما شتى من مشارق الأرض ومغاربها ، كلهم فى زى واحد يهتفون بهتاف واحد على اختلاف لغاتهم ، وتنبض قلوبهم على وقع واحد ، ليدرك المعنى البعيد الذى أراده بارىء الاسلام سبحانه .

والصيام فى صميمه ايحاء وتذكير بالمساواة بين المؤمنين ، فاذا كان فيهم الغنى والفقير فى غير رمضان ، فان صيام رمضان يجعلهم طبقة واحدة لا يصيب الغنى والفقير فيها من الزاد الا ما لا يعز على انسان ، وهم يتناولونه جميعا فى وقت معلوم . فاذا كانت الصلاة دعوة الى الاتحاد الروحى والعسكرى ، والحج دعوة الى الاتحاد

السياسى ، فان الصيام دعوة الى التوحيد فى شئون الاجتماع .

وكذلك الزكاة ، فهى سهم من مال الغنى يخرج للفقير ، حتى يشعر الموسر أن الله لم يرزقه المال ليستمتع به وحده ، بل قدر فيه نصيبا للمعوز والمحتاج ومن قعدت به الأيام ، فهى دعــوة الى التقريب بين من يملك الكثير ومن يملك القليل ، وهى فى روحها دعوة الى توحيد القلوب والأحاسيس .

وهكذا لا تجد ركنا من أركان الاسلام أو فرضا من فروضه الا وهو يحمل معنى الوحدة والتوحيد . وما ذلك كله الا تنبيه من الله لعباده الى أن الوحدة أساس سلامة الاسلام والمسلمين ، لأن عز الاسلام مرهون بعز أهله ، وكلاهما مرتبط باجتماع أمر المسلمين .

واذا كان لتاريخ كل جماعة محور يدور عليه ، فان محور تاريخ العرب والمسلمين هو الوحدة واجتماع القلوب .

ان أمما من أهل الأرض يدور تاريخها حول محاور أخرى ، كالاقتصاد ، فيرتهن عزهم بما يستخرجونه من خيرات البر والبحر وما يقيمونه من متجر وما يكسبونه من مال ، كما نرى فى أحوال بعض بلاد أوربا ، فان كل شىء فى حياتها مرتبط بالمال مرهون بما لديها منه ، فاذا اجتمع لديها المال نهضت وتقدمت وقامت دولها ، واذا قل المال فى أيديها ضاع أمرها بددا ، وهى لهذا تدير التاريخ

حول الاقتصاد ، وتفسره على أنه صراع بين الانسان وما حوله ومن حوله ، كلما سخر الانسان من الطبيعة شيئا زاد قوة وتقدما ، وكلما غلب جارا من جيرانه عزّ وساد . والمطلب الأخير عندهم هو المال والغنى والجاه ، وكل شيء فى الحياة يتحول عندهم الى مال أو يقدر بمال .

ومن الأمم ما يدور تاريخها حول الانفراد بنفسها فى أرضها مهما ضاقت ، فهى لا تزال أبد الدهر تحارب عن الأرض التى تقيم عليها وتضحى فى سبيل ذلك بكل شيء ، فاذا تم لها الانفراد بنفسها واستقلت عن سلطان غيرها كان فى ذلك عزها ؛ وعلى هذا المحور دار تاريخ أوربا خلال القرنين الماضيين ، وهذا هو ما يسمونه بالتفسير القومى للتاريخ .

أما نحن فان محور تاريخنا هو الاتحاد ، فان بلادنا شاسعة مترامية ، وموارد الثروة فيها منثورة على بساط فسيح يمتد من محيط الى محيط ، وبلادنا هى مركز الدنيا ، لا يذهب ذاهب بين الشرق والغرب الا مر بها ، والمطامع فيها لهذا كثيرة والأعداء أكثر من أن يحصوا ، وهذه المطامع لا ترتد الا اذا أعددنا لها ما يكفى لردها من القوة المتجددة يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، وأولئك الأعداء لن ينقطع شرهم عنا الا اذا اجتمعت قوانا لردهم عن أى

موضع من بلادنا أرادوه بالأذى وفى أى وقت ظنوا فيه غِرّتنا ، وهذا وذاك لا يتأتيان الا عن سياسة واحدة مرسومة للدفاع والحماية ، ويقظة متصلة ورباط دائم على الحدود والثغور ، فاذا لم تكن هناك سياسة واحدة ترسم خطط الدفاع عن ذلك العالم الفسيح ، واذا لم تكن هناك قوة مجمّعة متربصة على الأهبة لترد العدوان ، واذا استطاع الأعداء أن يفرقوا بعضنا عن بعض ، غلبونا فريقا بعد فريق ، وأخضعونا لسلطانهم وقضوا علينا من أيسر طريق .

وأقوى أسلحتنا لمواجهة هذه الأخطار هو الاتحاد ، فان بلادنا متسعة ، ووطننا العربى الكبير يمتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بحيث لا تستطيع أمة من الأمم أن تغلبنا على أمرنا فيه ، وهى كلما غلبتنا فى موضع منه انسحبنا الى الذى يليه حتى تطول مواصلاتها وتبدد قوتها فى بطائحنا وصحارينا .

وقد تنبه الروس من قبلنا الى ذلك ، فمدوا رقعة بلادهم آلافا من الأميال من بحر البلطيق الى المحيط الهادى ، فاذا قصدهم عدو لم يكن عليهم بأس فى أن يتراجعوا أمامه حتى يوغل فى بلادهم ويضيع فى مهامهها ، فاذا طالت خطوط مواصلاته وتفرقت جيوشه على الطريق الطويل ، أخذت جماعات الفدائيين تتخطف جنوده

وتهاجم مواقعه المتفردة حتى يَهِن عزمه ، ثم يأتى الخـريف ، فتهبط الأمطار سيولا وتحيل الأرض الى مستنقعات يتعذر على العدو السير فيها ، فيخرجون للقائه وقد أنهكت قواه ، وينالون منه المرة بعد المرة حتى يهلك ، ثم يأتى الشتاء وتتراكم الثلوج فتدفن بقاياه . ولقد أوغل الفاتحون فى بلادهم حتى بلغوا موسكو ، ثم ارتدوا عنها فلولا محطمة ، ولو أن الوطن الروسى كان مقسما قطعا لاستخلبها العدو واحدة بعد أخرى دون مشقة .

ونحن كذلك وطننا فسيح يمتد من المحيط الى الخليج ، فلو أرادنا عدو من شرق أو من غرب لم يتوسط بلادنا الا هلك ، ولدينا حرارة الشمس تقوم مقام الثلوج . فأرضنا وحدها تحارب عنا كما تحارب أرض الروس عنهم ، وهم يقولون فى تاريخهم ان أعظم قوادهم هو « الجنرال خريف » لأن أمطار الخريف عندهم هى التى تمهد الطريق لهزيمة عدوهم ، ومن أسف أننا لا نستطيع أن نقول شيئا مثل ذلك ، لأننا أضعنا ميزة اتساع أراضينا بتقسيمها قطعا وأوطانا متدابرة ، وما هى الا وطن واحد .

وتلك الوحدة لا تقوم الا اذا قامت من أول الأمر على ايمان بضرورتها ، فاذا استقر هذا الايمان فى القلوب وأصبح عقيدة ثانية مرادفة للايمان بالاسلام أصبح من اليسير جمع كلمة المسلمين اذا

تهدد بلدا من بلادهم خطر ، أو اذا تعرضت ناحية من نواحيهم لمحنة أو شدة . فهذا الايمان بالوحدة يبعث فى تاريخنا الروح ويعطيه معناه ويضفى عليه جلاله .

*

واذا تأملت هذا التاريخ الطويل بدا لك بوضوح أن أبطاله الحقيقيين انما هم أبطال توحيد وتوفيق ، فى حين أن أبطال التاريخ الأوروبى مثلا أبطال تفريق وتقسيم - فقلهلم تل يعتبر رمز البطولة السويسرية لأنه فصل بلاده عن امبراطورية الهابسبورج ، وولهلم الصامت كبير أبطال الأراضى المنخفضة لأنه فصلها عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ومارتن لوثر أكبر أبطال التاريخ الألمانى هو الذى قسم الناس الى بروتستانتيين وكاثوليكيين ، فى حين أن أبطالنا كرجال الفتوحات الأولى وعظماء خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، ثم فرسان السلاچقة من أمثال طغرل بك وألب أرسلان وملكشاه ، ثم أبطال الحروب الصليبية مثل عماد الدين زنكى وابنه نور الدين وصلاح الدين ، ثم عظماء دول المماليك كالظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون ، وقادة جحافل المسلمين المظفرة التى أوغلت فى آسيا مثل الغزنويين ، وأبطال الاسلام الغربى الذين نافحوا عن الأندلس والمغرب مثل

يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وعبـد المؤمن بن على خليفة الموحدين وابنه أبى يعقوب يوسف وحفيده يعقوب بن يوسف المنصور ، وغيرهم كثيرون ، انما هم رجال وحدة وأبطال اتحاد ، ليس منهم من سعى الى فصل بلد اسلامى عن بلد اسلامى ، بل اتجهوا جميعا الى جمع الكلمة وتوحيد جبهة العرب والمسلمين .

وهؤلاء هم الأبطال الحقيقيون لتاريخ الاسلام ، وسر بطولتهم هو احساسهم بضرورة الاتحاد وسعيهم اليه واخلاصهم فى تحقيقه. وقد يقال ان نفـرا منهم انما كانوا يؤثّلون لأنفسهم مجـدا ولأشخاصهم سلطانا ، وهذا نقد هو أقرب الى المديح ، لأن أحدا من أولئك الأبطال ما كانت نفسه تطمح الى ذلك المطلب البعيد الا ودافعه اليه قلب كبير ، لأن طلبة الانسان من الجاه — مهما كان طمعه فيه وشرهه اليه — يسدها مُلك بلد واحد ، أما التمادى الى ما وراء ذلك فلا يدفع اليه الا شىء أكبر من طلب الملك والجاه، هو توحيد الكلمة .

فنور الدين مثلا كان حريا بأن يقنع بمُلك حلب وحدها اذا كان يرجو الجاه والمال والسلطان ، وسعيه الى توحيد الشـام وتعريض نفسه للأخطار انما دفعت اليه الرغبة فى توحيـد أمر المسلمين تمهيدا للخلاص من الصليبيين . وكذلك كان صلاح الدين

حريا بأن يقنع بملك مصر ، وهو ملك عظيم يؤتيه من المال والجاه والسلطان ما يربو على مطالبه منها ، واجتهاده فى ضم الشام والجزيرة الفراتية انما كان تمهيدا لدفع الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين واعزاز العروبة .

وهنا تبدو لنا البطولة الحقيقية لأولئك الأفذاذ : انها ليست بطولة النصر والظفر فحسب ، بل بطولة تحقيق هدف الاسلام البعيد وهو توحيد دولة الاسلام ، بطولة ورثها واحد عن واحد ، وتعاقبوا على حمل رايتها ، رجلا بعد رجل ، ولولا جهود هؤلاء الأبطال واستبسالهم فى الدفاع عن وحدة العروبة والاسلام لضاع الأمر من زمن بعيد ، لأن الوحدة ركن الجماعة الاسلامية وأساسها كما أن التوحيد ركن الاسلام ولبابه .

وليس فى الدنيا شعوب تؤمن بالوحدة كما تؤمن بها شعوب الاسلام ، حتى جماعات الشعب التى توصف بأنها غير متعلمة أو غير مثقفة ، تدرك بفطرتها فضل الوحدة ومعناها ومرماها ، ولا تزال أبد الدهر ساعية الى الاتحاد بغيرها من شعوب العروبة . وقد ظهر فى كل شعب منها نفر من رجال السياسة أو طلاب الحكم، حاولوا الانفصال ببلادهم عن الجماعة الكبرى ، ومضوا يتحدثون عما يسمونه « قومية » و « مصالح محلية » أو دعوا بدعوات

تناقض الوحـدة العـامة ، فنفرت منهم الشعوب نفورا طبيعيا فطريا ، وناصبتهم العداء ولم يطمئن لها خاطر حتى فرغت من أمرهم .

ان جماعات الشعب الساذجة لديها ادراك غريزى لما ينفعها وما يضرها ، وهى تميز بالحاسة السليمة بين من يصدقها ومن يضللها ، بين من يعمل لصالحها ومن يخدعها ، فتؤيد الصادقين المخلصين وتنفر من المضللين والمخادعين ، وقد أعيت بهذا الفهم الفطرى جهد شطار السياسة وطواغيت الدول وحيرتهم فى أمورهم ، وأرغمتهم على أن يرفعوا النقاب ويبدوا لها سافرين حتى تصفى حسابها معهم . وكما عرفت أمة العرب كيف تجزى بالخير المحسنين اليها العاملين على وحدتها ، عرفت دائما كيف تعاقب المسيئين اليها وتناقشهم الحساب ، أو تعفى على ذكراهم اذا غالهم الموت دون الحسـاب .

ولقد عاشت شعوب العرب والمسلمين بعضها منفصل عن بعض فترات طويلة من تاريخهـا ، ولكنها ظلت أبدا متحـدة بالقلب والعاطفة والايمان ، وما من مسلم الا ويشعر أنه أخ لكل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، لأن فكرة الوحدة مرتبطة فى أساسها بفكرة الاسلام . ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أرسى

أساس الأمة الاسلامية فى المدينة المنورة ووضع أول دستور لدولة الاسلام — وهو الكتاب الذى كتبه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار وموادعة يهود — قرر فيه أن « المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس » . ونصُّ الرسول صلى الله عليه وسلم على أن المؤمنين أمة واحدة عظيم المعنى والمغزى ، فقد جعل الوحدة الصفة الأولى للأمة الاسلامية ، مهما اختلفت مواطنها وبلادها . واذا التزمنا طريقة المحدثين فى تفسير معنى هذا الحديث قلنا ان أمة الاسلام لا تصح الا اذا كانت واحدة ، والوحدة هنا شرط وجوب ، خاصة وأن رسول الله أيد هذا المعنى فى نفس الكتاب بعبارات كثيرة ترمى الى توكيده ، فقال : « والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس » ، « وسلم المؤمنين واحدة : لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم » ، « والمؤمنون لا يتركون مُفْرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف » و « أن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعة (=عظيمة) ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين» ، « وأيديهم عليه جميعا » ، الى آخر هذه القواعد الانسانية السليمة التى رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة الاسلام ، وكلها قواعد

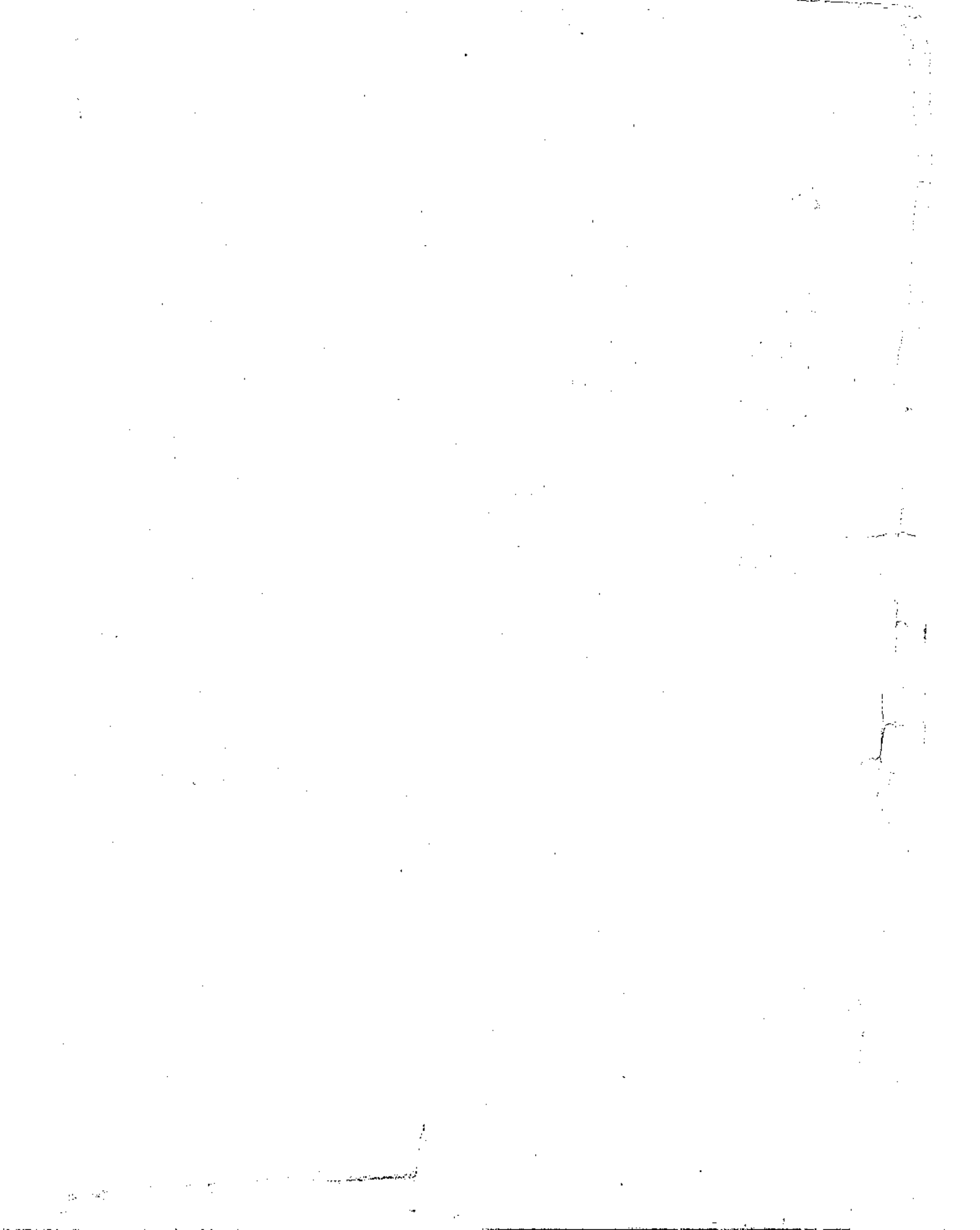
ترمى الى التوحيد وجمع الكلمة ، وقد أدركت شعوب الاسلام ذلك المغزى ووعته وسارت عليه ، وان كانت عواصف السياسة ومطامع الرؤساء والحكام قد عطلته فى بعض الأحيان .

وقيام هذه الأمة الاسلامية الواحدة لا يتنافى مع وجود تنظيمات سياسية مختلفة فى داخلها ، ما دامت كلها متآخية مترابطة عاملة على الوحدة ،فان كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى بعض الجماعات التى تكونت منها الأمة على أيامه الحق فى تنظيم شئونها : « فبنو عوف — مثلا — على رِبْعتهم (= حالهم) يتعاقلون معاقلهم (أى يدفعون دياتهم) الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين » ، وكذلك بنو ساعدة وبنو الحارث وغيرهم ، بل ان اليهود الذين كانوا فى يثرب وعاهدوا الرسول اعتبروا جزءا من الأمة : « ... وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، الا من ظَلم وأثِم ، فانه لا يوتِغ (= يهلك) الا نفسه وأهل بيته » ، وكذلك يهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وغيرهم كثيرون . أى أن أمة الاسلام تشمل من عاش فى أرضها وعاهدها وصدقها من غير دينها ، ولم يقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الا رغبة منه فى تحقيق الوحدة والنص على أنها العماد الذى تقوم عليه دولة الاسلام .

فكل داع الى توحيد كلمـــة العرب والمسلمين انما هو بان للركن الأول من أركان دولة العرب والمسلمين .

وكل عامل على التفريق ، أو داع الى الانفراد بقومه دون اخوانهم من أهل الوطن العربى الواحد ، انما هو عدو للوطن العربى هادم للركن الحصين فى بناء دولة الايمان واقامة عز العرب والمؤمنين .

ولا حاجة بنا الى التماس الحجج والبراهين على ذلك من آى الكتاب الحكيم ، فان كل آية من آياته انما هى دعوة الى التآلف والأخوة ، وتنبيه للمؤمنين الى فضائل اتحاد القلوب .



— ٢ —

صحوة القرن الخامس الهجرى

رُبَّ قومٍ قد أناخوا عيسَهم في ذُرى مجدهم حين بسقْ
سكت الدهر زماناً عنهمُ ثم أبكاهم دماً حين نطقْ
« أعشى قيس »

يعرف المتتبعون لتاريخ الاسلام أن اتساع دولته لم يتم على صورة نمو متصل أو فتوح متوالية ، كما هو الحال مع غيرها من كبار الدول التى قامت على طول التاريخ ، وانما تحقق هذا الاتساع نتيجة لوثبات ضخمة تفصل بين بعضها البعض فترات تتراوح بين القرنين والثلاثة قرون . ومع كل وثبة من هذه يمتد رواق الاسلام بضعة آلاف من الأميال يثبت عندها حتى تقبل الوثبة التى تليها ، وقد يحدث أن ترتد حدود دار الاسلام قليلا أثناء فترات السكون .

كانت الوثبة الأولى فى صدر الاسلام ، وقد بدأت على أيام

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوقفت حوالى نهاية القرن الهجرى الأول (أوائل القرن الثامن الميلادى) ، ووصلت برايات الاسلام قرب نهر السين من ناحية الغرب ومصب نهر السند من ناحية الشرق .

وكانت الوثبة الثانية فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين(أواخر العاشر الميلادى وأوائل الحادى عشر) ، فامتدت حدود دار الاسلام شرقا حتى شملت النصف الشمالى لشبه جزيرة الهند ، ودخلت فى الاسلام — شيئا فشيئا — شعوب الأتراك الضاربة بين فارس وحدود الصين ، أما فى ناحية الغرب فقد امتد الاسلام من جنوب المغرب الأقصى حتى شمل غرب افريقية حتى أعالى نهر النيجر .

وبدأت الوثبة الثالثة فى أوائل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ودامت حتى نهاية العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، وفيها أزال الاسلام الدولة البيزنطية وأوغل فى شرق أوروبا حتى وصل الى أبواب ڤيينا ، ثم تراجع بعض الشيء واستقر عند الحدود الغربية لما يعرف اليوم برومانيا ، وامتد رواق الاسلام فى آسيا حتى وصل الى الملايو واندونيسيا ، أما فى افريقية فقد ضم النوبة والسودان الشمالى حتى وصل الى مستوى بحر

الغزال ، ومن غربى السودان أوغل فى نيجيريا وثبت أقدامه فيها .

وقد قام بكل وثبة من هذه الوثبات شعب جديد دخل الاسلام وتحمس له وحمل رايته ، فأما الوثبة الأولى فقد حمل عبأها العرب ومن دخل الاسلام فى ذلك العصر المبكر من الفرس فى الشرق والبربر فى الغرب ، والبربر هم أهل الشمال الأفريقى الأصلاء .

وأما الثانية فقد قامت بها فى آسيا شعوب الأتراك ، وكانت جماعات بشرية وافرة الأعداد ظاعنة فى الفيافى والبطاح الواسعة الممتدة من شرقى فارس الى حدود الصين . وقد تولى كبر هذا الزحف منهم الغزنويون ثم الغوريون ثم السلاچقة ، أما فى افريقية فقد حملت الراية قبائل عفية من أهل جنـــوبى ما يعرف الآن بمراكش ، وأنشأت فى ظل الاسلام دولتى المرابطين والموحدين ، اللتين قامتا بالدفاع عن الأندلس الاسلامى ، ومدت بساط الاسلام حتى أعالى النيجر .

والثالثة حمل لواءها الأتراك العثمانيون فى آسية الصغرى وأوروبا ، وأهل السودان الشمالى والمغرب الأقصى فى افريقية ، وأهل حضرموت وجنوبى شبه الجزيرة العربية والهنود فى آسيا .

ويلاحظ أيضا أن الشعوب التى قامت بهذه الحركات الواسعة لم تبدأ بالسير الى الأمام براية الاسلام الا بعد أن قامت بتوحيد

بلاد المسلمين فى ناحيتها ، وأن اتجاهها الى التوسع كان نتيجة توفيقها فى التوحيد . فكأن الوحدة هى أساس ذلك الاتساع كله : اذا اتحد المسلمون تجمعت قواهم وجاشت صدورهم بالحمية ، فمضوا ينشرون كلمة الاسلام فى كل وجه .

ويلاحظ أخيرا أن هذه الشعوب كلها لم تكد تدخل الاسلام حتى بدأت تستعرب : جرت اللغة العربية على ألسنة أهلها ، وآمنت بالمثل الأخلاقية العربية الاسلامية ، واندرجت فى تيار العروبة وتصدت لحمل رايتها . فاذا لم يتيسر للعربية أن تغلب لغاتها الأصلية ، فلا أقل من أن تصبح لغة العلم والثقافة ، وقد اتخذ أهلها جميعاً أسماء عربية ، أى أصبحت عربية بالقلب والروح والاحساس .

فدولة الاسلام على هذا بناء ضخم أسهمت فيه أمم الاسلام جميعا ، وهى فى صميمها دولة عربية عامة ، ولا يغاير هذه الحقيقة أن بعض شعوب الاسلام لا تتحدث العربية ، فان اللغة وسيلة لنقل الأفكار ، ولكنها ليست الأفكار نفسها ، ولا فرق بين اندونيسى وهندى وفارسى وعربى فى الاحساس والتفكير وان اختلفت اللغات : كلهم يعتزون بالماضى العربى ، ويشاركون العرب احساسهم بالحاضر وأمانى المستقبل ، وهذا هو المقياس السليم الذى يحسب له حساب فى التاريخ .

*

كان السلاچقة قبيلا من هؤلاء الأتراك الذين دخلوا الاسلام وتمثلوه فى كيانهم ثم انتصبوا يحملون رايته ، فقد دخلوا الاسلام أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وأخذوا طريقهم الى القوة والسلطان ، فلم يحل القرن الخامس الهجرى حتى كانوا قد أوسعوا لأنفسهم مكانا رحبا فى شرقى الهضـــبة الايرانية ، ثم تيسر لهم كسب انتصار حاسم على الغزنويين عند دندانقان فى رمضان ٤٣١ / مايو ١٠٤٠ واحتلوا نيسابور ، وكاتبوا الخليفة العباسى ، فولاهم هذه النواحى . وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ هؤلاء المحاربين الأشداء .

كانوا الى ذلك الحين مجرد محاربين يجتهدون فى أن يوسعوا لأنفسهم مكانا فى عالم ذلك العصر المضطرب الحافل بالفوضى والحروب ، لقد قضوا نيفا ومائة عام من تاريخهم بعد دخولهم الاســـلام يحاربون الغزنويين حينا والخوارزمية حينا وانتصروا على كل خصومهم ، وأصبحوا سادة الجنـــاح الشرقى لمملكة الاسلام (عدا الهند) ، ولكنهم كانوا فى قلق دائم لا يكادون يعرفون لأنفسهم وجهة فى الحياة ، ثم اتصل رئيسهم طغرل بك بالخليفة القائم بأمر الله وصاهره سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦ ، ودخلوا العراق واستقر جندهم فى بغداد واستنقذوا الخلافة من عبث

البويهيين ، ولكنهم ظلوا كما هم محاربين لا يستقرون على حال ، يجوسون البلاد ويخوضون المعارك دون هدف ظاهر ، بل ان نفرا منهم أتيحت لهم عام ١٠٥٣/٤٤٥ فرصة مقاتلة (الروم) البيزنطيين والانتصار عليهم ، ولكنهم لم ينظروا الى حرب الروم على أنها جهاد ، بل مجرد كفاح فى سبيل البقاء . ذلك أن جماعة من قبائلهم قدموا على ابراهيم بن اينال أخى طغرل بك ، وكان قائدا مظفرا ، قضى سنوات طويلة فى حروب ومعارك ، وسألوه أن ينزلهم أرضه ، فاعتذر لهم بأنها تضيق بقومه ، ونصحهم بالاتجاه الى أراضى الدولة البيزنطية فى نواحى أرمينية ومداخل آسيا الصغرى ، وقام من ورائهم مؤيدا ومعينا لهم ، وقد حاول الروم ايقافهم دون جدوى ، فدخل المسلمون قارس وأرمينيا عامى ١٠٥٦/٤٤٨ و ١٠٥٧/٤٤٩ واستولوا على مَلَطِيَة ، وفى عام ١٠٥٩/٤٥١ وصل جنودهم الى سِبَسْطية وطرابزون .

وبعد دخول السلاجقة العراق ، وفى أثناء هذه الحروب مع البيزنطيين ، بدأوا يحسون أن لهم رسالة فى الوجود : أحسوا أن دولة الخلافة فى حاجة اليهم ليشدوا أزرها ، وأن جبهة الاسلام أمام الروم واهنة فى حاجة الى من يسد ثغورها . وملأهم هذا الشعور بالرسالة السامية حماسة وقوة ، فأخذوا يتأهبون للقيام

بدورهم العظيم فى تاريخ الاسلام . ولقد قضى طغرل بك — سلطانهم الى ذلك الحين — ستين سنة من عمره فى ميادين الحرب والقتال دون أن يشعر أن له هدفا آخر بعد النصر والغنيمة، فلم يكد يتصل بالخلافة ويواقع الروم حتى أحس هو ومن معه كأنهم خلقوا من جديد ، وهكذا لا يزال الناس هملا حتى يشعروا أن لهم رسالة فى الحياة ، فيبدوا وكأنما بعثوا خلقا جديدا .

ولم يعد لطغرل بك بعد ذلك من هَم الا أن يخدم الخلافة والاسلام ، بل لقد شمل رجاله شعور أخلاقى بمسئوليتهم أمام الله تعالى ، وليس أدل على ذلك الشعور الجديد الذى عمر نفس السلاچقة ، من أن السلطان طغرل بك ، وكان أقوى رجال عصره وأوسعهم سلطانا ، وقد امتدت أملاكه من حدود الهند الى العراق ، عندما لقى الخليفة القائم عام ١٠٥٧/٤٤٩ — وكان الخليفة كما نعلم مستضعفا اذ ذاك لا حول له ولا قوة — ملكته المهابة وهو ينظر الى رمز سيادة الاسلام « وعليه بردة النبى صلى الله عليه وسلم وبيده القضيب الخيزران ، فقبّل السلطانُ الأرض وقبل يده وأجلس على كرسى ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : « ان أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك ، مستأنس بقربك ، وقد ولاك

جميع ما ولاه الله من بلاده ، ورد عليك مراعاةَ عباده ، فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك فى ذلك ، واجتهد فى نشر العدل وكف الظلم واصلاح الرعية » ، فقبل الأرض وأمر الخليفة بافاضة الخلع عليه ، فقام الى موضع لبسها فيه وعاد ، وقبّل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفــة بمَلك المشرق والمغرب ، وأعطِى العهد وخرج » .

وهكذا أصبحت الرسالة الروحية تكليفا رسميا ، ووجد ذلك الرجل نفسه ، وهو يقارب السبعين من عمره وقد حمل عبء دولة الاسلام على كتفيه ، وكان مدركا تمام الادراك لمسئوليات ذلك المركز الجليل الذى صار اليه ، فتجددت همته ، واشرأبت نفسه للجهاد والاصلاح ، وأراد أن يزداد تشريفا فصاهر الخليفة وتزوج ابنته التماسا لبركة الاتصال بالبيت النبوى الكريم ، ولم يتصل بها لهذا ولم تكشف له خمارا ، وانما كان حظه منها مجرد التحية كل يوم ، فقد كانت فى سن حفيدته ، ولم يلبث أن مات فى رمضان ١٠٦٣/٤٥٥ .

وتولى القيادة من بعده ألب أرسلان ابن أخيه داوود ، وقد تحددت للدولة أهدافها وارتهنت نفسها بالدفاع عن حوزة الاسلام. كان شرق الدولة الاسلامية كله قد اتحد تحت رايته ، ومع الاتحاد

ظهرت قوة الاسلام وأهله ، وعاد الى الخلافة جلالها وانتهت أيام الهوان الماضية ، ومع أن الخليفة القائم بالله لم يكن أقدر ولا أمهر من خلفاء كالمتوكل والمقتدر ، ممن هانت الخلافة على أيامهم ، الا أن وحدة الاسلام كانت كافية لعودة الخلافة الى سابق جلالها الروحى القديم .

اتجه ألب أرسلان الى الجهاد من أول الأمر : لم يكد يحصل على التفويض من الخليفة حتى جمع جنده واتجه نحو أراضى الدولة البيزنطية ، وبدأ بما بقى من بلاد الأرمن ، فاستولى على عانة ، ووجد أمير قارس الأرمنى أن لا حيلة له أمام هذا المجاهد الذى لا يخاف شيئا ، فتنازل عن بلده لامبراطور البيزنطيين ، وحصل فى مقابل ذلك على ضياع وأملاك فى جبال طوروس . وابتداء من عام ١٠٦٥/٤٥٧ ألح ألب أرسلان على شمالى الموصل بالحملات حتى تداعت قوى الروم فيه وتهيأ للعودة الى الاسلام ، وكان الروم قد استولوا على هذه النواحى أيام الاضمحلال الماضية ، وفى سنة ١٠٦٦/٤٥٨ احتل المسلمون الممرات المؤدية الى آسية الصغرى فى جبال أماتوس ، وكانوا قد فقدوها بعد أيام المعتصم ، ثم أغاروا فى نفس العام على قيصرية آسية الصغرى ، وفى العام التالى كسب المسلمون انتصارات كبرى عند مَلطِية

وسِبَسْطِية وأصبحت أرمينية كلها فى أيديهم ، وانفتحت أمامهم أبواب الدولة البيزنطية فوصلوا الى عمورية عام ٤٦٠/١٠٦٨ والى قونية فى العام الذى بعده ، ووصلت طلائعهم الى خونى على ساحل بحر ايجه .

فاذا أضفنا الى ذلك ما ذكرناه من استقرار نفر من السلاجقة فى شرقى آسية الصغرى ، وانشائهم دولة اسلامية فى نواح لم تستقر فيها قدم الاسلام قبل ذلك ، تبينّا أن الاسلام كان اذ ذاك — خلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين — فى غمار الوثبة الثانية من وثباته ، ففتح شمال الهند من ناحية وبدأ الاستيلاء على آسية الصغرى من ناحية أخرى ، وقد قامت بالأمرين تلك القبائل التركية التى تشبه فى الطباع والروح القبائل العربية المجيدة التى قامت بفتوح الاسلام الأولى .

وفى نفس ذلك العصر كانت قبائل أخرى شبيهة بالعرب والترك تزحف بالاسلام الى غرب افريقية ، فيما يعرف الآن بالسودان الغربى مما يلى المغرب جنوبا حتى السنغال وغانة ونهر النيجر ، وهذه هى القبائل الصنهاجية وأكبرها لَمْتُونة ومسُّوفة وجُدالة ، فقد ظهرت فيها حركة جهاد اسلامية عرفت بحركة المرابطين ، تولى قيادتها نفر من أبطال الجهاد الاسلامى مثل عبد الله بن ياسين

ويوسف بن تاشفين . فأما عبد الله بن ياسين فهو منشىء الحركة وباعثها ، وقد كرس جهوده للامتداد بالاسلام فى نواحى غرب افريقية والسودان ، وهو الذى وضع أسس الدولة المرابطية الجليلة وفتح أبواب ما يعرف بافريقية السوداء — وما هى بسوداء — للاسلام ، وخلفه يوسف بن تاشفين ، وكان بطلا مجاهدا وقف حياته على رفع راية الاسلام .

وكانت دولة الاسلام فى الأندلس قد وهن أمرها بعد انتثار أمر الخلافة الأموية أوائل المائة الخامسة للهجرة ، وتوزع نواحيها نفر من الطامعين فى السلطان والجاه يعرفون بملوك الطوائف ، أضل الله رشادهم فحسب كل واحد منهم أنه يفوز بشىء اذا هو انفرد بناحية من نواحى الأندلس الاسلامى المجيد ، ونادى كل واحد منهم بنفسه أميرا على هذا أو ذاك من بلاد الأندلس ، وغاب عنهم أن قوة الاسلام فى وحدته ، وأن أمره اذا افترق لم يلبث الأعداء أن يتكالبوا عليه ويتخطفوا أرضه وأهله ، وهذا هو الذى كان : ما كاد ملوك الدول النصرانية فى شمال الأندلس يرون دولة الاسلام تتفكك حتى أقبلوا يتخطفون بلادها واحدا فواحدا ، فاذا كانت سنة ٤٧٧/١٠٨٥ سقطت طليطلة قلب دولة الاسلام فى الأندلس ، واحتل الأعداء هذا البلد الذى ظل حصنا من حصون الاسلام والعروبة قرابة القرون الثلاثة .

وتمكن العدو من قلب الأندلس وأخذ يغير على ما يحيط به من النواحى والبلاد ، وأفاق ملوك الطوائف من سكرتهم وأخذهم الندم بعد فوات الأوان ، واضطر أكثرهم الى أداء الجزية عن يد وهم صاغرون ، وتلفتوا يمنة ويسرة يبحثون عن مغيث فلم يجدوا الا أولئك المرابطين المجاهدين وأميرهم يوسف بن تاشفين ، فلم يكد صريخهم يبلغه حتى نهض لنصرة الاسلام يجر جحافل من المجاهدين تعدل تلك التى زحفت مع ألب أرسلان ، وهناك عند موضع يسمى الزلاقة على مقربة من بطليوس كتب للاسلام نصر أبيض عظيم سنة ١٠٨٧/٤٧٨ ، وكسر المرابطون ظهر الأعداء فى معركة حاسمة اعتز بها الاسلام دهرا ، ثم مضى يوسف بن تاشفين فوحد ما بقى من الأندلس الاسلامى تحت سلطانه ، وفى ظلال الوحدة عاد للاسلام عزه ومجده فى الأندلس من جديد .

*

وأما فى الشرق فقد كانت أمور الدولة البيزنطية قد صارت الى جندى من كبار المحاربين هو رومانوس ديوجينيس (يسميه المسلمون أرمانوس) كان أول أمره قائدا للجند ، وكان امبراطور الدولة قسطنطين العاشر قاصرا تتولى الوصاية عليه أمه الامبراطورة يثوداسيا ، ثم تزوجت القائد ورضيت به امبراطورا بدل ابنها ،

وكانت الظروف تستدعى رجلا يستطيع الثبات أمام ألب أرسلان وجنوده . وقد نهض رومانوس للأمر الذى ندبته له الظروف ، وعول على أن يسترجع أرمينية ، ولكن أحوال الدولة لم تكن لتعينـــه على ادراك ما طلب ، فان الأمراء الاقطاعيين كانوا قد استبدوا بأمور نواحيها واتخذ كل منهم لنفسه قوة من الجند تحميه . ولم يكن أولئـــك الاقطاعيون يحترمون رومانوس أو يطمئنون اليه ، اذ أنه لم يكن من أهل الفضل والخلق الكريم .

وكان عماد القوة العسكرية الى حين قريب فرقا مدربة من الفرسان ، وقد بلغت هذه الفرق أوج قوتها على رأس القرن العاشر الميلادى ، وهى التى مكنت للدولة من الايغال فى بلاد الخلافة العباسية والاستيلاء على أنطاكية وتهديد حلب تهديدا مستمرا . وكانت فرق من أولئك الفرسان تطوف دواما بأطراف البـــلاد الاسلامية لا تجد ثغرة الا نفذت منها ، فأهمل نفر من الأباطرة أمر أولئك الفرسان فتفرقوا ، ودخل بعضهم فى خدمة الاقطاعيين ، وأصبح اعتماد الدولة فى جيشها على جند مرتزق تستأجره من شتى النواحى ، يتألف من نورمانيين وفرنجة وصقالبة ، وجماعات من شذاذ الأتراك دخلوا خدمة الدولة للكسب والغنيمة (وكانوا يسمون تركوبولى) وأجناس أخرى كالبشناق والأرمن ومن اليهم

وقد أحس رومانوس (المعروف بالرابع) بالخطر يتهدد بلاده ، ورأى أن من واجبه أن ينهض لملاقاة ألب أرسلان ورجاله ، فاجتهد فى حشد أكبر عدد استطاع حشده من أولئك المرتزقين حتى اجتمع له منهم قرابة المائة ألف من طوائف شتى ، أكثرها عددا جماعات من تركمان روسيا يقودهم رجل منهم يعرف باسم يوسف طرخانيوتيس ، وأقواها جانبا فرقة من فرسان النورمان يقودهم رُوسِلْ دى بايُول .

وكان النورمان بلاء من بلايا ذلك العصر كله . ضاقت بهم بلادهم فى اسكنديناوة من أوائل القرن التاسع الميلادى فهبطوا على غربى أوروبا جماعات من القرصان ترهب البحر فى سفن خفيفة ذات أشرعة سوداء ، فأصابوا سواحل غرب أوروبا كله بكل أصناف الغزو والنهب والتحريق ، بل بلغ أذاهم الأندلس . ثم استقرت طائفة كبيرة منهم على شاطىء فرنسا الشمالى الغربى الذى عرف من ذلك الحين باسم نورماندى ، نسبة اليهم ، ومن هناك قاموا بغزو الجزر البريطانية بقيادة زعيمهم وليام النورمانى الذى سحق الانجليز فى معركة هيستنجز عام ٤٥٨/١٠٦٦ وبدأ فى تاريخ تلك الجزر عصرا جديدا ، واحتلت طائفة أخرى منهم جنوبى ايطاليا وأخذت تناجز مسلمى صقلية حتى انتزعتها منهم بعد حروب

طويلة انتهت سنة ٤٥١/١٠٦٠ بقيادة زعيم يسمى روبرت جيسكارد ، ودخل الباقون فى خدمة الملوك والأمراء جندا مرتزقين .

وكانوا رغم شجاعتهم فى القتال أميل الى الخيانة ، لا يكاد أمير يحبس عنهم المال حتى يتخونوه فى المعركة ، ولا يلوح لهم أمير آخر بمال الا انفضوا من حول صاحبهم وساروا اليه ، وكان روسل دى بايول هذا من أخطر قادتهم المرتزقين وأعرقهم فى الخيانة والحيلة والدهاء ، وكانت الدولة تعرف أمره ولكنها لم تكن لتستطيع الاستغناء عن خدماته .

بهذا الجيش الضخم المفكك الأوصال سار رومانوس للقاء جند الاسلام المتحد القوى ، وقد أقام الامبراطور على الجيش قائدا يسمى أندرونيكوس دوكاس ، يذهب مؤرخو الأوروبيين الى أنه كان حاقدا على الامبراطور ، ينتظر الفرصة المواتية ليتخلى عنه ويتركه لمصيره ، ولكن هذه كلها مبالغات يرمون من ورائها الى التقليل من قيمة النصر الذى كسبه المسلمون .

وكان ألب أرسلان قد انصرف اذ ذاك عن بلاد الروم لبعض شئون دولته فى آذربيجان ، فما راعه وهو فى ذلك البلد البعيد الا وأخبار مسير أرمانوس نحو بلاد المسلمين بهذا العسكر الجرار

تصل اليه ، فأسرع بمن تيسر له من الجند ، وأغذّ السير فى طلب الجهاد بنحو خمسة عشر ألف فارس ، وكان ملك الروم يبغى أن يخرج المسلمين من أرمينية ويتحصن بشعاب جبالهـا ثم يشن الهجوم ، فأوغل فى الجبال حتى أدرك سهلا يسمى خِلاط (يعرفه عند الروم باسم أخلاط) تتوسطه بحيرة تسمى بحيرة وان على مقربة منها موضـع يعرف بمَلاذْكِرْد (يسـميه الأوروبيون مانزِيكَرت) وهناك حط رحاله ووقف ينتظر المسلمين ·

وجدّ ألب أرسلان فى السير بهذا الجمع القليل الذى كان معه ، وكان يعرف، أنه فى الطريق الى مغامرة كبرى ، وماذا تجدى خمسة عشر ألفا أمام مائة ألف ؟ ولكن ايمانه بالله كان عظيما ، وكان يقول لمن معه : « اننى أقاتل صابرا محتسبا ، فان سلمت فنعمة من الله تعالى ، وان كانت الشهادة فان ابنى ملكشاه وليّ عهدى » . فلما اقترب من ناحية خلاط صادفته مقدمة الجيش الرومى ، وكانت عشرة آلاف مقاتل من الصقالبة (يسمون أيضا الروسية) فانقض عليها المسلمون فمزقوها وأسروا قائدها ، وأسرع المسلمون حتى صاروا أمام الجيش البيزنطى . وأراد ألب أرسلان أن يكسب بعض الوقت ، نظرا لقلة جنده ، فأرسل الى رومانوس يطلب المهادنة ، فأبى وملكه الغرور وقال : « لا هدنة الا بالرّى ! » والرّى هى

قلب مملكة ألب أرسلان ،وهى فى شرقى فارس ، فريع لهذا الرد ، وعرف أن ملك الروم قد جمع جموعه وعبأ جنده وأقبل واثقا من النصر ، فأخذ الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى يتلو عليه الآيات القرآنية والأحاديث ويثبته ويقول : « انك تقاتل عن دين وعَد الله بنصره واظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح » .

فلما كان يوم جمعة من رمضان ٤٦٤/ أغسطس ١٠٧١ وقد تجمع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها للصلاة فى مساجدهم والخطباء يدعون للمسلمين بالظفر والملايين تؤمن على الدعاء ، أسرع ألب أرسلان ففرغ من صلاته وعجل بدخول المعركة فى لحظة تدعو له الملايين فيها بالظفر ، فما هو الا أن أهلت طلائع فرسان الاسلام حتى شعرت جماعات التركمان فى الجيش البيزنطى بالحنين الى أبناء عمومتهم الأتراك المقاتلين تحت راية الاسلام ، فانضموا اليهم ، والتفت ألب أرسلان الى جنـده والدموع فى عينيه من خشية الله ، وقال : « من أراد أن ينصرف فلينصرف ، فما هنا سلطان يأمر وينهى ! » وألقى القوس والنشاب ، وأخذ السيف والدبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنّط وقال : « ان قتلت فهذا كفنى ! » وزحف الى

الروم وزحفوا اليه ، فلما قاربهم ترجل ، وعفر وجهه فى التراب وبكى وأكثر الدعاء ، وحمل وحملت العساكر معه .

وكان جيش الروم قد اضطرب أمره بعض الشىء بعد انصراف التركمان الى جانب المسلمين ، فقد رأى النورمان وقائدهم روسل دى بايول أنفسهم أمام فرسان لا قبل لهم بهم حمية وشجاعة ، فآثروا التراخى فى القتال وابتعدوا عن المعركة ، شأنهم فى كل معركة اشتركوا فيها مرتزقين : لا يقدمون الا اذا تأكدوا من أن النصر مضمون .

ونفذ المسلمون وسط صفوف الأعداء كالسهام المارقة ، فتبدد شمل الجيش البيزنطى وضاع نظامه ، ودهمهم المسلمون يأسرون ويقتلون ، وولت البقية هاربة ، ورأى أندرونيكوس قائد الجيش الرومى أن لا أمل فى النصر ، فسولت له نفسه أن يترك امبراطوره وسط المعركة ويسرع الى القسطنطينية ، بمن معه لينادى بنفسه امبراطورا ، وهكذا ترك رومانوس مع فلول الجيش ، فانهزم ووقع أسيرا بيد المسلمين . وأحضر بين يدى ألب أرسلان فضربه ثلاث مقارع بيده ، وجرى بينهما حديث طريف يدل على علو همة ذلك الأمير العظيم :

قال ألب أرسلان :

— ألم أرسل اليك فى الهدنة فأبيت ؟

فقال الامبراطور الأسير :

— دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد .

— ماذا عزمت أن تفعل بى لو كنت أسرتنى ؟

— أفعل القبيح !

— فماذا تظن أننى فاعل بك ؟

— اما أن تقتلنى ، أو تشهرنى فى بلاد الاسلام . والأخرى بعيدة ، وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائبا عنك .

— ما عزمت على غير هذا !

وبالفعل .. لم يقتله ألب أرسلان ولا أهانه ، وانما أطلقه لقاء فدية كبيرة ، وأخذ عليه عهودا تجعله حليفا للمسلمين ، أهمها أن يبعث أرمانوس الى ألب أرسلان مددا من العسكر فى أى وقت يطلبه ، وأن يطلق كل أسير مسلم فى بلاد الروم ، فلما أخذ عهده بذلك أنزله فى خيمة خاصة وأعطاه عشرة آلاف دينار يتجهز بها الى بلاده ، وأطلق ألب أرسلان كذلك طائفة من بطارقة الروم (أى نبلائهم) الذين أسروا فى المعركة . وقد كان صنيع ذلك الفارس النبيل حقيقا بأن يملك قلب الملك البيزنطى الأسير ، فما كاد يرى نفسه طليقا والمال بين يديه حتى سأل : أين جهة الخليفة ؟ فدل

عليها ، « فقام وكشف رأسه وأومأ الى الأرض بالخدمة (أى بالتحية) ، ثم سار يطلب بلاده فى حراسة عسكر من عساكر السلطان » .

هذا صنيع المسلمين مع ملك الروم الذى سار لحربهم ، وعندما سئل الهدنة قبل الموقعة قال انه لن يغمد السيف الا بعد أن يستولى على عاصمة سلطانهم ، فكيف كان فعل الروم أنفسهم مع امبراطورهم الذى خرج ليحارب فى سبيلهم ويحمى ذمارهم ؟ لم يكد خبر الهزيمة يصل الى القسطنطينية حتى نهض زوج ابنته ميخائيل دوكاس وأعلن نفسه امبراطورا وتلقب بميخائيل السابع ، وطالب أرمانوس بحقه وسعى فى طلبه ، ولكن أنصاره خذلوه ، وانهزم وقبض عليه . وسمل زوج ابنته عينيه بطريقة وحشية فلم يلبث أن مات شر ميتة ، وكان القائد أندرونيكوس الذى خانه فى المعركة قد وصل ، فكوفىء على الخيانة وأصبح من رجال الامبراطور الجديد !

هكذا انفتحت أمام المسلمين أبواب آسية الصغرى ، فاشتد أزر سلطنة السلاجقة التى قامت فى الجزء الشرقى من شبه الجزيرة وتولى أمرها أمير عرف فضل الاتحاد فدخل فى طاعة ألب أرسلان راضيا مطمئنا . ولم يلبث بقية المسلمين أن جنوا من ثمار الوحدة

فوق ما قدروا : أقبلت جماعات منهم ، من التركمان خاصة ، فاستقرت فى سهول الأناضول ، وأخذت هذه النواحى الغنية تتحول الى أرض يعمرها الاسلام .

كان ينبغى أن يفعل المسلمون ذلك قبل خمسة قرون ، فقد كان ينبغى أن تصل الوثبة الاسلامية الأولى على أيام الخلفاء الراشدين الى البحرين الأسود والأبيض فى آسية الصغرى حتى يأمن الاسلام ويسند ظهره الى حد طبيعى هو البحر . ولكن الفتنة الكبرى على عهد عثمان ، وما أعقبها من حروب أهلية صرفت المسلمين عن ذلك الهدف ، ولقد حاولوا على أيام الأمويين أن يستولوا على القسطنطينية من البحر فلم يوفقوا .

كان ينبغى أن يستولوا على آسية الصغرى أولا ، فلما تركوها دون فتح عاد العدو فاستقوى فيها ، بل تقدم ينتزع من أيديهم ما يستطيع مستغلا تفرق أمرهم على ما رويناه ، والآن وقد توحدت راية المسلمين فقد تنبهوا الى ما كان ينبغى أن يفعلوه منذ قرون ، وكسروا الروم كسرة أعادت الى الأذهان ذكريات اليرموك وأجنادين ، واستولوا على نصف آسية الصغرى فى بضع سنين ..

وكان ينبغى أن يواصلوا الزحف حتى يقضوا على العدو قضاء تاما ويستولوا على القسطنطينية ، ولكن أمراء النواحى فى فارس

وتركستان لم يتركوا البطل الفاتح يســير فى طريقه ، وأخذوا يتواثبون عليه هنا وهناك ، واضطروه الى أن يلوى عنانه عن الزحف المقدس لينظر فى أمرهم ، وفى هذا العبث التافه ضاعت البقية الباقية من حياة ملك عظيم كألب أرسلان ، بل كذلك ضاعت حياة ابنه الباسل ملكشاه ، ثالث العظماء من سلاطين السلاجقة

وهكذا نسينا درس الأمس ونحن على أبواب الظفر بالغاية الكبرى ، وتفرق أمرنا من جديد فظهر العدو على الأبواب ، ولكنه ظهر هذه المرة وفى نفسه حقد دفين ورغبة فى الانتصاف لما أصابه من هوان ، فجمع صفوفه وأنصاره واستغاث بغرب أوروبا ، فاجتمع أهلها معه على كلمة واحدة ، وأقبلوا يغزون الشام رافعين شارة الصليب ..

نعم ، كان التفرق هو الباب الذى دخل منه الصليبيون ، ولولا التفرق والاختلاف لاستولى ألب أرسلان على القسطنطينية وأقفل ذلك الباب الذى أتانا منه بلاء كبير . ولو أن الأنانيين آمنوا بفضل الوحدة لما كان هناك صليبيون ولا حــروب صليب ، ولأعفى الاسلام وأهله من بلاء وعناء عظيمين ، بل لخطت أمة الاســلام والعرب خطوات فساحا فى طريق الحضارة والسلام .

نقول ان ملكشاه ووزيره نظام الملك أنفقا بقية عمرهما فى

الحفاظ على وحدة الدولة والقضاء على العاملين على تفريقها بالطمع فى أجزاء منها . وكان فى مقدمة أصحاب هذه الأطماع نفر من آل ملكشاه ، أغراهم بالوثوب به اتساع رقعة الدولة وعسر الانتقال من طرف منها الى طرف ، فقد كانت تمتد من حدود الهند الى سواحل البحر الأبيض ، وكان سلاطين سلاچقة آسية الصغرى يدينون له بالولاء ، ودولة هذا اتساع رقعتها لا تظل وحدتها الا اذا حسنت نيات رجالها وآمنوا بفضل الوحدة وكفكفوا من مطامعهم ، والا فان صاحبها يظل عمره كله يقطع بلاده بجيوشه من طرف لطرف ، كلما أطفأ النار فى ناحية شبت فى ناحية ..

وهذا كان حال ملكشاه مع آله وأمراء النواحى فى دولته ، وقد أغراهم بالوثوب به ، وطلب الاستئثار بالسلطان من دونه أنه كان رجلا متسامحا طيب القلب أقرب الى العفو عن المسىء منه الى عقابه والتشديد عليه ، وكان شديد الرعاية لصلة الرحم كثير البر بأهله ، مستعدا للصفح عن أخطائهم ومجازاتهم عن السيئة بالحسنة فكانوا يشغبون عليه مطمئنين الى عفوه وصفحه . ثم ان الرجل كان مشغول القلب بحرب الروم ، يود لو قضى أيامه كلها فى آسية الصغرى يناجزهم ويقتطع من أراضيهم ، حتى لقد قضى أحسن سنوات عمره فى آسية الصغرى يشد أزر أبناء عمومته هنالك

ويغزو من بلاد الروم ما يستطيع غزوه ، ولقد رويت له فى حروبه مع البيزنطيين أخبار أشبه بالأساطير ، لأنه كان يأبى الا أن يسير فى مقدمة جنده وسيفه بيده ، فمن قائل انه وصل الى أسوار القسطنطينية ، ومن قائل انه وقع أسيرا فى أيدى الروم ذات مرة فلم يعرفوه ، ولو عرفوه لأهلكوه ، ولكنه — كما تقول القصة — استعصم بالصبر وكتب الى وزيره نظام الملك فاحتال له بحيلة أخرجه بها من أيدى أعدائه . والثابت على أى حال أن البيزنطيين هادنوه ، وأدوا اليه جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار .

وكان الرجل مؤمنا بالوحدة الاسلامية عاملا على تحقيقها عمره كله ، وكان يرى أن أقرب طريق للتوحيد هو أن يجمع الخلافة والسلطنة فى شخص واحد ، ولو رجل آخر لخلع الخليفة وجعل نفسه مكانه كما فعل السلطان سليم العثمانى فيما بعد ، ولكنه كان رجلا حييا يعرف قدر نفسه ، ويعلم أنه لم يؤت من العلم ما يؤهله للخلافة ، فاكتفى بتزويج احدى بناته من الخليفة المقتدى بأمر الله تيمنا بمصاهرة البيت النبوى الكريم ، ورجا أن يرزق الله ابنته بولد يحسن تربيته ويعده لخلافة المسلمين . ولم يكن الزواج موفقا ولكن ابنته أنجبت الغلام المرتجى ، ففرح به وسماه جعفرا وعنى به حتى آثر الاقامة فى بغداد ليكون الصبى تحت بصره ، وقرت

عينه وجمع أمراءه فى بغداد فى شبه مؤتمر لينظر معهم فى أمور دولته التى بلغت أوجها فى عام ٤٨٤/١٠٩١ .

وكان يدبر دولة ملكشاه الوزير العظيم أبو على الحسن بن على ابن اسحاق المعروف بنظام الملك ، وهو درة من درر تاريخ الاسلام، اذ كان وزيرا مدبرا بعيد النظر حسن السياسة . وتحكى الأساطير أنه كان وعمر الخيام الشاعر والحسن الصباح منشىء دعوة الحشاشين زملاء فى الدراسة ، وأنهم اجتمعوا مرة فتمنى كل منهم على الله ما يحب أن يصير اليه فى مقبل الأيام ، فأما نظام الملك فقد رجا أن يكون من رجال الدولة ليعمل على لم شعث المسلمين ، وأما عمر الخيام فتمنى أن يكون من أهل الشعر والحكمة ، ورجا الحسن الصباح أن يكون نصيرا للشيعة لكى يأخذ بثأرهم من أهل السنة ، فكان لكل منهم ما أراد . وهذه لا شك أسطورة ، ولكن الأساطير لها مغزاها ، لأنها تصدر عن خيال الشعوب حاملة احساسها الصادق مصورة حكمها على الأشياء ، فكأن الخيال الساذج الذى نسج هذه الأسطورة قد أراد أن يصور كيف أن نور الحكمة والهام الشعر وقوة الخير وعوامل الشر انما تصدر كلها عن قلب الانسان وارادته ، وأن الانسان يضع نفسه حيث يريد : سائسا حكيما أو شاعرا ملهما أو شيطانا رجيما .

ولقد ساس نظام الملك دولة ملكشاه أحسن سياسة ، وجمع أطراف المملكة ونفع سلطانه برأيه وحسن مشورته ، وكان على علم واسع وشوق الى نشر المعرفة ، فأنشأ المدرسة النظامية ببغداد ، وهى أول مدرسة منظمة ذات أساتذة ومكتبة وطلاب يحضرون الدروس وفق منهاج مقرر فى تاريخ الاسلام ، بل فى تاريخ العصور الوسطى كلها ، وكان من بين أساتذة هذه المدرسة حجة الاسلام أبو حامد الغزالى ، فقد تولى التدريس فيها زمنا ، ثم اعتزل وطلب الوحدة فى جامع دمشق ليؤلف ويتأمل ، وفى وحدته كتب كتابه الخالد « احياء علوم الدين » .

وكان الحسن الصباح فى أثناء ذلك يعمل جاهدا فى نشر مبدأ فلسفى سياسى زعم أن فيه نجاة البشر ، ولم يكن هذا المذهب فى الحقيقة الا ثوبا أضفاه على مطامعه الخاصة ، فقد كان طموحا الى السلطان يرى فى الفوضى الضاربة فرصة أتاحتها له المقادير لكى يجعل من نفسه اماما للمسلمين . فمضى يدعو الى ما سماه الامام الصادق وزعم أنه اسماعيل ، فاجتمعت حوله طائفة من المغامرين مضوا يجوبون البلاد لكسب الأنصـار ، فلما تبينت لهم استحالة نجاح الدعوة اتجهوا الى الاستيلاء على حصون يجعلونها مراكز لأعمالهم ومعتصما فى وقت الخطر ، واتجه الحسن

الصباح ببصره نحو فارس ، وتمكن فى سنة ٤٨٣/١٠٩٠ من الاستيلاء على قلعة ألموت وقلاع أخرى ، ثم جعل ألموت عاصمته ومركز أعماله ، ورأى أن قواه لا تنهض لمواجهة قوة السلاجقة والخلفاء ، فعول على أن يلجأ الى الاغتيال السياسى : كلما خاف ملكا أو وزيرا دس عليه من يغتاله ، وكان أول من سقط ضحية له الوزير نظام الملك .

وكان رجال الطائفة يخدعون الأحداث ويضمونهم الى صفوفهم باسم الدعوة الدينية ونصرة أهل البيت ، وكانوا يملأون قلوبهم حقدا على غيرهم من المسلمين ، ويستعينون فى التأثير عليهم بالمخدر يقدمونه لهم فى وفرة ، فاذا مالت رءوسهم أمروهم بما يريدون من سفك الدماء ، ولهذا فقد سموا الحشاشين ، وأصبحوا رعب أهل زمانهم : لا يفكرون الا فى القتل والاغتيال ، حتى أصبح لفظ الحشاشين فى ذلك العصر مرادفا للقتلة والسفاكين ، وبهذا المعنى أخذ الصليبيون هذا اللفظ عندما نزلوا الشام ، وحوروه الى : أساسان (assassin) ، ومعناه الى اليوم : القاتل السفاك .

وقد حقد رجال هذه الدعوة الخبيثة على نظام الملك ، وخافوا من جهده المتصل فى نصرة السنة وتوحيد أهلها ، فما زالوا يدبرون حتى رصدوا فتى من فتيانهم للوزير الجليل فاغتاله فى رمضان

سنة ٤٨٥ / أكتوبر ١٠٩٢ ، وهذه أول جناياتهم الكبرى على وحدة الاسلام ، وستراهم يغتالون فيما بعد نفرا من أبطال الوحدة والعاملين عليها .

وكان موت نظام الملك ايذانا بانتقاض دولة ملكشاه وضياع الوحدة التى بناها هو ووزيره الشهيد ، وقد حاول أن يحقق حلمه البعيد قبل موته بأسابيع وطلب المناداة بحفيده خليفة وسلطانا ، ولكن المنية عاجلته فى شوال ٤٨٥ / نوفمبر ١٠٩٢ ، واختلف خلفاؤه على الملك وتحاربوا بينما كانت أوروبا تتجمع وتستعد للهجوم على بلاد العرب والاسلام ، وما هى الا سنوات قلائل حتى وصلت جحافلهم الى بلاد الشام . ولو تقدموا عشر سنوات لما استقرت لهم فى بلاد العرب والمسلمين قدم ، فقد كان أمر الدولة مجتمعا : يقودها ملكشاه ويسوسها وزيره نظام الملك ، ولو أن خلفاءه لم يتفرقوا ويتحاربوا طمعا فى المغنم الزائل لما جرؤ العدو على الاقتراب من حياضنا .

— ٣ —

مأساة الحملة الصليبية الأولى

عيسى ! سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ ... هان الضعاف عليه والأيتام
ياحامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت علينا باسمك الآلام !

«أحمد شوقي»

اختلفت الآراء حول الدوافع التي جعلت أوروبا كلها تخرج للعدوان على العالم الاسلامى حاملة شارة الصليب ، فمن قائل أن الدافع الأول كان الاستيلاء على بيت المقدس لتأمين حجاج النصارى الى قبر السيد المسيح عليه السلام ، ومن قائل أن سكان غرب أوروبا كانوا قد زادوا اذ ذاك زيادة كبرى فضاقت بهم أوطانهم واحتاجوا الى منافذ تستوعب من زاد ، ومن قائل ان الأحوال المعاشية فى بعض نواحى الغرب الأوروبى كانت قد ساءت الى حد دفع أهل الطبقات الدنيا الى البحث عن مهرب مما كانوا

فيه من البلاء ، ومن قائل ان البابوية كانت فى سعى دائم نحو السلطان على أهل الحرب والسياسة ، فابتكرت فكرة توجيه النصارى لحرب المسلمين تحت اشرافها وبتوجيهها فيكون ذلك توكيدا لسلطانها عليهم ، وتحقيقا لحلم البابوات القديم فى السيطرة والسلطان . والحقيقة أن هذه العوامل مجتمعة هى التى دفعت الغرب الأوروبى الى التجمع والخروج للعدوان على بلاد العرب والمسلمين أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

وليست هذه الحروب الصليبية بالحدث الأول من هذا النوع فى تاريخ العلاقات بين الغرب والاسلام : فقد تجمع الغرب الأوروبى وعدا على الأندلس الاسلامى عدوانا دمويا متصلا ، وتجمع واعتدى على المغرب الاسلامى أكثر من مرة كذلك ، وفى العصر الحديث جمع الغرب قواه كلها وعدا على بلاد العرب والمسلمين جميعا عدوانا سافرا لازلنا نقاسى عقابيله الى اليوم ، فلما أيدنا الله بقوة من عنده وشددنا سواعدنا وأخرجناهم من بلادنا استعانوا بالصهيونية العالمية وأيدوها فيما سموه انشاء وطن قومى لليهود فى قلب بلادنا ، وكانوا يرجون أن تجتاحنا الصهيونية وتمهد لهم أمر استعمارنا من جديد ، فلما أحبطنا هذا المسعى ، وحصرنا عصابة الصهيونية فى ركن ضيق ومضينا نشدد عليها الخناق حتى أخذت

تحتضر ، جمعوا جموعهم مرة أخرى وعادوا يضربون قلب العروبة الخافق فى عدوانهم الغاشم أواخر عام ١٩٥٦ ، فلم ينفعهم الله بشيء من غدرهم واصطدموا بالمارد العربى العملاق وقد صحا من نومه وسار فى طريق العزة تحت راية الناصر جمال الدين ، كما سار مظفرا منذ تسعة قرون تحت راية الناصر صلاح الدين ، فأيقنوا بالخيبة وهبت عليهم رياح الفشل من كل جانب ، فمضوا يلتمسون الثغرات ويتطلبون العـورات ، وكلما عثروا بضعيف النفس أو مضلل القلب لم يشرق قلبه بنور العروبة والاتحاد تجمعوا حوله يؤيدونه ويشدون أزره ، فلا يزيدهم الله الا خيبة بعد خيبة ، وتنهض الشعوب العربية الواعية فتطوح بالضعيف والضال ومن ختم الله على قلبه ، وتسرع الى الجحفل العربى اللجب وتأخـذ مكانها فيه ، وكلما ائتمروا بنا أفسد الله سعيهم ونصرنا من حيث أرادوا أذانا .

فالحروب المعروفة بالصليبية ، على هذا ، ليست الا فصلا من فصول هذا العدوان الطويل الذى لم يكف الغرب عنه أبدا . ومهما بحثنا فى أسبابها ، فاننا ننتهى الى أن الحماس الدينى كان آخرها ، أما أول الدوافع وأهمها فهو الطمع فى بلاد الشرق والرغبة المبيتة فى القضاء على الاسلام . وتاريخ هذه الحروب لا يبدأ فى ذلك

اليوم التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ الذى وقف فيه البابا أربان الثانى فى كنيسة كليرمون فى فرنسا ، ودعا رجال النصرانية أجمعين للانتظام جيشا واحدا والسير للقضاء على المسلمين ، بل ترجع الى ما قبل ذلك بسنوات طويلة ، ولكن ميدانها كان الى ذلك الحين فى أقصى الجناح الغربى لدولة الاسلام .

ذلك أن البابوية عندما استشعرت ضعف دولة الاسلام فى الأندلس وتفكك أمر المسلمين فى تلك الجزيرة رأت أن تنتهز الفرصة لتقذف بالمحاربين من شتى نواحى الغرب النصرانى الى الأندلس ليعينوا على اخراج المسلمين منه ، فأرسلت نفرا من دعاتها يحملون الى نصارى شمال شبه الجزيرة الايبيرية تأييد البابوية ، ويؤكدون لهم أن حربهم مع المسلمين انما هى حرب دينية فى نصرة الصليب ، ولم يكن نصارى شمال اسبانيا يقاتلون المسلمين قبل ذلك بسلاح الدين ، وانما كانوا يرونه صراعا بينهم وبين العرب على السلطان ، ولم تكن فى القتال بين الجانبين الى ذلك الحين مرارة العصب الدينى ، بل كانوا يعترفون بتفوق العرب عليهم ويقبسون من علومهم وحضارتهم ، وكان بينهم تبادل منافع وتواد بعيد المدى .

فلما وضعت البابوية يدها فى الأمر وأخذت تحرض الناس على

المسلمين وتبعث بالمغامرين من نواحى فرنسا لقتالهم ، أخذ الصراع صورة دموية رهيبة تجلت لأول مرة سنة ٤٥٦/١٠٦٣ فى مفاجأة حملة فرنسية اسبانية لبلد اسلامى صغير وادع هو بربشتر على مقربة من سرقسطة ، نزل به « الصليبيون » المزعومون وهم ألوف فقتلوا من أهله ألوفا وأسروا ألوفا من النساء وباعوهن رقيقا ، وانتهى الجهاد الدينى عند ذلك . وسعد البابا جريجورى السابع بتلك المذبحة فمضى يحرض الفرسان والمقاتلين على المسير الى الأندلس لحرب المسلمين ، فسار المقاتلون أرسالا يحملون شارة الصليب ولا هم لهم الا غنيمة الأموال وقتل الناس وأسر النساء وبيعهن فى الأسواق .

والبابا جريجورى السابع هذا هو أول من دعا بهذه الدعوة التى أغرقت الدنيا كلها فى الدماء من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى الى نهاية الخامس عشر ، فقد كان رجلا طامعا فى السلطان ظمئا الى الدماء ، وقد أوقع بطمعه البابوية فى حروب ومتاعب مع ملوك أوروبا ، وختم حياته شريدا هاربا من بلد لبلد فى ظلال الفشل والحزن والكآبة .

وخلفه البابا أربان الثانى فى مارس ١٠٨٨ (ذى الحجة ٤٨٠) ، وهو رجل فرنسى كان يحمل قبل أن يلى كرسى البابوية اسم

أودو دى لاچرى ، توسم فيه جريجورى القدرة على مواصلة سياسة الحرب والعدوان التى قضى هو عمره فيها ، فأوصى له بالبابوية من بعده وبايعه عليها نفر من الكرادلة المنشقين على بابوية روما ، فاحتمى بالنورمانيين ، وكانوا اذ ذاك شعبا مقاتلا متعطشا الى الدماء لا يرى معمعة الا خاض غمارها يقتل وينهب ، فما زال أربان يسعى ويدبر ويرشو الناس حتى رضى عنه هنرى الرابع امبراطور ألمانيا ، ومكن له من دخول روما عام ١٠٩٣ (٤٨٥ هـ) ، وعاونه أبناء وطنه من رجال الدين الفرنسيين ، فثبتت أقدامه .

وفى سعيه المتصل نحو السلطان خطرت بباله فكرة توجيه النصارى لحرب المسلمين ، متعللا بما أخبره به بعض القسوس والرهبان من سوء معاملة المسلمين لحجاج النصارى ، وقد كان هذا الرجل يعلم أنه هو نفسه لا يأمن على نفسه وسط بلاد النصرانية ولا يستطيع دخول روما ، وأن حجاج النصارى لا يأمنون على أنفسهم وهم يقطعون الطريق الى بيت المقدس خلال بلاد أوروبا النصرانية ، فاذا وصلوا بلاد المسلمين أمنوا فى رعاية السلاطين ، وكان يرى نفسه محاطا بالأعداء ، وكنائس الكاثوليكية تحرق فى بلاد النورمانيين وفى ألمانيا والمجر وبلاد الدولة البيزنطية ، ومع ذلك فقد زعم للناس أنه صدق ما ألقى اليه هؤلاء القسوس ،

ومضى يبالغ فى تصوير حال حجاج بيت المقدس وما يلقونه من أذى المسلمين ،لكى يصرف الناس عن مناوأته ويصرفهم عن حرب بعضهم بعضا ويوجه عطشهم للدماء نحـو مورد يشربون منه ولا حرج ، ووقف يخطب على باب كنيسة كليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥ (شوال ٤٨٨) فى دهماء ورعاع حياتهم فى بلادهم شظف وشقاء ، ويمنيهم بالخير الذى يفوزون به فى بلاد المسلمين ، ويقول لهم : « أنتم هنا فقراء تعساء ، وهناك ستكونون سعداء يهبط عليكم الرخاء وأصحابا مخلصين لله . لا تأخير بعد اليوم ! لتكونوا على الأهبة للخروج للقتـال عندما يبلغكم النـداء ، وسيكون الله مرشدكم ! » .

وتسامع الناس بما يدعو اليه البابا من اهدار دماء المسلمين ومنح المقاتلين أرضهم وأموالهم ، فأقبلوا خفافا فرادى وزرافات يقيدون أسماءهم ويستعدون للخروج الى الشرق ، ومن فرنسا انتقل البابا الى ايطاليا ومنها الى ألمانيا ينشر رسالة الحرب والدماء ، فما وافى ربيع ١٠٩٦ م حتى كانت أوروبا كلها قد أصيبت بهوس يسمى قتال العرب والمسلمين ، وأخذت الجيوش تتجمع والجحافل تنتظم ، والبابا يباركها ويمنحها شارة الصليب ويعدها بخيرات ما ينزلون به من أرضين .

والمسلمون عن ذلك كله لاهون .. سادرون فى الحروب فيما بين بعضهم وبعض بعد موت ملكشاه ، وحتى سلطنة سلاچقة آسية الصغرى ، وكانت على باب الحرب ، لم يسلم سلطانها قلج أرسلان ابن سليمان بن قطلميش من منافسين وواثبين يضطرونه الى تفريق قواه شرقا وجنوبا ، والعدو مقبل من الغرب والشمال ..

وما أشبه الليلة بالبارحة ! وكأنما أقبل التاريخ يعيد نفسه أواخر القرن الثامن عشر ، فبينما كان أمراء المماليك يحترب بعضهم مع بعض فى مصر ، وشيوخ الجبال والبوادى يقاتل بعضهم بعضا فى الشام والعراق ، وطلاب السلطان يتقاتلون فى طول المغرب وعرضه ، كان نابليون يجمع جمعه لغزو مصر ، ومن خلفه أوروبا كلها تتأهب للانقضاض على بلادنا فى كل مكان ، وما هى الا سنوات حتى نزلوا بلادنا يعينهم علينا تفرقنا واشتغال كل منا بنفسه ، فلم تكن هزيمتنا عن قلة وانما عن أنانية ، ولم تكن نتيجة تفوق خصومنا علينا فى شجاعة أو قدرة ، وانما كانت نتيجة لنومنا الطويل وانصرافنا الى توافه المنازعات :

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها ، تولى رعيها الأسد

ولم يكن أولئك الصليبيون أسدا ولا شيئا شبيها بالأسود ، وانما كانوا طغاما جائعا يسوقهم طواغيت طامعون ، وأى شىء

يكون راهب زائف كهذا البطرس الملقب بالناسك ؟ وهو شيخ فرنسي كان مواطنوه يسخرون منـه ويلقبونه « كيوكيو » أى الضئيل بلهجتهم المحلية ، زعم كذبا أنه أراد الحج الى بيت المقدس فمنعه المسلمون ، ومضى يمشى حافيا يجر حمارا يركبه بين الحين والحين ، لا يغسل ملابسه أبدا ولا يقرب الماء جسده ، فلم يكد يسمع الدعوة لحرب المسلمين حتى ألقى بنفسه فى عبابها ، ومضى يبشر الناس بأنهار من لبن وعسل تفيض عليهم فى أرض المسلمين ، وقال ان نهاية العالم قريبة لا شك فيها وأنه لم يبق الا قليل حتى يعود المسيح الى الأرض ، ولا ينبغى أن يعود الا وقد استرد النصارى بيت المقدس !

فتجمع التعساء والمساكين حوله آلافا سار بهم من فرنسا الى ألمانيا ، لا يمرون على بلد الا نهبوا ما فيه ، فيحاربهم النـاس ويقتلون منهم من قدروا عليه ، حتى هلكت منهم مئات بعد مئات ، ثم انضم اليه نفر من مغامرى الفرسان من طراز والتر الملقب بالمفلس ، فلما كبر جمعه ونيف على العشرين ألفا خرج اليه بعضهم بنسائهم وأولادهم كأنما هم مهاجرون ، وأعلن المسير الى الشرق ، وفى الطريق فقد سيطرته على هذه الجموع فانطلقت نحو المجر تسرق وتنهب ، ووصلوا بلغراد فنهبوها وأشعلوا فيها النيران ،

وعندما بلغوا القسطنطينية نهبوا ضواحيها بل اقتحموا الكنائس وسرقوا كل ما فيها ، حتى الرصاص الذى يغطى سقوفها انتزعوه وباعوه ، ولم تخلص منهم الدولة البيزنطية الا بشق النفس .

فلما صاروا فى آسية الصغرى انقسموا على أنفسهم ، وسار الايطاليون والألمان منهم وحدهم يتزعمهم قائد يسمى راينالد ، ومضوا يخبطون خبط عشواء فى شعاب الأناضول حتى قاربوا نيقية عاصمة سلاجقة آسية الصغرى ، فأسرع اليهم المسلمون وحاصروهم وشدوا عليهم الخناق ، فلما تأكد المسلمون أنهم مستسلمون لا محالة أعلنوا اليهم أنهم يطلقون سراح من يعتنق الاسلام منهم ، فما أسرع ما دخل راينالد فى الاسلام وهو لا يزال يحمل شــارة الصليب على صدره ، وتبعه فى ذلك نفر كبير من رجاله ، وأما البقية التى كانت قد انخدعت بأقوال بطرس فقد فنيت عن آخرها ، وصاحبنــا الراهب مقيم فى القسطنطينية يتفرج على المرتدين والهالكين ممن ساقهم الى ذلك الجحيم ..

*

ولقد تعودنا — نتيجة لما قرأنا من كتابات الغربيين عن الحروب الصليبية — أن ننظر الى أولئك الذين قادوا هذه الحملات على أنهم فرسان نبلاء يصورون المثل العليا لفروسية العصور الوسطى

وللحماس الديني الذى سادها ، وتعود المؤرخون كذلك على أن يغفروا لهم الأذى والتخريب اللذين ألحقوهما بما وقع فى أيديهم من بلاد المسلمين ، على اعتبار أنهم كانوا يحاربون أعداء لهم فى الدين مما يجيز لهم عدم التقيد بقواعد الخلق أو آداب الفروسية . ولكن الحقيقة أن الغالبية العظمى من أولئك الذين قادوا الحملة الصليبية الأولى كانت أبعد شيء عن خصال الفرسان وقواعد الخلق الديني ، وقد ارتكبوا وهم يجتازون بلاد أوروبا فى طريقهم الى الشرق من الجرائم وأعمال النهب ما يؤيد ذلك الحكم الذى أصدرته عليهم وتؤيده مؤرخة مسيحية مثلهم معاصرة لهم هى أنا كومنين ابنة الامبراطور ألكسيوس البيزنطى ، فلم يكونوا فى نظرها الا برابرة أجلافا وطغاما طامعا جائعا لم يحمل شارة الصليب الا طمعا فى الغنيمة . والوقائع كلها تؤيدها فيما قالته ، ويكفى أن نقف لحظات عند بعض الظاهرين منهم لنستبين صحة ذلك المقال :

خرج الصليبيون أول الأمر فى أربعة جيوش يبلغ مجموع جندها مائة ألف ما بين فارس وراجل ومهاجر وحاج ، غير العشرين ألفا التى سارت مع المشعبذ بطرس الناسك وصاحبه والتر سانز آفوار (المفلس) . فأما الجيش الأول فقد خرج من جنوب فرنسا يقوده رايموند كونت تولوز الذى يعرف أيضا بروبرت صاحب سان

چيل (يسميه المسلمون صنجيل) ، وأما الثانى فخرج من شمال فرنسا وبعض نواحى بلچيكا يقوده روبرت دوق نورماندیا ، وهو الابن الأكبر لوليم الفاتح (الذى غزا انجلترا سنة ١٠٦٦) وابن عمه روبرت الثانى دوق الفلاندر وصهره أسطفان كونت بْلُوَا . وخرج الجيش الثالث من نفس الناحية يقوده جُودْفْرُوَا دى بْوَيُّون وأخوه بلدوين (أو بودوان) دى بولونيا . وخرج الجيش الرابع من جنوبى ايطاليا ، وجله من النورمانيين الذين غزوا هذه الناحية من البيزنطيين وانتزعوا صقلية من المسلمين ، وكان يقوده بوهيموند أمير طارنط (تارتنو) وابن أخيه تانكرد .

أى أن ثلاثة أرباع الذين ساروا لحرب المسلمين فى هذه الحملة الأولى كانوا فرنسيين ، فاذا ذكرنا أن البابا أربان الثانى نفسه كان فرنسيا ، وكذلك بطرس الناسك ووالتر المفلس ، تبينا أن الذين أشعلوا هذه الحرب الهوجاء على الاسلام والمسلمين كانوا فرنسيين . وليس ذلك مصادفة ، فحيثما وقع اعتداء على الاسلام وأهله وجدنا الفرنسيين أول المعتدين ، وفى العصور الحديثة كان أول من قاد الغرب فى الهجوم على الشرق فرنسيا هو نابليون ، وبالأمس القريب كان الفرنسيون أصحاب الدعوة المجرمة للعدوان على مصر فى أواخر سنة ١٩٥٦ ، واليوم لا زالت

فرنسا تفتك بمسلمين اخوان لنا فى الجزائر وتحاول أن تقضى فى ذلك البلد الاسلامى الكبير على الاسلام والمسلمين . ولا زال هناك مع الأسف الشديد مسلمون يزعمون أن فرنسا يمكن أن تكون صديقة للاسلام وأهله ، ويدعون الى التعاون معها ويدعون أهلهم الى الثقة فيها !

فأما كبير أولئك الرجال — رايموند كونت تولوز — فقد كان شيخا فى الستين من عمره لم تعرف عنه الى ذلك الحين كفاية أو مقدرة ، وقد أخذ بنصيب فى الحملات المخربة التى قام بها أهل جنوبى فرنسا على المسلمين فى الأندلس ، وكان دعيا مغرورا بارد الطبع ، بدت له الحرب الصليبية وكأنها فرصته الكبرى فى الرياسة والقيادة ، ولذلك عجل بالدخول فى دعوة أربان بعد اعلانها بأيام وطالب بأن تكون له رياسة الجيوش ، وقد كذب حينما أعلن أنه سيقضى البقية الباقية من عمره فى حرب المسلمين وزعم أنه تخلى عن أملاكه ، لأنه حرص فى السر على أن يتفق مع ابن غير شرعى له على أن يدير له أراضيه أثناء غيابه ، ولم يتنازل عن وظيفته كحاكم لكونتية تولوز ، بل لم يتركها لابنه ألفونسو ، فكأنما لوح للناس بالصليب وأبطن الطمع والجشع والتمسك بما فى يده من خيرات الدنيا . وقد حرص على أن يبيع ما باع من أملاكه بأغلى ثمن

استطاعه ، ثم قتر على جنده فى الانفاق حتى شكوا الفاقة ورموه بالبخل الشديد .

وكان فيه طمع وجشع وعناد واحتقار للآخرين ، وعندما لقى الامبراطور البيزنطى أخذ يداور ويخادع ويأكل الحسد قلبه من قادة آخرين مثل بوهيموند النورمانى . وقد لقى أصحابه منه عناء بالغا منذ دخلوا بلاد المسلمين ، وخاصة بعد وقوع أنطاكية فى أيديهم ، ووقع الشقاق بينه وبين قادة الحملة ، لأن بوهيموند النورمانى أسرع فاحتل قلعة أنطاكية ووقف رايموند ينازعه ويطالب بها لنفسه ، وعندما شعر أن أحدا لا يؤيده مضى يستولى على بلاد صغيرة غير حصينة مثل معرة النعمان ، وأراد أن يعطل السير الى بيت المقدس حتى يضمن لنفسه سيادة أنطاكية ، فلما يئس منه أصحابه انفضوا من حوله ، فاضطر الى المسير فى أعقابهم ، وعندما حاصر الصليبيون بيت المقدس كان أقلهم بلاء وثباتا ، فلما دخلوا البلد كان من أكثرهم اسرافا فى قتل الأهلين العزل الآمنين ، ومع ذلك فقد أخذ رشى من بعض المصريين وتركهم يسيرون الى عسقلان ، فنفض الصليبيون أيديهم منه ، وتأكدوا أنه طالب عيش ومال لا صاحب جهاد . وعندما جاء الأوان لانتخاب ملك لبيت المقدس ، أسف أشد الأسف على ما كان قد عاهد البابا عليه من

أن تكون الرياسة العليا للمندوب البابوى ، فاضطر الى التخلى عن ذلك المنصب الكبير ، ثم أسرع ليفوز بشىء قبل أن تضيع الفرصة ، فجعل نفسه أميرا على طرابلس .

ولم يكن روبرت دوق نورمانديا قائد الجيش الثانى بخير من رايموند ، فقد اشترك فى الصليبيات عن يأس من تحسين حاله فى بلاده : كان الابن الأكبر لوليم الفاتح ، ولكن أمله فى العرش كان منعدما ، اذ أن الناس كانوا يستضعفونه ، حتى كان أخوه وليام روفوس يعتدى على أملاكه ، واضطر البابا أربان الى التدخل لحمايته ، وربما يكون هو الذى نصحه بالانصراف عن تلك الامارة التى لا يطمئن فيها على نفسه ، والبحث عن ملك جديد فى الشرق ، ولم يكن له فى الحروب بعد ذلك شأن يذكر ، فيما خلا اشتراكه فى الاستيلاء على معرة النعمان واحراقها قبل المسير الى بيت المقدس .

وقد رافقه فى الحملة صهره أسطفان كونت بلوا ، زوج ابنة وليم الفاتح وهو لم يخرج الى الحرب الا لأن زوجه أمرته بالخروج فامتثل أمرها ، وعندما وصل الى القسطنطينية وتلقى هدايا الامبراطور ألكسيوس فرح بها وكتب الى زوجه يقول لها : « ان أباك يهدينا الشىء بعد الشىء ، ولكن هداياه لا تقاس بما

أتحفنا به هذا الرجل » ، ولم يظهر له فى الحرب بعد ذلك أثر . أما صاحبهما الثالث روبرت كونت فلاندر فلم تذكر له الحوليات بعد ذلك الا مشاركة ضئيلة فى الاستيلاء على معرة النعمان .

أما جودفروا دى بويون وأخوه بلدوين دوق بولونيا ، وهما قائدا الجيش الثالث ، فكانا مثالين للطمع والقسوة وعدم المبالاة بالدماء . ويذهب مؤرخو الحروب الصليبية الى أن جودفروا يعتبر المثال الحى للفارس المسيحى ، ونسجت حوله الأساطير الأوروبية هالةً من المجد لا تستند على أصل من الواقع ، فقد كان الرجل عندما ترددت الدعوة الى الحرب الصليبية يقف أمام مستقبل مظلم : كان هنرى الرابع امبراطور ألمانيا قد صادر أملاكه ولم يدع له الا كونتية أنتورپ ، فاجتهد فى كسب ود هنرى حتى حارب البابوية اكراما له ، فرضى عنه هنرى ومنحه دوقية بويون ، وهى القسم الأدنى من اللورين ، فأساء الادارة وعسف الناس حتى قرر هنرى عزله ، فاذا هو على وشك العزل اذ ترددت الدعوة لحرب المسلمين ، فوجد فيها فرجا من حرج ، ودخل المعمعة على أمل أن يجد لنفسه فى الشرق ملكا . ولكى يحصل على مال يستعد به للخروج الى الشرق . صادر أموال اليهود فى امارته ونهب دورهم وقتل بعضهم قتلا ذريعا حتى ليقال انه كان يشويهم على السفود .

وعندما وصل الى القسطنطينية لم يكن له هم الا كسب ود الامبراطور البيزنطى حتى يعينه على ادراك احدى الولايات ، وتكالب فى الحصول على امارة حتى كاد ينصرف عن بيت المقدس، وعندما استولى النصارى على هـذا البلد أفتى القساوسة بأنه لا يجوز أن يتوج أحد على البلد الذى توج فيه المسيح بالشوك على زعمهم ، ولكنه ضرب بفتواهم عرض الحائط وجعل نفسه أميرا ، ثم أوصى لأخيه بلدوين من بعده ، لأن المـلك ، لا قبر المسيح كان هدفه الأول والأخير . ولم يكن بلدوين هذا الا سفاكا للدماء عاتيا بعيدا عن خلق الفرسان، وقد اشتهر بقتل الأسرى واحراق القرى ونهب الماشية والنّعم ، وهو أقرب الى رجال العصابات منه الى قادة الجيوش ، ولم تطمئن نفسه حتى توج نفسه ملكا على بيت المقدس. وكان قبل اشتراكه فى الحرب الصليبية فارسا لا يملك أرضا ، وكان ذا ولع بالنعيم والجاه حتى غرق فى الدّين ، فلما رأى فرصة الحرب أخذ زوجه وأولاده ومضى الى الشرق على غير أمل فى العودة .

وكان النورمانيون — وهم الجيش الرابع — شر الجميع . كانوا فى تلك العصور جنسا نهابا من اللصوص والقراصنة يغيرون على الشواطىء ويحرقون القرى ويخطفون ما تيسر لهم خطفه ،

ثم يعودون الى سفنهم . وقد أنزلوا الخراب بكل ناحية مروا بها سواء فى بلاد النصرانية أو الاسلام ، وتفرقوا جماعات حطت كل جماعة منها بناحية كأنهم الجراد المنتشر . وقد غزت جماعة منهم انجلترا وأنشأت فيها دولة النورمانيين ، ونزلت جماعة أخـرى جنوبى ايطاليا وانتزعتها من البيزنطيين ، ونهزت فرصة تفرق أمر المسلمين فى صقلية فاستولت منهم على تلك الجزيرة ، وأنشأت فى جنوبى ايطاليا وصقلية ملكا عريضا . ومن هذا الفرع من النورمان خرج الجيش الرابع وعلى رأسه بوهيموند وابن أخيه تانكرد ، وكان كلاهما الى ذلك الحين أميرا شقيا يبحث لنفسه عن مصير .

فأما بوهيموند فقد كان ابنا لروبرت جسكارد ملك الدولة النورمانية فى جنوبى ايطاليا ، وكان أبوه قد طلق أمه وحرمه من وراثة العرش وبايع لابنه الثانى من زوجة جديدة تزوجها ، فغضب بوهيموند وأخذ ينازع أخاه دون جدوى ، ثم طمع فى صقلية ، ولكن صاحبها رجار ، وهو عمه ، رده عنها ، فاذا هو فى حيرته اذ ترددت الدعوة الى الحرب الصليبية فسخر منها أول الأمر ، ثم رأى انثيال الناس نحو المشرق وأدرك أنها فرصة أتته لكى يصيب من الدنيا شيئا ، فجمع فرسانه وقرر الخروج الى الأراضى المقدسة وتبعه ابن أخيه تانكرد . ولم يحاول بوهيموند اخفاء

مطامعه ، فمنذ وصل الى القسطنطينية فى مارس سنة ١٠٩٦ لم يكن له هم الا اظهار الطاعة والولاء للامبراطور البيزنطى ، ثم طلب منه أن يعينه دُمُسْتُقاً — أى قائدا — لجيوشه فى الشرق ، فاعتذر الامبراطور وسوف ، اذ كان يعلم سريرة نفسه ، ثم أخذ ينازع رايموند كونت تولوز على القيادة ، وتحالف مع الامبراطور البيزنطى على اخوانه الصليبيين فرموه بالخيانة ، وما زال يسعى ويدبر حتى جعل نفسه أمير أنطاكية يعاونه ابن أخيه تانكرد .

ولم يكن بعد ذلك موفقا فى الادارة أو الحرب ، فأما فى الادارة فقد أساء الى أهل البلد من مسلمين ونصارى حتى أبغضه الامبراطور البيزنطى وأعلن عليه الحرب ، وعاداه الأرمن وحالفوا البيزنطيين عليه . وأما فى الحرب ، فقد خرج يريد مهاجمة حلب فانهزم ووقع فى أسر الأمير المسلم كُمُشْتَكين بن دانشمند فى رمضان ٤٩٢ / يوليو ١١٠١ ولم يتخلص من الأسر الا بفدية ثقيلة . وقد أخطأ هذا الأمير المسلم خطأ جسيما بقبول فدائه ، لأنه آذى المسلمين بعد اطلاق سراحه أكثر مما آذاهم قبله . فقد عول منذ عودته الى الحرية على الاستيلاء على حلب ، ومضى يحاصرها المرة بعد المرة دون جدوى ، ثم حالف بلدوين الثانى صاحب الرها ومضيا يستوليان على ما حول حلب من الحصون والقلاع والمدن ، ثم

حاصرا حران فى رجب ٤٩٧ / ربيع ١١٠٤ ، فهاجمهما المسلمون هجوما عنيفا ، وقضوا على جيش بولدوين ، وتركهم بوهيموند وابن أخيه تانكرد يقضون على حليفهما ويأسرونه ، وارتدا الى أنطاكية ليجدا الناس فى ثورة عليهما .

وطمعت الدولة البيزنطية فى أنطاكية فأقبلت تشدد الحصار عليها ، وطال حصار البيزنطيين للبلد حتى أشرف على التسليم ، فجزع بوهيموند وترك البلد ومن فيه وعاد الى أوروبا لجمع جند جديد تاركا ابن أخيه تانكرد يحارب البيزنطيين وحده ، ولم يسعه الا الاستسلام والدخول فى طاعتهم وحكم البلد باسمهم . أما بوهيموند فلم يعد الى الشام مرة أخرى ، فقد جمع جندا ليسيربه الى الأرض المقدسة ، ثم خطرت بباله فكرة مهاجمة أملاك الدولة البيزنطية فى البلقان ، فقد كان الملك غايته الأخيرة ، فحاصر دورازو سنة ١١٠٧ وفشل فى الاستيلاء عليها ، ثم اضطر آخر الأمر الى الدخول فى طاعة البيزنطيين . ومضى بعد ذلك يجمع جيشا آخر يجدد به آماله ، ولم يزل فى اقبال وادبار حتى مات شريدا محروما كما خرج من بلاده عندما حمل شارة الصليب .

*

أولئك هم أعلام الفرسان وقادة الجند فى الحملة الصليبية

الأولى ، فما بالك بالبقية ؟ لقد كان عامة جند الصليبيين طغاما لا يعرف للفروسية أو قواعد الحرب معنى ، ولا يذكرون أنهم مسيحيون الا لماما ، وكانت وطأتهم على الكنائس فى البلاد التى دخلوها لا تقل عن أذاهم للمساجد ، وما من بلد دخلوه الا شكا منهم نصاراه قبل مسلميه ، فقد كانوا ينهبون ويسلبون دون شهامة أو مروءة ، وكانوا اذا وقع فى يدهم أسير من المسلمين نظروا فيمن يشتريه فاذا لم يجدوا قتلوه . وسترى فى سياق ما نقص من أخبارهم فى هذا الكتاب ما يؤكد ما قلناه .

فاذا كان هذا هو حالهم صغارا وكبارا ، فما الذى مكن لهم فى بلاد المسلمين ؟ وما الذى جعل غارتهم الأولى تتحول الى غزو مستقر ينجلى عن امارات وممالك يحتاج المسلمون بعد ذلك الى جهاد عشرات السنين المتوالية حتى يقضوا عليها ؟

يرجع ذلك الى ثلاثة أمور :

الأول : تفرق المسلمين واشتغال الرؤساء بالحروب والمنازعات فيما بين بعضهم وبعض .

والثانى : قلة ايمان هؤلاء الرؤساء بحرمة الوطن الاسلامى وقدسية أراضيه وخيانتهم للأمانة التى كانوا يحملونها .

والثالث : ضعف الفاطميين وفساد سياستهم فى أواخر أيام دولتهم .

فأما عن تفرق أمر المسلمين فقد أشرنا الى ما أصاب دولة السلاچقة من تفرق بعد موت ملكشاه ، وبقى أن نقول ان التفرق لم يقتصر على رجال البيت السلچوقى وحدهم ، بل شمل ولاتهم وأمراء نواحيهم أيضا ، فقد ابتدر كل وال أو أمير الفرصة واستقل بنفسه وخرج على الدولة . ولو أن الأمر اقتصر على الخلاف على العرش بين خلفاء ملكشاه ، فأقام الأمراء والولاة على الاخلاص للدولة بصرف النظر عمن يكون سلطانها ، لما بلغت المصيبة هذا المبلغ ، ولكن الولاة والأمراء فى ذلك العصر كانوا حفنة من العتاة الطامعين لا يعمر قلوبهم ايمان أو اخلاص ، وكانوا من قصر النظر بحيث حسب كل منهم أن انفراده بناحية واستيلاءه على خيراتها سيزيد من حظه فى الحياة ومن جاهه وسلطانه ، فلم تمهلهم الأيام أن أوردتهم أسوأ الموارد ووجدوا أنفسهم بعد قليل رهن الردى وفريسة الأعداء ، فلقى منهم مصرعه من واتاه أجله ، وعاش على الذل والهوان من كتبت له نقمة الحياة فى ظل الأعداء وتحت سلطانهم ، أو على رعب دائم منهم .

ولقد نسى رجال البيت السلچوقى بعد موت ملكشاه عام ١٠٩٢/٤٨٤ أن قوة بيتهم ترجع الى اتحاده ، وأنهم سادوا بلاد الاسلام لأنهم تصدروا لقيادة أموره صفا واحدا ، فاختلف

أبناء ملكشاه وطمع كل منهم فى الملك لنفسه وحده ، ووقف خلفه كل منهم وزراء سوء يزينون له حرب اخوته والقضاء عليهم .

ولو نظرنا الى أبناء ملكشاه كلا على حدة لوجدنا فيهم رجالا ذوى حمية وقوة وجلد ، فقد كان بركياروق شابا عفيا ومقاتلا لا يهاب الموت ، ولو خلا الأمر له لما استقرت للصليبيين فى الشام قدم ، ولكنه عاش خمسا وعشرين سنة ملك منها نيفا وثلاث عشرة سنة كلها حروب مع آلة ومتاعب مع خصومه ، قال عنه ابن الأثير : « قاسى من الحروب واختلاف الأمور عليه مالم يقاسه أحد ، واختلفت به الأحوال بين رخاء وشــدة وملك وزواله ، وأشرف فى عدة نوب ، بعد اسلام النعمة ، على ذهاب المهجة ، ولما قوى أمره فى هذا الوقت وأطاعه المخالفون وانقادوا له أدركته منيته ، ولم يهزم فى حروبه غير مرة واحدة » .

وأما أخوه محمد فلم يكن أقل منه شهامة ولا بسالة ، ولكنه منى بالطمع فى الملك ، فصرف معظم أيامه فى قتال أخيه بركياروق ، فلما مات هذا الأخير خــلا له الجو ، وكانت سنه اذ ذاك قرابة خمس وعشرين سنة ، فلم يجد بين يديه الا دولة مفرقة وملكا ذليلا استولى الصليبيون على جانب كبير منه ، وقد ضاعت الشام وآسية الصغرى ، وأصبح ، وهو بعد فى شرخ الشباب وكأنه

شيخ هرم يجر رجليه جرا ، ومن حوله قواد لا يطيعونه ولا يحترمونه ورعية تحتقره ولا توقره ، ومات فى الثامنة والثلاثين من عمره ، فلم يستمتع بما قضى فيه أيامه من طلب الجاه والسلطان .

وتولى الملك من بعده ابنه محمود ، وهو بعد فى الرابعة عشرة من عمره ، فتولى أمره مربيه — أو أتابكه — وأصبح السلطان مجرد رمز لا حول له ولا قوة ، وحدث مثل ذلك لأمراء النواحى : تعاقب الصغار منهم على الامارات وانتقل السلطان الى مربيهم أو أتابكتهم ، انقضى عهد السلاطين وبدأ عصر الأتابكة .

ولم يقتصر الأمر على النزاع بين أبناء ملكشاه ، بل دخل ميدان الطمع الأعمام وكل من حدثته نفسه بالملك من الأقارب ، ومن أشد هؤلاء عنادا وأكثرهم مطاولة تُتُش بن ألب أرسلان وعم بركياروق ومحمد ، وكان عند موت أخيه ملكشاه صاحبَ دمشق وما جاورها وحلب وما اليها من كبار المدائن ، فلم يزل الطمع يضله حتى تصدى لحرب ابن أخيه بركياروق ، وطالت الحرب بينهما حتى ضعف كلاهما ، وانتهى أمره الى أن قتل فى صفر من سنة ٤٨٧ / يناير ١٠٩٤ وتقاسم أملاكه ابناه ، فانفرد رضوان بحلب واستقل دُقاق بدمشق ، وأصبح كل من هذين البلدين امارة مستقلة .

وفى أثناء ذلك دخل الصليبيون وملكوا ما ملكوا من بلاد الشام ، وهددوا الأخوين تهديدا بالغا ، حتى اضطرا الى الدخول فى طاعة الصليبيين وأداء الجزية ، وقد رضيا بهذا الهوان مفضلين المقام عليه على الاتحاد لانقاذ رعيتهما ورعاية حرمة الوطن العربى . وليت الأمر صفا لكل منهما فى بلده ! فقد استبد بأمر رضوان جناح الدولة الحسين بن أيتكين الذى يعرف بأتابك حلب ، واستبد بأمر دقاق معتمد الدولة طغتكين الذى يعرف بأتابك دمشق ، وانفرد قوام الدولة كربوقا بالموصل ، واستقل آقسنقر البرسقى بحمص ، وياغيسيان بأنطاكية ، وتفرقت البلاد أيدى سبا ، حتى أصبح كل بلد فى الشام والعراق دولة !

أما سلاجقة آسية الصغرى فقد أغراهم ضعف أمر السلاجقة بالاستبداد ، فأصبح قلج أرسلان أميرا على سلطنة آسية الصغرى وقد نسى أن أساس قوته كان تأييد السلاجقة العظام له ، وأنه اذا انسلخ عنهم ضاع أمره ، ولم تلبث الأيام أن أغصته فيما طلب ، فنهض لمناوأته نفر من أتباعه هم آل دانشمند انتزعوا منه الجزء الشرقى من ملكه ، ومضى يحاربهم وينفق جهده فى استعادة ملكه منهم .

وبينما رؤساء الدولة الاسلامية على هذه الحال ، اذ دخل

الصليبيون فأطاحوا بملك سلاجقة آسية الصغرى واستولوا على عاصمتهم نيقية ، وتشرد سلطانهم فيما بقى له من البلاد واتخذ قونية عاصمة له ، وأقبل الصليبيون يحاصرون أنطاكية ، وهددوا دمشق وحلب ، فهل تحسب أن ذلك كان كافيا لاقناع أمراء هذه البلاد بضرر الخلاف وسوء مغبته ؟ هنا يدخل العامل الثانى من العوامل التى مكنت للصليبيين ، ونعنى : قلة ايمان الرؤساء بحرمة الوطن العربى وقدسية أراضيه ، وخيانتهم للأمانة التى حملوها أمام الله والتاريخ .

ذلك أن أولئك الرجال ، كانوا — فضــلا عن قلة قواهم العسكرية — لا يشعر أحد منهم بحرمة المسئولية الملقاة على عاتقه أو بقيمة الأمانة التى اؤتمن عليها ، لأن الحاكم ذا الضمير الحى قد يكون قليل العساكر أو وحيدا بين أعداء ، ولكنه يأبى التفريط فى شبر من أرضه أو حق من حقوق رعاياه دون أن يستبسل فى الدفاع عنه أو يهلك دونه ، وسنرى الكثير من أمثلة ذلك فى حياة نور الدين . والحكم الصالح أولا وآخرا مسألة ضمير وكرامة ، كرامة الوطن الذى يحمى ذماره وحرمة الناس الذين يتولى أمرهم وقدسية الفكرة التى يمثلها وينافح عنها ، واذا هبطت فكرة الحاكم عن الحكم حتى أصبح يتصوره مغنما يفوز به أو دنيا يتبجح فى

خيرها لم يعد حاكما جديرا بهذا الوصف ، وسقط فى أعين رعيته ، وأصاب عقيدته الهوان والضيم .

وليست العبرة فى الحكم بما لدى الحاكم من قوة ، بل بما لديه من ايمان بقدسية مسئوليات الحكم وضمير وازع يشعره بأن بلاده التى يتولى عليها انما هى شرفه الذى يدفع عنه كما يدفع الرجل عن حريمه .

وكما ينهض الرجل الحر مناضلا عن حريمه وشرفه دون نظر الى النسبة بين قواه وقوى العادى على شرفه ، ودون نظر أيضا الى مبلغ هذا الحريم من الجمال — لأن المسألة مسألة شرف ، والشرف لا يتجزأ — فكذلك الاحساس بالشرف القومى يبعث فى الرجل الكريم حمية فلا يبالى بخطر أو بعدو . وما دامت هـذه الحمية تعمر نفس الحاكم فلا يضيره عدو فى الوجود ، بل هو اذا خسر معركة لم يغلب ، لأن الهزيمة احساس ، وما دمت لم تحس أنك قد غلبت ، فأنت لم تغلب أبدا ، ولا يزال عدوك فى خوف منك ولو كان محتلا أرضك مضيقا على حريتك .

وفى التاريخ عشرات الأمثلة من أمم خسرت معارك وحروبا ولكنها لم تنهزم ، واحتل الأعداء أراضيها فوجدوا أنفسهم فيها وكأنهم أسرى يخافون الناس أكثر مما يخافهم الناس ، ولدينا

المثل فى تاريخنا الاسلامى تحدثنا عن ذلك بأجلى بيان ، فقد خسر المسلمون موقعة أحد ولكنهم لم يهزموا ، ونهضوا بعدها نهضة جعلت القرشيين يشعرون أنهم منهزمون محاصرون فى مكة . ثم أقبل هؤلاء يحاصرون المدينة ، وجمعوا جموعا وأحزابا وأحاطوا بمدينة الرسول صلوات الله عليه ، فلم يمس الخوف قلوب المسلمين ومضوا يقاتلون ويهاجمون يعمر قلوبهم ايمان بالظفر والتفوق أذهل قريشا وما جمعت من أحزاب ، فاذا بهم يشعرون وكأنهم هم المحاصرون المغلوبون ، وباتوا ينتظرون فرصة الانسحاب بقلوب يملؤها الخوف ، ثم تسارعوا يجرون أذيال الهزيمة والفشل .

وبالأمس القريب كان الانجليز فى بلادنا محتلين منطقة القنال ، وكانوا يشعرون أنهم قوة احتلال طالما كان الشعور بالضعف والخور يملأ نفوسنا فى العهد الماضى ، فلما نهضنا وتخلصنا من الخوف من العدو وأخذنا نناوشه ونهاجمه ، انقلبت الآية وأصبح المحتلون يشعرون وكأنهم محاصرون فى معسكراتهم التى شيدوها ومضى رجالنا البواسل ينوشونهم ويتخطفون رجالهم ويوغلون فى معسكراتهم حتى ملأوا قلوبهم رعبا ، ومضى رجال الثورة يبنون الجيش الباسل ويلقون فى نفوس المحتلين الرعب حتى صاروا أسرى يطلبون الفكاك ، وما أن أتيحت لهم فرصة الاتفاق معنا

على الجلاء حتى خرجوا مسرعين يحمدون الله على السلامة بجلودهم . ولم يكن ميزان القوى بيننا وبينهم قد انقلب على الصورة التى تجعلنا أقوى منهم وأكثر عددا ، فقد كانوا هناك عشرات ألوف تؤيدهم مئات ألوف أخرى من قوات الامبراطورية وأساطيل الجو والبحر ، ولكن الذى تغير هو روحنا المعنوى ، فقد ملأ نفوسنا ايمان بالنصر والظفر ، وغدونا نشعر أن هذا العدو ، وان كان يحتل جزءا من أراضينا الا أننا لم نغلب ولم نقهر فكان هذا أول النصر وباب الخلاص ، لأن القوة احساس ، والنصر ايمان ، والعزة شعور ، والشرف ضمير .

هذه كلها كانت تنقص رؤساء المسلمين أيام اجتاح الصليبيون بلادهم : كانت لديهم قوة ولكنهم كانوا يحسون أنهم ضعاف ، وكانت لديهم أدوات النصر ولكن كان ينقصهم الايمان ، وكانت لا تنقصهم أسباب العزة بالاسلام والعروبة ولكن قلوبهم كانت خاوية من الشعور بالايمان والعزة ، وكانوا يمثلون شعوبا تجمعت لها أسباب الشرف جميعا ولكن ضمائرهم كانت قد ماتت من زمان طويل . وقوم هذه حالهم حقيقون بأن تنزل بهم الهزيمة ولو كان خصومهم هملا وغثاء كهذا الذى قذفته أوروبا على بلادهم باسم الصليبيين .

*

واذا نحن درسنا أحوال بلاد الوحدات الاسلامية الكثيرة خلال السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر الميلادى والأعوام الأولى من القرن الثانى عشر تبينا صدق ما نقول ، فان سلاچقة آسية الصغرى مثلا ، رغم انفرادهم بأنفسهم وخروج بنى دانشمند عليهم لم يكونوا عاجزين عن أن ينهضوا للعدو بجيش عدته بضع عشرات من الألوف ، وقد رأينا قلج أرسلان يقضى على عشرين ألفا كانوا فى حملة بطرس الناسك ووالتر المفلس بأهون سبيل ، وعندما دخلت الحمـلة الصليبية الأولى أراضيه وأقبلت تحاصر عاصمته فى رجب ٤٩٠ / مايو ١٠٩٧ كان فى استطاعته أن يدحرها لو أن نفسه كانت مشربة بشىء من الايمان الذى كان يملأ قلب رجل مثل ملكشاه عندما نازل مثل هذه القوة فى ملاذكرد ، فقد كانت جموع الصليبيين كثيرة ، ولكن قيادتهم لم تكن موحدة ، وكان كل من رؤسائهم يرجـو أن يحوز نيقية لنفسه ، وكان الامبراطور البيزنطى ألكسيوس ورجاله واقفين لهم بالمرصـاد فى بلد قريب يسمى بليكانيوم لكى يخطف الفريسة من أيدى أولئك الجفاة ، وكانت أسوار البلد حصينة يزيد طولها على أربعة أميال يقوم عليها مائتان وأربعون برجا عاليا مشكوكة بالرجال والمقاتلين .

ولقد أبلى أهل نيقية بلاء حسنا حتى قتلوا نفرا من كبار القواد مثل بلدوين كونت غِنت ، ولم يسلم قائد بيزنطى من سهام المسلمين ، وكان أمل المحاصَرين عظيما فى قلج أرسلان ، ولكن هذا الرجل لم يكد يقترب من المدينة ويرى الصليبيين ويشتبك معهم فى مناوشة قصيرة حتى آثر السلامة وانسحب تاركا البلد لمصيره وفيه زوجه وعياله ، ففت ذلك فى عضد الحامية ، واستسلمت للامبراطور البيزنطى — لا للصليبيين — فى شعبان ٤٩٠ / يونيو ١٠٩٧ أى بعد أكثر من شهر من الحصار والقتال ، وقد دل أهل نيقية على حكمة سياسية الى جانب ما أبدوه من البسالة ، فان التسليم للبيزنطيين أنقذ الكثيرين من أهل البلد من الموت البشع على أيدى الصليبيين ، وخرج بعضهم سالما ، ومن بين ذلك البعض كانت زوج السلطان المتقاعس وعياله . وقد غضب الصليبيون لذلك كل الغضب ، وحقدوا على الامبراطور اذ لم يسلمهم اياهم ليفتكوا بهم .

وقد لقى قلج أرسلان جزاء جبنه ، فظل بقية أيامه شريدا فيما بقى له من ملكه ، ومن الغريب أن همته لم تسم به الى النهوض للصليبيين بعد ذلك ، بل مضى يحارب اخوانه المسلمين محاولا أن يفوز بشىء من أراضيهم يعوض به ما ضاع ، وقد

كانت خاتمته شر ما تختم به حياة رجل مثله : عدا على الموصل ودخلها فنهض له صاحبها وأوقع به هزيمة ساحقة فى سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، وقد قطعت ذراعه أثناء المعركة ورأى نفسه سيصير الى أسر أعدائه فألقى بنفسه فى خندق غرق فيه ، فلقى بهذا جزاء وفاقا على ما كان منه من خور وخيانة لأمانة الحكم والاسلام .

ووقع مثل هذا لِياغِيسْيان صاحب أنطاكية عندما تقدم الصليبيون وحاصروا عاصمته فى ذى الحجة ٤٩٠ / أكتوبر ١٠٩٧ ، فقد كانت أحوال الصليبيين اذ ذاك أوفق ما تكون للقضاء عليهم : كانت أقواتهم قد نفدت وحط الوباء بمعسكرهم واشتد الخلاف بينهم ، بحيث لو حزم هذا الرجل أمره وخرج اليهم لقضى على قواتهم ، وقد بلغ من ضعفهم وسوء حالهم أن أخذ جنودهم ينفضون عن الحصار ويتفرقون فى الأرياف يسرقون وينهبون ليحصلوا على القوت ، بل أدرك اليأس بطرس الناسك المتعبد ، وكان قد أقبل فى حراسة الصليبيين ، فترك الجيش وولى هاربا مع نفر من كبار الفرسان ، فتبعهم تانكرد النورمانى وعاد ببطرس ، وجعله يقسم على ألا يعود الى مثل هذا الفرار ، وقد حنث بطرس وعاد الى الفرار بعد ذلك ! وأدرك اليأس بوهيموند نفسه — الذى سيصبح أمير أنطاكية — وقرر الانسحاب ، ووجد اديمار

أسقف لِيبُوِرِى — مندوب البابا والرئيس الروحى للحملة — أن الفشل محيق لا محالة ، فزعم أن طائفا أتاه فى نومه وقال له ان الحربة التى طعن بها السيد المسيح مدفونة فى مكان ما خارج السور ، فلما حفر الناس ووجدوها اشتدت حماستهم اذ رأوا فى ذلك بشرى من الله بالنصر ، فعادوا يستبسلون فى القتال واليأس يملأ قلوبهم (واتضح للصليبيين بعد ذلك أنه دفن الحربة المزعومة بيده قبل ذلك) .

ولو كان ياغيسيان من الصابرين المؤمنين لما عسر عليه القضاء عليهم ، ولكنه جبن عندما رأى بعضهم على السور وولى هاربا ، وأراد الله أن يخزيه ويميته شر ميتة ، فقد خارت قواه وأدركه الهلع وهو هارب حتى لم يعد يتمالك على حصانه ، فتركه من كانوا معه ومضوا ، واجتاز به حطاب أرمنى فعرفه وأقبل فقطع رأسه كأنه أرنب صاده ومضى بالرأس الكريه الى الصليبيين ! فما ضره لو كان ثبت وقاتل ، فاما أدرك النصر أو كان فى ذمة الله مع الشهداء ؟

ولقد كان تصرف جيرانه من أمراء المسلمين أثناء حصار أنطاكية أدل على خور العزيمة وقلة الايمان وسوء الضمير من المثلين اللذين ضربناهما ، فلقد بعث ياغيسيان صاحب أنطاكية

يطلب المدد عندما اشتد عليه الحصار ، فأما رضوان صاحب حلب فقد أبى أن يجيب صريخ أخيه المسلم الا اذا اعترف هذا بسيادته ، كأن الظرف كان ظرف تنافس على السلطان والجاه ، وكان ياغيسيان من الأنانية بحيث فضل ترك المسلمين يهلكون على أيدى الأعداء على الاعتراف بسلطان صاحب حلب !

واستمر أهل أنطاكية يقاتلون ويصيبون من الصليبيين حتى لم يبق من بين القادرين على القتال منهم غير سبعمائة فارس ، وألحت الرسل على دُقاق صاحب دمشق فى الاستجابة لصريخ أنطاكية ، فوعد بالعون ولكن همته لم تحركه الى العمل ، وتسامع أخوه رضوان صاحب حلب بالأمر وخاف أن يسبقه أخوه الى أنطاكية ، فعاد يطلب الى ياغيسيان الاعتراف بسلطانه ، ضمانا لحقه فى الغنيمة ، فأجاب ياغيسيان طلبه والهلاك آخذ بخناق بلده ، فسار رضوان فى قوة طيبة لعون أنطاكية مصطحبا معه تابعه سقمان الأرتقى صاحب ديار بكر ، وقد بلغ من ضعف الصليبيين أن ملكهم الروع وعقدوا مجلسا للتشاور فى خيمة اديمار مندوب البابا ، ورسموا خطة القتال ، وفى اليوم التالى — الرابع من ربيع الأول سنة ٤٩١ / التاسع من فبراير ١٠٩٨ — خرجوا للقاء المسلمين والتحموا معهم طول النهار دون أن ينالوا منهم منالا ، وافترق الجيشان لهدنة قصيرة .

ولو فى نفوس أولئك الرجال حمية لقضوا على الصليبيين ، فقد كانوا هلكى يسقط الواحد منهم من الاعياء ميتا ، ولكنهم تراخوا ووقفوا جمودا ، ثم صدمهم الصليبيون صدمة فلت غربهم فتهاربوا أمام نيف وستمائة فارس ، وتبعهم العدو بالسيف ، وبلغ من فزعهم أن روعوا حامية حارم ، وهى على مقربة من أنطاكية ، فخرج رجالها هم الآخرون يطلبون الفرار ، واستولى الصليبيون على ذلك البلد دون أن يرموا بسهم ..

وسول سوء الرأى للأفضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين فى مصر أن يتصل بالصليبيين ليكسبهم الى جانبه فى نزاعه مع السلاچقة ، حاسبا أن عدو وطنه قد ينفعه على أخيه ، فبعث بسفارة مشئومة الى الصليبيين ، ونبههم رجال الامبراطور البيزنطى الى أهمية الافادة من الخلاف والتحاسد بين المسلمين ، فأكرموا وفادة السفراء ووعدوهم بالتعاون ثم حملوهم بهدايا مما نهبوه من المسلمين ، وقد فتحت هذه الفعلة من وزير الفاطميين عيون الصليبيين على ما يملأ قلوب المسلمين من حسد بعضهم لبعض ، وأخذوا من ذلك الحين يعملون على الايقاع بينهم فأفلحوا فى ذلك فلاحا كبيرا .

وكان الأمير قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل قد حسب

أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية أن فرصته قد وافت ليفوز هو بالبلد المسكين ، وكان أهله لا يزالون صامدين للأعداء ، فاستأذن السلطان بركياروق فى المسير ، ومضى مع نفر من أمراء شمالى العراق وساروا فى جيش قوى انضمت اليه قوة من دمشق يقودها أتابكها طغتكين ، ثم انضمت اليهم قوات من حمص يتقدمها صاحبها جناح الدولة ، وأخرى من سنجار يتقدمها أرسلان تاش ، وثالثة من ديار بكر يقودها سليمان بن أرتق ، وكانت الفرصة أكثر ما تكون ملاءمة لكسر الصليبيين والقضاء عليهم ، فبالاضافة الى توالى خسائرهم وانتشار الأمراض بينهم ضربت المجاعة عليهم بجرانها حتى عدموا الأقوات وبعثوا يطلبون المدد من قبرص ، ثم ان الخلاف بين رؤسائهم كان قد بلغ مداه ، وانقسموا فريقين : فريقا يؤيد بوهيموند وفريقا يؤيد رايموند كونت تولوز ، ومن حول الفريقين وقف رجال الامبراطور البيزنطى يجربون حظهم لعل صاحبهم يفوز بالبلد .

وكان قائد الجيش الممد قوام الدولة كربوقا قائدا قادرا ، ولكنه كان مغرورا قليل الذكاء ، وكان أحرص ما يكون على أن يفوز بالبلد دون حليفه دقاق صاحب دمشق ، فوقف بمن معه على أبواب البلد يصيب من الصليبيين الجملة بعد الجملة ، وكلما

قال له رجاله : الساعة نهجم ! تريث.وقال : « لا تفعلوا ، أمهلوهم حتى يتكامل عددهم فنقتلهم جميعا ! » واختلف الأمــراء معه وأخذوا يكيدون له ويكيد لهم ، حتى بيتوا التخلى عنه واسلامه للأعداء اذا أزفت الآزفة .

فلما جمع الصليبيون جمعهم وصدموا المسلمين تخلى الجميع عن كربوقا وتركوه وحده ، فلما استحر فى جنده القتل ولى هاربا ، وثبتت جماعة من المجاهدين الذين خرجوا للقتال حسبة لله حتى فنيت عن بكرة أبيها ، ثم عاد الصليبيون الى أنطاكية واستعانوا برجل خائن يسمى فيروز واطأهم على الغــدر بقومه ، ويسر للصليبيين الدخول والاستيلاء على أحــد أبراجها ، وفوجىء ياغيسيان بالأمر ففقد وعيه وخرج هاربا فقتل على ما رويناه ، وفى السادس من رجب سنة ٤٩١ / الثالث من يونيو ١٠٩٨ دخــل الصليبيون أنطاكية بعد أن دافع عنها أهلها دفاع الأبطال ، فوضعوا فيهم السيف حتى لم يبقوا على مسلم واحد، بل لم يعفوا النصارى فى اندفاعهم ، فقتلوا منهم آلافا ، ونهبوا البيوت والكنائس حتى لقد قال صاحب « الجستا فرانكوروم » (أعمال الفرنجة) : « ان الانسان لم يكن يسير فى الطرقات الا على الجثث ، وقد تعفنت كلها تحت شمس يونيو وحرارته » . وهذا ما جناه الأمراء التعساء على رعاياهم الأبرياء ..

تخلى الأمراء والقواد عن رعاياهم ، وانصرف كل منهم الى مطامعه يرضيها على قدر ما يسر له طموحه المتواضع ، وبقى الناس وحدهم دون أن يدفع عنهم أحد ، فمنذ أن استولى الصليبيون على أنطاكية الى أن وصلوا بيت المقدس لم تسم الهمة بواحد من القواد أو الرؤساء الى النهوض لحربهم ، بل أنكى من ذلك أنهم تسارعوا يخطبون ود الأعداء ويحتمون بهم ويدخلون فى طاعتهم ، وبينما كان الأهلون يقاتلون عن بلادهم ويدافعون الغزاة عن أرضهم شبرا شبرا ، كان الأمراء يقدمون الهدايا والأقوات الى الصليبيين ، بل بعثوا معهم من يدلهم على الطرق ويعرفهم بمواضع الضعف فى بلاد المسلمين .

*

وليس هذا الكتاب تاريخا للحرب الصليبية الأولى ، ولكنه دراسة فى أسباب قوة المسلمين وضعفهم وتمهيد للكلام على بطل عرف مواضع الضعف فتلافاها وقضى عمره فى جمع كلمة المسلمين فلما اجتمعت الكلمة كان النصر ، ولهذا نستطرد فى تفاصيل هذه المأساة ناظرين الى مواضع العبرة منصرفين عن تفاصيل الوقائع والأحداث :

تقدم الصليبيون نحو الجنوب بعد تردد طويل ، واجتهد

أهل المدن التى مروا بها فى مدافعتهم قدر طاقتهم ، واجتهد الصليبيون فى خداع أولئك المدافعين واعطائهم الأمان ، حتى اذا خدع أهل بلدة واستسلموا لهم قتلوا رجالها أجمعين وباعوا نساءها بيع الرقيق ، ونكتفى من ذلك التاريخ الدموى الطويل بالاشارة الى ما وقع فى معرة النعمان ، مولد فخر شعراء العربية أبى العلاء . فقد بدأ الصليبيون يحاصرونها فى أواخر ذى القعدة ٤٩١ / نوفمبر ١٠٩٨ ، وصمد أهلها صمود الأبطال ، وقتلوا من المهاجمين عشرات بعد عشرات ، فبنى الصليبيون برجا خشبيا ضخما عاليا خارج السور وأخذوا يناوشون المدافعين من أعلاه ، فردهم هؤلاء بخسائر جسيمة ، ولكن العدو نقب السور نقبا واسعا فانهار جزء منه أثناء الليل ، وخاف المدافعون الواقفون على بقية السور أن يدركهم العدو اذا أصبح الصباح ، فتركوا السور ودخلوا بيوتهم وحصنوها ليدافعوا عن أنفسهم منها ، واقتحم العدو البلد وأخذ يستولى على البيوت واحدا واحدا ، فما كان يستولى على دار الا بعد هلاك رجالها ، فاذا دخل أطلق السيف فى العيال والنساء حتى بلغ القتلى على ما يحكى ابن الأثير مائة ألف ، وربما بدا عدد أولئك الشهداء مبالغا فيه ، ولكنا لا نستبعد أن يكون قريبا من الواقع ، اذ أن ألوفا بعد ألوف

من أهل القرى والحقول التى مر بها الصليبيون كانت قد لجأت الى البلد لتحتمى خلف أسواره ، وهناك هلكوا بسيوف العدو ، وكان بعض الناس قد استأمنوا لبوهيموند ، فلما تم الاستيلاء على البلد ذبح الرجال ذبحا وباع النساء رقيقا .

وتردد صدى هذه المذبحة الهائلة فى جوانب الوطن العربى ، ولو أن رؤساءه كانوا رجالا لصمدوا للغزاة وفتكوا بهم ، اذ أن أعدادهم كانت قليلة : لم يزد فرسانهم على ألف ومشاتهم على خمسة آلاف ، وكان الجهد قد بلغ منهم مبلغه ، فما ظنك بموقف الأمراء عقب هذه المأساة ؟

لقد حسب الفاطميون أصحاب مصر أن انكسار كربوقا وجيوش المسلمين وسقوط أنطاكية ومعرة النعمان وغيرهما من العواصم فرصة واتتهم لادراك ثأرهم من السلاجقة ! وكان هؤلاء قد استولوا منهم على فلسطين وتولاها قائد من قوادهم يسمى سقمان بن أرتق وأخوه ايلغازى واستقرا فى القدس ، فلما وقعت الهزائم على السلاجقة أسرع الأفضل بن بدر الجمالى (وكان يلقب بشاهنشاه ، أى ملك الملوك) وزير الخليفة الفاطمى المستعلى وبعث بجيش الى فلسطين ليستعيدها ، وحاصر الجيش مدينة القدس بآلات حصار كانت تكفى للقضاء على الصليبيين لو وجهت

اليهم ، ولكن سوء الرأى والخيانة جعلا هذا الوزير يوجهها «لفتح» بلد اسلامى ، ولقد اشتدت المنجنيقات فى رمى أسوار القدس بالحجارة حتى هدمتها ، ومهدت بذلك لسقوطها فى أيدى الصليبيين . وسعد الفاطميون باستعادة القدس ، وذهبت قوات الأرتقيين فانضمت الى قواتهم الرئيسية فى ديار بكر ، وكانت مركز امارتهم . واحتل الفاطميون فلسطين كلها وجعلوا حدهم الأعلى شمالى بيروت بقليل ، واطمأنوا الى هذا « النصر » المعيب حاسبين أن الصليبيين يصلون الى حدودهم ثم يرتدون ..

وفرح بنو منقذ أصحاب شيزر وبنو عمار أصحاب طرابلس وغيرهم من الأمراء بهزيمة السلاجقة ، وأقبلوا يمدون يد المعاونة للصليبيين . وكان بنو منقذ أسرة عربية عريقة تنتمى الى قبيلة كلب ، وكان يتولى أمورهم فى ذلك الحين ثلاثة رجال ذوو أسماء وألقاب عربية فخمة تلقى فى الروع أنهم أسود العرين وحماة العروبة والاسلام : مجد الدين أبو سلامة مرشد ، وعز الدين أبو العساكر سلطان ، وعز الدولة نصر أبو المرهف ! فلم تنهض بهم الهمة الا الى الاتصال بالصليبيين وعرض المعونة عليهم وتقديم الأدلاء اليهم اذا هم تركوهم فى سلام ، وقد اشترى الصليبيون خياناتهم واعتبروهم أتباعا لهم ، وأقاموا بعد ذلك خدما وأعوانا

للصليبيين . ومجد الدين أبو سلامة مرشد هذا هو والد الأديب المؤرخ أبى المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » ، وستلقاه كثيرا فيما يلى من هذا الكتاب . وقد لقى بنو شيزر الهوان على أيدى الصليبيين وقبلوه على ذلة ، وكان أول ما أصابهم على أيديهم نهب قطعانهم واستياقها الى معسكر الصليبيين غنيمة باردة .

وقد احتج أسامة بن منقذ فى تاريخه بأن أباه انما فعل ذلك اذ لم يكن له قبل بقوات الصليبيين ، وتلك حجة لا ينتحلها الا مغالط مكابر ، اذ أن بنى شيزر لو صمدوا لكسروا الصليبيين، ويكفى أن نذكر هنا ما فعله أمير صغير هو أبو محمد عبيد الله بن منصور صاحب جبالة ، فقد هاجمه الصليبيون وحاصروا بلده ، فاحتال عليهم وأشاع أن السلطان بركياروق فى الطريق لانقاذ البلد ، فخاف الصليبيون ورفعوا الحصار ، ثم عادوا يحاصرونه ، فأشاع أن الفاطميين فى الطريق لعونه ، فخافوا ورفعوا الحصار مرة ثانية ، وعادوا اليه فنازلهم برجاله وقتل منهم نحو ثلاثمائة فارس وأسر أحد كبار فرسانهم ، ولم يزل يحاورهم ويقاتلهم حتى أيأسهم من البلد ، ثم اتصل بطغتكين صاحب دمشق وأسلمه البلد ورحل الى بغداد .

وفعل أهل حصن الأكراد شيئا شبيها بذلك : كان هـذا الحصن معقلا عظيما يشرف على اقليم البقاع كله ، ولا زال باقيا الى اليوم الى جنوب بانياس يأخذ القلوب بحصانته وجلاله . وقد تغير اسمه بعد ذلك الى الكرك ، وقد سماه الصليبيون « كَرَكَ الفرسان » ، ويعتبر من أعظم القلاع الباقية من العصور الوسطى فى العالم أجمع . بدأ الصليبيون حصاره فى ٥ ربيع الثانى ٤٩٢ / ٢٨ فبراير ١٠٩٩ ، فما راعهم الا وأهله يخرجون فيشدون عليهم ويقتلون منهم عددا كبيرا ، وملك الخوف الصليبيين وتهاربوا أمامهم حتى كاد رايموند كونت تولوز قائد الجيش أن يقع أسيرا فى أيديهم ، ثم ارتدوا الى حصنهم ، وقد كان عددهم صغيرا :

وخجل الصليبيون لما وقع لهم على أيدى هذا النفر القليل ، فجمعوا جمعهم كله ونصبوا أقوى ما لديهم من آلات الحصار ، وأخذوا يقذفون الحصن بالحجارة والنار ، ولما أيقن أهل الحصن أنهم لا يستطيعون الصمود الى مالا نهاية ، جمعوا أهلهم وعيالهم وخرجوا من الحصن بليل ، ولم يدخله الصليبيون الا بعد أن اطمأنوا الى أنه لم يبق فى الحصن أحد . وبينما كان الأعداء فى الحصن أتتهم رسل من آل عمار أصحاب طرابلس يعرضـون طاعتهم دون حصار أو قتال ، فقارن ما فعلته فئة قليلة من الشعب

العربى الكريم ، بما فعله أولئك الأمراء الكبار ..

وقد كانت نتيجة تصرف آل عمار أن وضع الصليبيون أقدامهم فى اقليم طرابلس ، وكان غاصا بالمدائن والعمار ، يمتد من حدود امارة أنطاكية عند اللاذقية وينتهى شمالى بيروت بقليل . وقد قضى الصليبيون على آل عمار فيما بعد وأنشأوا امارة صليبية جديدة فى طرابلس تربع عليها رايموند كونت تولوز المعروف عند العرب بصنجيل (سان جيل) . وقد كانت نتيجة خيانة آل عمار والفاطميين أن سقطت فيما بعد مدائن الساحل حتى عسقلان : سقطت جونية وبيروت وصيدا وصور وعكا وقيصرية ويافا وابلين . ولم يبق فى يد الفاطميين الا عسقلان ، وهى كل ما بقى لهم فى فلسطين جزاء على خيانتهم ، ومن حسن الحظ أنها بقيت ، لأنها أدت للعروبة والاسلام أجل الخدمات طوال محنة الحرب الصليبية الأولى .

وقد تمت المأساة بوقوع القدس فى أيدى الصليبيين فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢ / الخامس عشر من يونيو ١٠٩٩ بعد قتال عنيف هلك فيه ألوف المسلمين ومئات الصليبيين ، وعندما رأى افتخار الدولة قائد الجند الفاطمى أن لا أمل فى الدفاع ، حصل على أمان لنفسه وآله وبعض جنده ، وخرج سالما

معافى يحرسه الأعداء حتى وصل الى عسقلان . أما بقية أهل البلد فقد قتلت عن آخرها : مات منهم ما بين مسلمين ونصارى ويهود سبعون ألفا بسيوف أولئك الذين أتوا ليخلصوا البلد المقدس . مذبحة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب بين الشرق والغرب ، وخاض أولئك الذين بعثهم البابا باسم الدين بحار الدم الى كنيسة القيامة ، ليصلوا لله صلاة الشكر على ما أولاهم من نعمة . ولم يعش أربان ليسعد بالنبأ ، فقد كان مريضا أثناء حصارها ، وعاجله الموت فى التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٠٩٩ قبل أن يصل الخبر الى روما ..

ولقد رجت فاجعة القدس العالم الاسلامى رجا ، فصحا من كان وسنان وفتح عينيه من لم يفتحهما منذ سنين ، واستيقظ شعب العروبة يقظة ما زالت تستقوى حتى صارت نهضة كبرى على أيام آل زنكى ثم صلاح الدين ، وعلى صحوة الشعب ترنحت عروش الأمراء والقواد الذين أنزلوا بالمسلمين هذه الكارثة ، فتهاوت واحدا بعد واحد ، وبقى الشعب العربى وحده فى الميدان ولم تلبث المقادير أن ساعفته بقادة مخلصين التف حولهم ، فساروا به فى طريق الخلاص .

— ٤ —

طلائع الوحدة

ونادت ، فلبى الخيلُ من كل جانبٍ ... ولبى عليها القَسْوَرُ المترقِّبُ
خِفافاً إلى الداعى ، سراعاً كأنما ... من الحرب داع للصلاة مثوِّب
مُنيفين من حول اللواء كأنهم ... له معقلٌ فوق المعاقل أغلب

« أحمد شوقى »

ما أشبه أحوال الشرق العربى فى نهاية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) بأحواله عند نهاية النصف الأول من القرن العشرين ! العراق فى ناحية ، ومصر فى ناحية ، والشام موزع مقسم وحدات سياسية يمضى كل منها فى سبيل ، وكل واحدة منقسمة على نفسها تتصارع داخل كيانها عوامل الضعف والفتنة والانحلال ، وفلسطين مضيعة جثم على صدرها عدو خسيس ملك معظم أرجائها وبسط ظله على بيت المقدس ، ومد له ذراعا تصل الى خليج العقبة تفصل مصر عن بقية العالم العربى ،

واستقرت شمالى العراق امارة صليبية تهدد بقية بلاده ، تشبه سيطرة الانجليز على مصائر العراق فى ذلك الحين ، وقد انتزع الأعداء من الشام قطعة فى شماله الغربى وأنشأوا فيها امارة صليبية هى أنطاكية تذكرنا بسنجق اسكندرونة السليب .. وجنوبى أنطاكية تقوم امارة صليبية رابعة مستقلة بنفسها حينا وخاضعة لبيت المقدس حينا ، وفى بعض نواحيها قامت امارة عربية يحاول بعض رجالها أن يمدوا يدا الى بقية اخوانهم العرب ، فيذكرنا ذلك كله بتضارب الآراء واختلاف السياسات فى لبنان فى ذلك الحين ..

وما أشبه قيام مملكة بيت المقدس الصليبية اذ ذاك بقيام هذه الجماعة الصهيونية التى تحتل جزءا من أرض فلسطين اليوم ! كلتاهما هجمت على الشرق العربى فى وقت أسود بلغت فيه عوامل الاختلاف والتفكك والانحلال مداها ، فمكنت لنفسها وثبتت أقدامها وجعلت من نفسها دولة يؤيدها أقوام من وراء البحر لهم فى بلادنا آمال ومطامع ، وكلتاهما زعمت أن دولتها تقوم على أساس روحى عاطفى قديم . فأما مملكة بيت المقدس فقد زعم الذين أقاموها أنها قامت لتستعيد بلد السيد المسيح ومشهد حياته ومزارات النصرانية ومقدساتها من المسلمين ، وأنها لهذا أجدر ما تكون بملك الأرض المقدسة لتفتح أبوابها للمهاجرين والحجاج

ممن يريدون الهجرة أو الحج الى أرض المقدسات والذكريات ؛ وزعمت تلك الجماعة الصهيونية التى انتزعت أرض فلسطين بالأمس أنها تستعيد من المسلمين أرض مملكة اسرائيل التى قامت فى الزمن السرمدى السحيق ، وأنها لهذا أولى بها من غيرها لتفتح أبوابها للمهاجرين والمشردين من آل اسرائيل ليعود منهم من يريد العودة الى أرض الأنبياء والذكريات ..

وما أشبه موقف العالم الغربى من مملكة بيت المقدس اذ ذاك بموقفه من احتلال فلسطين فى أيامنا هـذه ، فقد كان الغـرب الأوروبى ينظر الى مملكة بيت المقدس على أنها ذراعه التى مدها فى بلاد الشرق وحصنه الذى ابتناه فى قلب بلاد العروبة ، وحرص على أن يرعى ذلك الحصن ويصونه ، لأنه رمز سيادته وسلطانه ، ورأس القنطرة التى يعبر عليها كلما أراد أن ينزل بعالم العرب ضررا . وكلما ضعفت مملكة بيت المقدس نهض الدعاة والمتعصبون والحاقدون على العرب والاسلام يستصرخون الناس ويدعون الى حملة صليبية جديدة ، فتتحرك الجيوش الى الشام لترزأ أهلها وتنزل بها البلاء ، وعندما نهضت مصر على يد الناصر صلاح الدين اتجه الغضب كله نحو مصر وحولوا نحوها الحملات الصليبية ، فلا تكاد تصل الى مصر حتى تصاب بالفشل الذريع .

بالضبط كما يفعل الغرب اليوم مع جماعة الصهيونيين فى فلسطين ، فكلما ضعف أمرها وأفلست ميزانيتها قام دعاتها فى ذلك الغرب الأوروبى (الذى امتد حتى شمل ضفتى المحيط الأطلسى) فدعوا لمد يد المعونة لها لانقاذها من السقوط ، فأرسل أهله الأسلحة والأموال اليها لتقوم على قدميها ، فلما نهضت مصر فى ظل الناصر جمال الدين اتجه الحقد الغربى نحو مصر ، فأخذ يكيد لها ويوجه الضربات اليها ، آخرها الحملة المشئومة على مصر سنة ١٩٥٦ ، وهى حملة تعود بنا الى ذكريات الحملتين الصليبيتين على مصر : الخامسة التى قادها چان دى بريين ملك عكا (فرنسى الأصل) والسابعة التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا ، وكلتاهما نزلت بدمياط وخربتها وأصابتها بكل شر . ودمياط بالأمس هى بور سعيد اليوم ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

ولم تكن هناك اذ ذاك قناة سويس أو مواصلات بين شرق وغرب ، ولكن لأحداث التاريخ منطقا يتجلى اذا تأمل الانسان الأحداث وقارن بعضها ببعض وربط المقدمات بالنتائج ، وكما انتصرت دمياط بالأمس فقد انتصرت اليوم بور سعيد جارتها ووريثتها فى مكانها من البحرية العالمية ، وكان نصر دمياط عزا لعرب الأمس وذلا للغرب الذى أراد بها الشر ، فأسر لويس التاسع

وأيد فرسانه ولم يعد الغرب يجرؤ بعد ذلك على أذى مصر ، وكان نصر بور سعيد عزا لعرب اليوم وذلا للغرب الذى أراد بها الشر ، فاندحر أنطونى ايدن وتلاشى جى موليه وطرد كريستيان بينو من ميدان السياسة الفرنسية ، وأصبح الغرب يهاب مصر والعرب ويحسب لهم ألف حساب .

وكما ارتبط نصر عرب الأمس بظهور نور الدين محمود وسعيه لتوحيد المسلمين وجمع صفوفهم ، فلما وحد الموصل والجزيرة الفراتية والشام بدت طلائع النصر وبدا أن مصير امارات الصليبيين فى الشام الى زوال ، فكذلك ارتبط نصر عرب اليوم بظهور جمال عبد الناصر ورجاله المؤمنين بالعروبة ووحدتها وسعيهم الى توحيد العرب وجمع صفوفهم ، فلما اتحدت مصر وسوريا بدت طلائع النصر وبدا أن مصير جماعة الصهيونية والاستعمار الذى يؤيدها الى زوال .

وكما كان لدعوة الوحدة أيام الحروب الصليبية صدى بعيد تردد فى نواحى بلاد الاسلام والعروبة ، فاستيقظت الشعوب واستعادت ثقتها بنفسها ومضت تنضم لصفوف الوحدة جماعة بعد جماعة ، فكذلك الحال اليوم : ما كادت دعوة الوحدة العربية تتردد وتكسب أول انتصاراتها حتى أفاقت الشعوب العربية

المعاصرة واستعادت ثقتها بنفسها ومضت تنضم الى قافلة العروبة السائرة الى الأمام ، وأخذت حصون الاستعمار تتهاوى ، وتلاشى أعوانه — بالضبط كما اجتهد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ثم صلاح الدين فى القضاء على تلك الامارات الصغيرة التى كانت تقوم اذ ذاك فى الشام وشمال العراق متعاونة مع الصليبيين أو البيزنطيين .

*

ولدت مملكة بيت المقدس غداة استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وانشائهم امارتها وتوليتهم جودفروا دى بوِيّون أميرا عليها فى شعبان ٤٩٢/ يوليو ١٠٩٩ بعد خلافات ومناورات ، وأقام الصليبيون فى القدس بطريركية كاثوليكية تولاها دِيَامْبير (أو داجوبير) وكان قبل ذلك أسقفا لمدينة بيزا بايطاليا ، ولم ينعم جودفروا بالعرش الا سنتين فقد توفى فى رمضان ٤٩٤/ يوليو ١١٠١ ، وخلفه أخوه بلدوين (أو بودوان) الذى كان قد أنشأ امارة الرُها وتربع على عرشها ، وقد توج ملكا على بيت المقدس فى ١٧ صفر سنة ٤٩٥/١١ نوفمبر سنة ١١٠١ باسم بولدوين الأول وهو المؤسس الحقيقى للمملكة ، اذ كان رجلا نشيطا ومغامرا لا يكف عن الغزو والسلب والنهب ، وقد أشرنا الى

شىء من خصاله فيما سبق ، ونضيف الآن أن ولعه بالسلطان المطلق حفزه الى عزل ديامبير عن بطريركية القدس ، واختار مكانه أسقفا مسنا ضعيفا هو اڤريمار ، وقد سخط ديامبير على عزله وذهب الى أوروبا وشكا أمره للبابا پسكال ، الذى خلف أربان الثانى فأيده فى دعواه ، وارتد ديامبير عائدا الى فلسطين ليخاصم بلدوين ، ولكن المنية عاجلته فى مسينا فى يونيو ١١٠٧ وأراحه الله من الجشع والطمع والمتاعب .

ثم مات اڤريمار وأقيم مقامه جيبيلين أسقف آرل ، ولم يطل به العمر ، وحل محله بطريق خبيث طال به العمر فى أذى القدس وأهلها وهو آرنولف أسقف روه ، وكان رجلا فاسد الخلق لم يأنف عن مد يده الى أموال الكنيسة حتى أصبح من الأثرياء ، وعندما تزوجت ابنة أخيه « امّا » من أمير غنى هو يوستّاش جارنييه أهداها ضيعة واسعة فى زمام أريحا من أرض موقوفة على قبر السيد المسيح منذ الزمن القديم ، ولقد حافظ ولاة المسلمين على أوقاف القبر المقدس قرنا بعد قرن ، حتى جاء هذا القس المفسد فتملك بعضها وأهدى بعضها الآخر لذوى قرباه . وقد آذى هذا الرجل مسيحيى القدس الأصلاء وأهان بطارقتهم وقساوستهم واعتدى على أموال كنائسهم ، ولكنه كان مخلصا للملك بولدوين

يؤيده فى مطامعه كلها ، حتى غضب عليه البابا پسكال وأوصى رجال الحملة الصليبية بعزله ، فلما وصلت الى الشام لم يزل يسعى حتى انتهى أمرها الى الفشل ، ولذلك حمل عليه وليام الصورى مؤرخ مملكة بيت المقدس ، ورماه بكل شر ونقيصة .

ولم يكن لبلدوين الأول هذا من هم الا مغازاة المسلمين ، مستفيدا من ضعفهم وتفككهم ، وكان اذا استولى على بلد من بلادهم قتل الرجال أجمعين وسبى النساء والولدان وباعهم فى سوق الرقيق : فعل هـذا عندما استولى من أيدى الفاطميين على أرسوف والرملة فى صيف ١١٠٣/٤٩٦ ، وعكا فى صيف العام التالى . وأصبحت عسقلان آخر حصون الفاطميين فى فلسطين ، وقد ظلت حصنا اسلاميا وشوكة فى جنب مملكة بيت المقدس حتى سقطت فى ١١٥٣/٥٤٨ .

وقد طالت أيام بولدوين هذا واشتد أذاه حتى انتزع يافا وبيروت وكثيرا من موانى الساحل الشامى ، ولكنه عجز أمام صور وارتد عنها بهزيمة فادحة فى سنة ١١١٢/٥٠٥ ، وكانت هـذه الهزيمة هى نهاية توسعه وأذاه . وتلك السنة تعين أوج اتساع مملكة بيت المقدس ، فقد أصبحت بذلك تمتد من جُبيل شمالى بيروت الى يافا على ساحل البحر ، ثم تمتد على هيئة وتد يبدأ من

بحيرة طبرية ويشمل نهر الأردن بضفتيه حتى العقبة على خليج العقبة . ومن عجائب اتفاقات التاريخ أن خريطتها تشبه فى الهيئة خريطة الجزء الذى يحتله الصهيونيون اليوم من أرض فلسطين ، وهو توافق يبدو وكأنه مصادفة ، وهو أبعد ما يكون عن المصادفات بل هو النتيجة الطبيعية لتفكك العرب فى الحالين ، وعلل الأمم كعلل الأفراد ، تؤدى فى الغالب الى نتيجة واحدة وتأخذ مظهرا واحـــدا .

أما سقوط صور بعد ذلك فى سنة ٥١٨/١١٢٤ ، وعسقلان فى ٥٤٨/١١٥٣ ، فلم يكن فى الواقع زيادة فى مساحة مملكة بيت المقدس ، بل كان نتيجة حركة دفع اليها الخوف من نور الدين ، وقد مهد الطريق لتوحيد مصر والشام .

ولم يستطع بولدوين أن يوسع أملاكه الى هذا الحد الا بسبب فساد قلوب أمراء المسلمين وخاصة أصحاب دمشق اذ ذاك ، فقد عارضوا الوحدة الاسلامية وحالفوا الصـــليبيين على اخوانهـــم وضيعوا الكثير من جهود نور الدين ومن سبقوه . ولو أن امارة دمشق كانت الى جانب القوة العاملة على الوحدة من أول الأمر لضاع أمر مملكة بيت المقدس كما نقـــول نحن اليوم : لو أن أصـــحاب الأردن كانوا دائمـــا مـــع العاملين على الوحـــدة

العربية اليوم لكان هذا هو النذير المؤذن بالنهاية العاجلة لجماعة الصهيونيين .

وفى ذلك العصر المضطرب الذى نتحدث عنه ، كان يكفى أن يمد أمير صغير كصاحب طرابلس يده للعاملين على الوحدة حتى يطول عمر امارته وتثبت أمام الأعداء الذين يحاصرونها من كل جهة . فقد كانت طرابلس اذ ذاك حصنا شامخا على شاطىء البحر يمتد سلطان أصحابه على مساحة واسعة حولها ، وكان يحكمها بيت عربى هو بيت بنى عمار . وقد تمكن أصحاب بيت المقدس وأنطاكية الصليبيون من غزو ما قرب منها من البلاد والحصون ، ولكنهم عجزوا عنها ، لأن أصحابها كانوا يستعينون بدمشق حينا وحلب حينا ، وربما التمسوا العون من خلافة بغداد . وعندما يئس الصليبيون من الاستيلاء عليها ، بعد الهجوم المتوالى سبع سنوات، اضطروا الى بناء بلد جديد مقابلها ليكون عاصمة لامارة تسمى امارة طرابلس يتربع عليها رايموند كونت تولوز .

ثم انقطع عن بنى عمار أصحاب طرابلس المدد الذى كان يصلها من دمشق وحمص ، فلم تلبث أن سقطت فى سنة ١١٠٩/٥٠٢ فى يد جيثوم چوردان الذى تولى أمر طرابلس بعد وفاة رايموند صاحب تولوز . وقد قتل جيوم بعد استيلائه على طرابلس بقليل ،

وصارت الامارة لابن غير شرعى لرايموند صاحب تولوز هو برترام وكان محاربا واسع المطامع ، فاستولى على حصن أرتاح من أيدى أصحاب حلب . وكان من الممكن أن يستمر فى توسعه ، فتنمو امارة طرابلس وتتسع كما نمت امارة الرها من قبل ، ولكن الظروف فى العالم الاسلامى كانت قد تغيرت ، وأخذ دعاة الوحدة يشقون طريقهم قدما ، وكان سقوط طرابلس نذيرا روع المتخاذلين وشد أزر المجاهدين ، اذ تردد صداه فى جوانب العالم العربى كله من بغداد الى القاهرة ، ونهض الشيوخ وعامة الناس فى بغداد يطالبون الخليفة ومن حوله بضرورة النهوض لاستنقاذ البلاد من أيدى الغاصبين ، واستقوى بهذه الدعوة أمراء الموصل فضاعفوا جهودهم فى سبيل التوحيد .

*

كانت الموصل ولاية اسلامية مهددة بالخطر الصليبى ، شأنها شأن غيرها من بلاد الشرق العربى فى ذلك الحين ، وكانت تجاور امارة الرها الصليبية التى أنشأها النورمانيان بولدوين وأخوه تانكرد أثناء الحملة الصليبية الأولى ، وقبل سقوط بيت المقدس ، فى غفلة من الصليبيين والمسلمين على السواء . فبعد أن احتل الصليبيون نيقية وأخذوا طريقهم نحو أنطاكية ، اتجه هذان

الأخوان النورمانيان الطامعان نحو قليقية وأوغلا فيها منفردين بقواتهما ، وكل منهما يبحث عن أرض يغنمها ويقيم نفسه أميراً عليها .

وكانت قليقية وما يليها الى الجنوب من بلاد الموصل منطقة جبلية وعرة أهملها المسلمون بعد أيام المعتصم العباسي . فقد كانت منطقة حدود بينهم وبين الامبراطورية البيزنطية يرصدون فيها الجند على ممرات الجبال ، وكانوا يسمونها بالثغور الجزرية ، وهي امتداد للثغور الشامية ، وقد قلت العناية بهذه الثغور جميعا عندما ضعف أمر الدولة العباسية . وكانت تسكن المنطقة جماعات من الأرمن والسريان والأكراد والعرب . وكان الأرمن والسريان نصارى داخلين فى طاعة دولة الاسلام . وقد أقام السلاجقة الكبار فى هذه النواحى حصونا ومعاقل شكوها بالمقاتلة ، وجعلوها الحد بينهم وبين دولة سلاجقة آسية الصغرى ، فلما ضعف السلاجقة الكبار وضع سلاجقة آسية الصغرى أيديهم على بعض حصونها وظلت البقية شبه مهملة .

فلما انتصر الصليبيون على هؤلاء السلاجقة انفتحت أمامهم أبواب هذه النواحى ، وحسب من فيها من الأرمن والسريان أن الصليبيين سيحسنون اليهم ، لأنهم اخوانهم فى الدين ، فحالفوهم ويسروا لهم الأمر وأعانوهم على انشاء امارة الرها ، وقد خاب

خلنهم بعد ذلك ، لأن الصليبيين لم يلبثوا أن أساءوا اليهم واضطهدوا عقيدتهم ، اذ أنها أرثوذكسية شرقية ، فى حين كانوا هم كاثوليكا غربيين ، وصار الأرمن والسريان بعد ذلك يستغيثون بالمسلمين عليهم ، وعلموا بعد فوات الوقت أن اخوتهم فى الوطن هم اخوتهم حقا ، وأن عدو وطنهم عدو لهم مهما كان ، وقد أكرمهم الله عندما استعاد عماد الدين زنكى بلادهم فأمنهم وأعاد اليهم حقوقهم ، فعمروا كنائسهم وعادوا الى طقوسهم ، وحمدوا الله على نعمة المواطنة التى هى أساس الأخوة وقاعدة الأمان .

نقول ان تانكرد النورمانى ترك معسكر اخوانه الصليبيين بعد دخولهم نيقية ومضى فى شوال سنة ٤٩١/ سبتمبر ١٠٩٨ يوغل فى قليقية ، وخاف بولدوين النورمانى أن ينفرد ابن أخيه بالناحية وحده فسار خلفه فى قوة أخرى ، ثم لم تلبث أن لحقت بهما جماعة من قراصنة الدانيين والفريزيين والفلمنكيين يقودهم مغامر يسمى جونيمر البولونى ، فمضت هى الأخرى تبحث عن فريسة تحط عليها ، وما زالت هذه الجماعات تضرب فى نواحى قيليقية حتى احتلت أطَنة ومرْعَش وطرسوس وعبرت الفرات من أعاليـه ، وانحدرت شمالى الجزيرة واستولت على بِهسْنا وسُميْساط ورعبان وتل باشر ثم وصلت الى الرُّها ، كبرى مدائن الناحية ،

فسلمها اليهم ثوروس الأرمنى صاحبها . وذهبت به الغفلة الى أن تصور أن بولدوين النورمانى يخلص له فاتخذه ولدا — ولم يكن له ولد — ليملكه من بعده ، فلم يكد النورمانى يستقر فى البلد حتى سطا على زوج ثوروس الشابة وغصبه اياها ، ثم دبر عليه مؤامرة وحبسه ، وحرض عليه الناس فثاروا عليه ومزقوه اربا ، وهكذا لقى هذا الخائن جزاءه على يد من خان بلاده لصالحه . وقد كان تصرف ثوروس وأمثاله من الأرمن الذين أعانوا أولئك النورمان على بلادهم قاضيا على دولة الأرمن الى الأبد ، فضاع استقلالهم الذى حافظ المسلمون لهم عليه ، وأصبحوا من ذلك الحين شعبا مشردا يعيش معظم أفراده مهاجرين فى نواحى الشرق الأوسط ، وربما هاجرت جماعات منهم الى بلاد أخرى بعد ذلك ، ولم يعد للبقية الباقية منهم فى بلادهم من سبيل للحياة الا الاعتصام بالجبال ، كأنهم قطاع طريق .

والمهم لدينا أنه تكونت نتيجة ذلك امارة صليبية فى حوض الفرات الأعلى تمتد من مرعش فى الشمال الى منبج فى الجنوب غربى الفرات ، وتمتد شرقه فتشمل بهسنا والرها وسروج ، وتجاور امارة الموصل وتهدد بلادها مثل نصيبين وماردين وحران ، وامارة ديار بكر على نهر دجلة الأعلى وتهدد شمالى العراق كله ..

وكانت امارة الموصل التى تجاور الرها من الشرق والجنوب امارة واسعة غنية تصل حدودها الى شمالى بغداد بقليل ، وكان عاملها يختار عادة من بين كبار رجـال الحرب ، لأنها تواجه البيزنطيين من الشمال وامارة ديار بكر وبلاد نيسابور وآذربيجان وهمذان وما يليها شرقا ، وكانت هذه النواحى فى تلك العصور قلقة غير مستقرة تسودها الحروب والمنازعات ، وكان واليها يعتبر من أكبر ولاة الدولة السلجوقية وأهمهم ، ولهذا نجد على رأسها فى الغالب رجالا ذوى همة ونشاط ، ولكن أحدهم لم يكن ليبدأ العمل حتى تثور المنافسة بينه وبين أصحاب الأمر فى بغداد ، وربما وقعت الحرب بين الجانبين ، مما أضعف هذه الولاية الثغرية ، وجعلها عاجزة فى كثير من الأحيان عن موالاة الحرب مع البيزنطيين أو اقرار الأمن فى ربوعها ، اذ كان سكانها خليطا من الترك والأكراد والتركمان والأرمن والعرب ، وكانت تتاخم امارة حلب .

وقد تطلب الأمر بعد استقرار الصليبيين فى امارة الرها أن يكون على رأس ولاية الموصل رجل قادر يستطيع أن يوقف تقدمهم ويحمى الجزيرة الفراتية من أذاهم ، وكان ينبغى أن يقدر أصحاب الأمر فى بغداد أنهم ينبغى أن يقفوا وراء واليها ويشدوا ظهره ، ولكنهم كانوا فى ذلك الحين أبعد ما يكونون عن ذلك

التفكير ، فكانوا يخذلون والى الموصل ويدبرون عليه وربما حاربوه وأعانوا أعداءه عليه كما حدث حوالى سنة ٤٩٩/١١٠٦ ، فقد كان واليها قائدا تركيا قادرا هو جكَرْمِش (تولاها بعد موسى التركمانى الذى خلف قوام الدولة كربوقا) انتصب لحرب بولدوين النورمانى وذراعه الأيمن الفارس جوسلين وأسرهما ، فتولى أمر امارة الرها الصليبية أخوه تانكرد ، وبينما جكرمش فى جهاده اذ هاجمه السلطان محمد السلجوقى بجيوشه ليؤدبه على أمر بدر منه فى شأنه ، وانتهز الفرصة قلج أرسلان سلطان سلاجقة آسية الصغرى فهاجم حران ، وفى هذه الأثناء قتل جكرمش وخلفه قائد يسمى جاوْلى سقاوه واصل الحرب وانتصر على قلج واضطره الى الفرار فتردى فى خندق وغرق على ما رويناه .

وكانت امارة الرها من أوسع الامارات الصليبية وأشدها أذى للمسلمين ، بسبب طمع أصحابها النورمانيين واجتهادهم فى الحروب والغارات ، ولكنها كانت مع ذلك من أضعف الامارات الصليبية مركزا بسبب توسطها بلاد المسلمين ورعونة أصحابها التى جعلتهم يتابعون الغزو والحملات يوما بعد يوم ، مما أدى الى وقوع أميرها ونفر من كبار رجاله فى أسر المسلمين . ثم ان الأرمن تبينوا سوء رأيهم عندما يسروا للنورمان مثلك هذه الناحية ، فقد أساءوا

اليهم وعسفوهم وأهانوا رجال دينهم وعاملوهم كأنهم ملاحدة أو شعب قليل القيمة لا يستحق رعاية ، فكانت النتيجة أن تناقص السكان وتخربت الكنائس وعدمت الأرض من يزرعها ، لأن زارعها لم يكن يأمن على محصوله ، فأخذ الأرمن يتصلون بالمسلمين ويسألونهم العودة الى بلادهم ، ولولا أن المسلمين كانوا اذ ذاك متنابذين متدابرين ، لسقطت هذه الامارة فى أيديهم بعد انشائها بقليل . بل بلغ من فساد القلوب أن السلطان السلجوقى محمدا غضب على جاوْلى وسار لحربه ، فلم يكن من هذا الا أن أطلق سراح بولدوين وجوسلين النورمانيين وكانا أسيرين عنده . ومن عجيب ما حدث أن جوسلين عندما أطلق من أسره سار مع جماعة من فرسانه عائدا الى بلده ، فلما مر بمنبج — وكانت من بلاد جاوْلى — نهبها ، فأرسل هذا يعاتبه ، فرد عليه بقوله : ان هذه المدينة ليست لكم !

وفى سنة ٥٠٣/١١١٠ صارت امارة الموصل لأمير شهم هو شرف الدولة موْدود ، وكان أخا للسلطان محمد السلجوقى ، وكان واسع الذهن بعيد النظر ، وهو أول من أدرك ضعف امارة الرُّها وتنبه الى أن القضاء عليها لا يتم الا اذا تحالف أهل الشام وأهل العراق وأصبحوا يدا واحدة . وكان مودود قبل مجيئه الى الموصل

مقيما فى بغداد ، وشهد مجىء ابن عمار صاحب طرابلس مستغيثا بخليفة المسلمين لانقاذ بلاده ، ورأى جماعات المصلين فى بغداد يضجون أثناء الجمعات مطالبين الخليفة ورجاله باعلان الجهاد والخروج لنصرة الاسلام .

وكانت الأمة العربية بعد سقوط طرابلس ساخطة على حكامها لا تفتأ تطالبهم بالنهوض من هذه الكبوة التى تردوا فيها ، ولكن خلفاء بنى العباس فى ذلك العصر كانوا أبعد عن فكرة الجهاد من خلفاء الفاطميين ، فأما هؤلاء الأخيرون فقد رأيت طرفا من أفعالهم وأما خلفاء بغداد فكان قصارى همهم أن يكتبوا خطابا الى هذا أو ذاك من الأمراء يدعونه للنهوض لجهاد الأعداء ، بينما هم أنفسهم قاعدون فى عقر دارهم يستمتعون بأطايب الحياة .. فقارن هذا بما فعله البابا أربان الثانى عندما خرج يجوب البلاد مئات الأميال داعيا لحرب المسلمين .. ولو نهض الخليفة العباسى اذ ذاك داعيا للجهاد ، وترك عاصمته ومضى يبشر ويجمع ويحشد ، لخف لدعوته الألوف وارتفعت راية الجهاد ، ولاستعادت خلافة بغداد رونقها وقوتها . ولكن هكذا كان حالهم من التخاذل وقلة الهمة ، وهذا أبلغ دليل على أن الظروف لا تخلق الرجال ، بل الرجال هم الذين يخلقون الظروف ، وسنرى ذلك بأوضح صورة فى سيرة عماد الدين زنكى ونور الدين .

استقر شرف الدولة مودود فى الموصل وقد ملأت نفسه فكرة الجهاد ، فطلب الى أخيه السلطان أن يأمر الأمراء بالخروج معه ، فاجتمع اليه سقمان الأرتقى صاحب تبريز وبعض ديار بكر وايلبك وعماد الدين زنكى ابنا آق سنقر البرسقى أميرا همذان وما جاورها وأرسل ايلغازى صاحب ماردين ابنه وخرج معهم مسعود ابن السلطان محمد ووريثه فى السلطنة وغيرهم ، وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء لقتال الصليبيين ، ولهذا تعتبر هذه الحملة فاتحة عهد جديد فى تاريخ الشرق الاسلامى فى ذلك العصر ، ونقطة التحول من التفرق والتخاذل الى التجمع والهجوم، وكان ذلك عام ٥٠٤/١١١٠—١١١١ .

*

وقد أدرك بلدوين النورمانى صاحب الرها مغزى ذلك التجمع وخطره ، وأدرك أنه اذا لم يجمع للأمر عدته ضاعت امارته ، فحشد كل من استطاع حشده من جنده ، واستغاث بمملكة بيت المقدس فخرج لعونه بلدوين الأول بنفسه ومعه ٧٠٠ فارس وعدد من المشاة . وكان المسلمون قد حاصروا الرها ، فلما وجدوا الصليبيين يسيرون نحوهم فى جمع عظيم رفعوا الحصار ، واتجهوا نحو حران حيث التقوا بقوات جديدة أرسلها أتابك دمشق ظهير

الدين طغتكين ، وهنا تحرك تانكرد أمير أنطاكية لينضم الى جيش الصليبيين خوفا من أن يتجه صاحب دمشق الى مهاجمة امارته اذا انتصر المسلمون ، ولكنه لم يكد يسير مع أصحابه قليلا حتى اختلف معهم وانحرف بمن معه الى سميساط .

ووجد بلدوين أن بلده غاص باللاجئين والهاربين أمام المسلمين، فعرض عليهم أن يوصلهم الى بلادهم ، فخرجت ألوف وسارت تحت حراسته ، فلما أدرك الركب الفرات لم يجد ما يكفيه من القوارب للعبور ، فاذا هم يعبرون طائفة بعد طائفة اذ انقض عليهم فريق من المسلمين فأبادوا منهم بضع مئات . وتحرج مركز بلدوين النورمانى وكاد يقع فى الأسر ويعود الى سجنه الذى قضى فيه سنوات ، فمضى هاربا الى الرها ، ولم يفته أن يغير على بعض نواحى « البقاع » فى طريقه . وأما تانكرد وبلدوين صاحب بيت المقدس فقد آثرا السلامة ، وعاد كل منهما الى امارته .

وكان رضوان صاحب حلب قد تقاعس عن نصرة اخوانه أنانية منه وحسبانا أن المسلمين اذا انتصروا خلا له الجو ليهاجم أنطاكية ليصيب منها ، فخرج يعيث فى نواحيها وقتل وأسر من أهل نواحيها عددا عظيما ، فاذا هو مسترسل فى أعماله اذا به يفاجأ بعودة تانكرد ، فعاد بجيشه مسرعا الى حلب وتحصن فيها ، وصب تانكرد

غضبه على ما وصلت اليه يده من حصونها ، فبدأ بالهجوم على حصن الناقرة واستولى عليه ، ثم وقعت فى يده ثلاث مدن من أكبر مدائن امارة حلب وهى أرتاح والأثارب وزارندة ، وكانت درعا يقى حلب من ناحية أنطاكية .

وانتشر الهلع فى الولاية كلها ، فتهارب الناس وخلت بعض البلاد من سكانها مثل منبج وبالس ، وتحرج مركز حلب كلها وأحاط بها الخطر ، وأسرع هذا الخسيس رضوان يعرض الصلح على تانكرد ويقدم اليه الأموال على غير جدوى ، وتعرضت امارته للضياع لولا أن أتاه الفرج من حيث لا يحتسب ، اذ أن شرف الدولة مودود قرر أن يخرج لقتال الصليبيين مرة أخرى . وهكذا لقى هذا الرجل رضوان جزاءه على ما تخلى عن المسلمين ، ومن أسف أن معظم البلية حاقت برعاياه ، أما هو فظل مقيما آمنا فى حلب دون أن يستشعر خجلا أو عارا .

وكان نفر من أهل حلب قد أدركه اليأس من ذلك الأمير ، ورأوا أن الأمر اذا استمر على هذه الحال فمصير بلادهم الى السقوط ، فخرج نفر من أهل البلد وشيوخه الى بغداد ، وهناك خطبوا فى المساجد داعين للجهاد ، ثم تعرضوا للخليفة نفسه وقاموا بمظاهرة فى مسجده ، فلم يجد بدا من الاستجابة الى

مطلبهم ، فطلب الى مودود أن يخرج لاغاثة حلب .

خرج مودود فى جمع عظيم انضم اليه نفر من جند السلطان محمد يقودهم ابنه مسعود ، واجتمع الرأى على مهاجمة تل باشر أكبر معاقل امارة الرها بعد العاصمة نفسها ، وهاجم الجيش الرها فى طريقه واستولى على حصن من حصونها هو تل قراد ، ثم حاصر الجيش تل باشر وأنزل بها ضررا جسيما ، ولكن مودود وجد أن جنده غير منسجم وأن أفراده لا يؤلف بينهم روح واحد يضمن له الاستيلاء على معقل كبير كهذا ، فرفع الحصار بعد خمسة وأربعين يوما وقرر المسير الى حلب ليستعين بجنده ويواقع الصليبيين فى الشام ، وكان اتجاه مودود الى الشام حدثا جديدا فى ذاته ، فتلك أول مرة يفكر فيها أمراء الموصل وشمال الجزيرة فى دخول الشام ومناجزة الصليبيين فيه .

وصل مودود ومن معه الى ظواهر حلب ، فلما رأى رضوان كثرة عددهم خافهم على نفسه ورفض أن يفتح لهم أبواب المدينة، وكان قد عقد عقدا مع تانكرد تعهد له فيه بدفع جزية سنوية ثقيلة ، ففضل المقام على هوان الجزية على التعاون مع اخوانه المسلمين ، فتركهم خارج الأسوار سبعة عشر يوما حتى ضج جندهم ونفدت أقواتهم فمضوا يغيرون على المزارع طلبا للقوت ،

ثم انصرفوا عن حلب الى معرة النعمان يطلبون حصارها ، فاذا هم فى ذلك اذا طغتكين صاحب دمشق يقبل فى جمع كبير ويطلب اليهم السير معه لمهاجمة طرابلس ، فثارت ثائرة القواد ، وعجبوا من أمر طغتكين أكثر مما عجبوا من أمر رضوان : فهذا يأبى أن يتعاون معهم — ولنجدته أقبلوا — وذاك يريد أن يستخدمهم لصالحه ، وأخذ القادة ينصرفون ، فلم يبق منهم الا مودود وطغتكين .

فأما مودود فقد عول على الاستمرار فى الجهاد ، وما دام فى قتال مع الصليبيين فهو حسبه ، وأما طغتكين فكان معتزا بهذا العسكر الاسلامى الى جوار بلاده ، واستقر رأى الرجلين على السير لنجدة صاحب شيزر أبى العساكر بن منقذ ، واتخذ العسكر المتحد شيزر قاعدة لأعماله . وكان تانكرد يرقبهم فى خوف وقد عسكر عند الرّج ، وهنالك أتته نجدات يقودها بلدوين الأول صاحب بيت المقدس وبرترام صاحب طرابلس واجتمع جمعهم عند أفامية ، وتقدم المسلمون على خيولهم السريعة فأحاطوا بعسكر الصليبيين وأخذوا يتخطفونهم ويفسدون الزروع حولهم ، فأخذت أقواتهم تقل وعدموا علف الخيل ، ثم التحموا معهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فلم يصبر الصليبيون وأسرعوا الى بلادهم بعد ستة عشر يوما من القتال ، وعاد المسلمون الى بلادهم غانمين (المحرم ٥٠٤ / سبتمبر ١١١١) .

وقد ندم رضوان صاحب حلب بعد قليل على سوء نيته ، فان جند المسلمين لم يكد ينصرف حتى عجل تانكرد الى حلب بقواته ، وبدأ يحاصر حصنا من أكبر حصونها هو عَزَاز ، فأسرع رضوان يستنجد ولا مغيث ، ثم عرض على تانكرد أن يدفع له عشرين ألف دينار من الذهب لينصرف عنه ، ولكن تانكرد ، وقد اطمأن الى أن المسلمين لن يغيثوه ، رفض وأصر على الحصار . وكان طغتكين قد أراح بحماه وهو فى طريقه الى دمشق ، فأتاه صريخ رضوان وأهل عزاز ، وكان يخشى اذا انتصر تانكرد على حلب أن يعود الى دمشق فيذيقها نفس الكأس ، فقرر طغتكين لهذا التعاون مع رضوان .

واجتمع الأميران فى حماه واتفقا على العمل معا ، ولكن طغتكين لم يستطع شيئا ، فما هو الا أن تم اتفاقه مع رضوان حتى ترامى الى سمعه أن بلدوين صاحب بيت المقدس قد شرع يحاصر صور (ابتداء من ربيع الثانى سنة ٥٠٤ / نوفمبر ١١١١) فروعه الأمر لأن صور كانت من أكبر ثغور المسلمين الباقية فى فلسطين ، وكانت بعض المعاونات الفاطمية تصل الى دمشق عن طريقها ، فاذا سقطت كان ذلك ايذانا بشر كبير يصيبه ، فترك حليفه ومضى مغذا السير نحو الجنوب ، وسقط فى يد رضوان فترك عَزَاز لمصيرها ، وظل أهل البلد يدافعون عن بلدهم حتى تثلم سورها ، ومع ذلك فقد

وقف المجاهدون يقاتلون المهاجمين على أبواب الثغرات ، فلما وهنت قواهم وأتى القتل على أجنادهم طلب من بقى منهم الأمان وخرجوا بجلودهم ، وهكذا استولى تانكرد على ذلك الحصن الكبير نتيجة لخيانة أمير حلب من ناحية وخبث صاحب دمشق من ناحية أخرى .

وفى رجب / ديسمبر من العام التالى ، أى سنة ٥٠٥/١١١٢ ، توفى تانكرد فاختفت شخصية من أجرأ شخصيات الجيل الأول من الصليبيين وأشدها خطرا على المسلمين ونكاية فيهم . فقد عاون أخاه بوهيموند فى انشاء امارة أنطاكية ، ثم انفرد بها من بعده (سنة ٤٩٤/١١٠١) وظل يحكمها احدى عشرة سنة مد خلالها حدودها فى كل ناحية ، وأرهب حلب حتى صارت تدفع له الجزية كأنها تابعة من توابعه . وما كان هذا الرجل ليستطيع شيئا من ذلك لولا تخاذل رؤساء المسلمين من حوله وقصر نظرهم وأنانيتهم ، ولو وقفوا أمامه لما استطاع التقدم شبرا ، ولكنهم جبنوا وتقاعسوا وغلبهم شح أنفسهم فنال العدو منهم كل منال .

ولم يفت موقف رضوان وطغتكين فى عضد مودود ، فهذا رجل مجاهد لا يرجو كسبا ولا مغنما ، وانما غايته محاربة أعداء بلاده وقضاء العمر فى ميدان الجهاد . فعبر الفرات للمرة الثالثة

فى سنة ٥٠٦/١١١٣ واتجه نحو دمشق ليستعين بصاحبها طغتكين ، وكان هذا ، على بعده عن روح الجهاد ، أحسن من بالشام اذ ذاك من القادة والرؤساء ، وكان يرحب بمودود لأن وجوده مع جنده فى الشام كان يخيف الصليبيين ويبعد أذاهم عنه . واجتمع الأميران فى سَلَمْية على مقربة من حماه فى ذى الحجة سنة ٥٠٦/يونيو ١١١٣ وقررا المسير نحو مملكة بيت المقدس .

وخف بلدوين الأول ملكها للقائهما بعدد قليل من فرسانه ، اذ لم يشأ انتظار الأمداد التى طلبها من أنطاكية والرها . وحاصر المسلمون طبرية ، فلما اقترب منهم انقضوا عليه وأنزلوا به هزيمة سحقت جنده ، فهرب وهو لا يصدق بالنجاة (آخر ذى الحجة سنة ٥٠٦/٢٨ يونيو ١١١٣) ثم انصرف المسلمون فى اتجاه عكا وبيت المقدس ، وفى طريقهم خربوا ما حول نابلس ، وكانت قوات بولدوين ترقبهم عن كثب دون أن تجرؤ على الاقتراب منهم ، ثم اتجه مودود الى ناحية حوران وأخذ يهاجم ما يصادفه من حصون الصليبيين ، وعندما تعب جنده أذن لهم فى العودة الى بلادهم ، ومضى فى عدد قليل من جنده الى دمشق ، فدخلها فى ربيع الأول سنة ٥٠٧/سبتمبر ١١١٣ ، وكان قد تواعد مع جنده على أن يعودوا اليه اذا أقبل الربيع من العام القادم ليواصلوا الجهاد .

وفى اليوم الرابع لدخوله دمشق ، وكان يوم جمعة ، خرج للصلاة فى جامعها مع طغتكين ، فلما فرغ من صلاته ، خرج الى الصحن ويده فى يد طغتكين ، واذا برجل ينقض عليه بسكين فى يده فأصابه أربع اصابات كان فيها حمامه . قال ابن الأثير : « وكان صائما فحمل الى دار طغتكين ، واجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال: لا لقيت الله الا صائما ، ومات من يومه رحمه الله » . وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد الذى قضى عمره كله فى ميدان الجهاد ، وبدأ للمسلمين عصر النهوض وبشر بعصر الوحدة والظفر للعرب والمسلمين . ان مودود من غير شك هو الطليعة الأولى قبل نور الدين وصلاح الدين ، وهو حقيق أن يعد فى الظاهرين من أبطال الاسلام .

أما قاتله فقد عاجله الناس وقتلوه وأحرقوه ، فقيل انه باطنى دسته هذه الجماعة الخبيثة على البطل العظيم خوفا على ما كان لهم فى الشام ، وقيل أيضا ان سيف الدولة طغتكين هو الذى دسه ليقتله اذ خشى خطره على نفسه بعد أن رأى من همته واتجاهه نحو دمشق . وقد دفن مودود فى دمشق ، ثم حملت رفاته الى بغداد ثم الى أصفهان .

وكان للباطنية اذ ذاك شأن عظيم فى الشام ، وكان الناس

يخشونهم ويهادنونهم حتى كان لهم رئيس (يسمى المقدم) يعيش كأنه سيد محترم فى حلب يسمى أبا طاهر الصائغ ، فلما قتل مودود ثار بهم الناس ، وقبضوا على أبى طاهر وقتلوه ، وقبضوا على أعيانهم ، ونهبوا أموالهم ، ثم أطلقوهم ، فقصد نفر منهم البلاد التى كانت بأيدى الصليبيين وأقاموا فيها ، واختفى الباقون .

وفى العام الذى قتل فيه مودود توفى صاحب حلب رضوان بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، فاختفت من الميدان هـذه الشخصية الخسيسة التى قضت عمرها فى الخيانة والأذى . وكان موته نعمة على المسلمين بقدر ما كان موت مودود نقمة عليهم ، اذ تمهد الطريق لانضمام حلب الى الموصل .

ولقد كانت أعظم نتائج جهاد مودود أنه أعاد الى المسلمين الثقة فى أنفسهم فانقلبوا من الدفاع الى الهجـوم ، واستخفوا بالصليبيين وقويت نفوسهم فأخذوا ينزلون بهم الضربة بعـد الضربة ، والصليبيون فى حيرة من أمرهم لا يدرون كيف يتقون هذا التيار الجديد الذى بدا لهم وكأنه طوفان . ثم ان المسلمين تعلموا من مودود درسا فى الاتحاد ، فأصبح أمراؤهم أميل الى محالفة بعضهم بعضا ، وتبينوا فضائل الاتحاد ، ولم تعد جماعة منهم تخرج الى القتال الا متحدة مع جماعة أخرى فيكتب الله لهما الانتصار .

ثم ان ميلاد حركة التوحيد فى الموصل وامتدادها الى شمال الشام جعل مملكة بيت المقدس تركز قواها للدفاع عن حدودها الشمالية ومدافعة ذلك التيار المطرد الذى لن يتوقف بعد اليوم ، فانصرف بلدوين الأول ملكها عما كان يستمرئه من الهجوم على ما بقى للفاطميين على سواحل الشام ، فتنفس مخنقها واستراحت زمانا . وبعد أن كان بلدوين هذا جريئا لا هم له الا الانقضاض على ما يصادفه من بلاد المسلمين ، اقتصرت همته خلال السنوات الباقية من عمره على الدفاع . وحرص على أن يصالح صاحب دمشق طغتكين ليطمئن من ناحيته . وأمنت صور وعسقلان على ساحل فلسطين فلم يعد يروعهما بهجماته ، فأفاد الفاطميون من ذلك وأخذوا يحصنونهما من جديد ، بل استقووا ومضوا يهاجمون نواحى مملكة بيت المقدس حتى هددوا بيت المقدس فى صيف ٥٠٨/١١١٥ ، فبذل بلدوين جهده فى دفع هذه الغارة .

وفى طريق العودة الى بيت المقدس اشتغل ببناء حصن منيع على تل الشوبك ، وقد سمى الحصن عند العرب بهذا الاسم ، أما عند اللاتين فيسمى مونت — رويال ، وكان غرضه من الحصن قطع الطريق على قوافل مصر الذاهبة الى فلسطين . ومن الشوبك

خرج فى سنة ١١١٦/٥٠٩ وأوغل جنوبى فلسطين حتى أدرك ميناء أيله على خليج العقبة ، ثم اخترق صحراء سيناء وزار دير سانت كاترين ، ولكن الرهبان لم يرحبوا بمقدمه فعاد الى فلسطين عن طريق حَبْرون ، وأغار فى الطريق على بعض القرى جنوبى فلسطين وغنم منها كثيرا ، فطلب الأفضل وزير الفاطميين اليه الصلح وقرره معه وتوفى فى العام التالى سنة ١١١٧/٥١٠ ، فاختفى من الميدان أجرأ وأقدر ملك عرفته مملكة بيت المقدس ، فهو صاحب الفضل فى تثبيت قواعدها وتوسيع رقعتها .

*

تلقى راية الجهاد بعد مودود رجل من حلفائه شاركه فى معظم حملاته وقبس منه فكرة الجهاد هو ايلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، ولم يكن ايلغازى من نسيج مودود ، وكانت ولايته صغيرة وموارده قليلة ، ولكنه حمل الراية على قدر ما أطاق حتى سلمها بعد ذلك للأمير آق سنقر والد عماد الدين زنكى وجد نور الدين محمود ، وهو — أى ايلغازى — ثانى أبطال الوحدة الاسلامية الذين أنقذوا بلاد العروبة من نقمة الاحتلال الصليبى : شرف الدولة مودود ، ونجم الدين ايلغازى ، وأخوه نور الدولة بلك ، وعماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب .

وقد أعانت الظروف نجم الدين ايلغازى على الظهور ، لأن روچرلى بورج أمير أنطاكية بعـد تانكرد (ويسميه المسلمون روجيل) تطلع للهجوم على حلب بعد موت مودود ، وكان يمنى نفسه بأخذها ، فسار اليها فى جيش كبير عـام ١١١٩/٥١٢ ، واستولى على « بزاعة » من حصونها وعسكر على مقربة منها . وكانت أمور حلب بعد موت رضوان قد صارت الى غلام من غلمانه يسمى لؤلؤا ، فسارع هذا بالاستنجاد بالخليفة والسلطان، فلم يجب صريخه أحد منهما ، فاتجه الى نجم الدين ايلغازى فبادر الرجل بالخروج فى جمعه لنجدته .

وفى أثناء ذلك كان روچر قد ضيق على حلب حتى عدمت القوت ، واضطر لؤلؤ الى أن يقبل مناصفته فى خراج بعض جهاتها حتى ينصرف عنه ، ولكنه أخذ المال ولم ينصرف واستمر يحاصر حلب ، فاذا هو فى ذلك ترامت اليه أخبار سير ايلغازى ، فبعث يستنجد ببلدوين الثانى ملك بيت المقدس الذى خلف بلدوين الأول بعد موته ، وبلغه تحرك بلدوين لنجدته فقويت نفسه وأقدم على لقاء ايلغازى دون عدة كاملة ، والتقى الجيشان عند حصن قسطون ، ودارت رحى معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون واستولوا على هذا الحصن ، واستمرت المعركة ولقى فيها روچر مصرعه ،

وتشجع نفر من أمراء الشام فأقبلوا ينضمون بعسكرهم الى ايلغازى ، ومنهم دبيس بن صدقة صاحب الحِلة فى العراق وسلطان ابن منقذ صاحب شيزر وطغتكين أتابك دمشق ، وهبت رياح النصر على المسلمين فمضوا يتعقبون فلول جيش أنطاكية ، فلم ينج منهم الا الشريد .

وقد تردد صدى هذا النصر فى نواحى العالم العربى ، فأما فى بغداد فقد اعتز الناس بايلغازى وبعث اليه الخليفة المسترشد بخلعة التشريف ولقبه نجم الدين . وفى أثناء ذلك كانت قد أتيحت له فرصة ضم حلب الى بلاده ، لأن لؤلؤا غلام رضوان لم يستطع ضبط أمورها ، وأراد مع ذلك أن يمضى فى رياسة البلد زاعما أنه أتابك لابن رضوان ، فاستصدر نجم الدين ايلغازى تفويضا من الخليفة بضم حلب الى ماردين والموصل ، وتم له بذلك تكوين جبهة اسلامية موحدة فى هذه الناحية . وقويت نفسه بعد ذلك ، فمضى يواصل جهاد الصليبيين (١١١٨/٥١١) .

وأما فى أنطاكية فقد ملك الصليبيين الهلع بعد مقتل أميرهم ، وتحرك أهلها من النصارى وحاولوا التخلص من نير أولئك النورمان العتاة ، فأسرع الأسقف برنارد ، مندوب البابا ، وكان يقيم فيها منذ خلع بلدوين الأول البطريق ديامبير ، ونصب نفسه

حاكما على أنطاكية وضيق على السوريين من أهل البلد وجردهم من سلاحهم وألزمهم بيوتهم تحت حراسة جند الصليبيين ، ولم يأذن لهم بمغادرتها بعد الغروب ، وقد كان لسياسته تلك أسوأ الأثر على هذه الامارة الصليبية ، ودلت كذلك على ما كان يقاسيه العرب النصارى من عسف أولئك الأجانب ، وعلى أن مؤرخى الحروب الصليبية من النصارى كذبوا فيما زعموه من أن قواتهم انما أتت لتنقذ النصارى من عسف المسلمين . وهذا الحال يشبه ما عليه اليوم اليهود الفلسطينيون فى النواحى المحتلة من أرض فلسطين ، فهم فى شقاء وذل مع مهاجرة الصهيونيين وطواغيتهم . وقد رأينا فيما مضى ما أصاب الأرمن والسريان — وهم نصارى — على أيدى الصليبيين النورمان الذين بسطوا سلطانهم عليهم فى الرها ونواحى قيليقية .

أسرع بلدوين الثانى ملك بيت المقدس لنجدة أنطاكية وانقاذها مما هى فيه ، فدخلها فى ربيع الأول ٥١٢/ يوليو ١١١٩ وأعلن نفسه وصيا على امارة طرابلس وتولى مقاليد الأمر فيها .

وكان المرض قد أصاب ايلغازى فلزم الفراش نحو ثلاثة أسابيع ، ثم أبل من مرضه وخرج الى الميدان ، واتجه نحو حصن الأثارب الذى فقدته حلب منذ سنتين نتيجة لتخاذل رضوان ،

وتمكن ايلغازى من استعادته (ربيع الأول سنة ٥١٢/يوليو ١١١٩) ثم استولى على حصن زارنده ، وخرج بلدوين الثانى لحربه وعسكر عند تل دانيث ، فلم يزل جند المسلمين ينوش معسكره حتى ضجر جنده وهبطت عزيمتهم . ثم التقى الجمعان فى ربيع الثانى سنة ٥١٢/أغسطس ١١١٩ ودارت رحى معركة عنيفة لم تنته الى نتيجة حاسمة ، فأما المسلمون فيقولون انهم فازوا بفخرها ، وكذلك يزعم الصليبيون ، وعلى أى الأحوال ، فقد انصرف ايلغازى بعد الموقعة الى حلب ، ثم عجل بالعودة الى ماردين ليجمع جندا جديدا ، فابتدر بلدوين الفرصة واستعاد بعض ما فقد من حصون ، ولكن الأثارب وزارندة ظلتا فى أيدى المسلمين ، وتنفس مخنق حلب وعاد الاطمئنان الى نفوس أهلها .

ورأى بلدوين أن الرها مهددة بالسقوط اذا لم يتداركها بأمير مقاتل عنيد ، فوقع اختياره على جوسلين صاحب طبرية ، وكان جوسلين هذا قبل ذلك أمير تل باشر على أيام بلدوين النورمانى صاحب الرها ، ثم اختلف معه وطرده من خدمته ، فضمه بلدوين الأول اليه وولاه طبرية . فلما مات بلدوين صاحب الرها لم يعد للامارة من يقوم بأمرها ، فعهد بلدوين الثانى صاحب بيت المقدس الى جوسلين فى امارتها ، وكان مقاتلا عنيدا ذكرنا فيما سبق كيف

وقع فى أسر جكرمش أمير الموصل ثم أطلق سراحه جاولى ، فكان الرجل محنقا على المسلمين لا يكف عن أذاهم ، ولهذا فقد قصده ايلغازى حينما عاد الى الشام من ماردين فى ربيع سنة ١١٢٠/٥١٣ وعاث فى بلاده ما بين تل باشر وقيسون ، ثم مضى نحو أنطاكية يهاجمها ، فخرج بلدوين الثانى للقائه ودارت الحرب بينهما سجالا، ثم انسحب ايلغازى الى قنسرين ومنها الى حلب ، فاطمأنت أنطاكية بعض الشيء ، خاصة وقد عاد ايلغازى الى ماردين ليقمع ثورة قام بها ابنه سليمان .

وأقر نجم الدين ايلغازى الأمور فى بلاده وعاد الى الشام فنزل فى حلب ، التى أصبحت جزءا من أملاكه ، وسار لحرب الصليبيين فى ربيع الأول سنة ٥١٦/يونيو ١١٢٢ وانضم اليه ابن أخيه نور الدولة بَلَك بن بهرام بن أرتق صاحب خَرْتَبَرْت وطغتكين صاحب دمشق ، وخرج بلدوين الثانى للقائهم ودارت بين الفريقين وقائع صغيرة لم تنته الى نتيجة ، ثم ثقل المرض على ايلغازى فعاد الى حلب ليتمرض ، وانصرف طغتكين الى دمشق ، وسار بلك بن أرتق عائدا الى خرتبرت . وأراد الله أن يكتب له حسنة كبرى ، فحرك جوسلين الى التعرض له أملا فى الانفراد به وهزيمته . وأدرك بلك مأربه فتحصن خلف منطقة مستنقعات وانتظر العدو ، وتقدم

جوسلين نحوه فلما توسط جنده منطقة المستنقعات أخذتهم سهام المسلمين من كل جانب ففلت غربهم وقتلت أنجــادهم ، وحاول جوسلين الفرار فأدركه المسلمون وأسروه مع نفر من فرسانه ، وعاد بلك مظفرا بمن معه من الأسرى الى خرتبرت ، وكأنما أرادت الأقــدار أن تنتقل الى يده راية الجهاد فى وقت كان عمه المجاهد يعانى أوصاب المرض الشديد .

وشعر نجم الدين ايلغازى ببعض التحسن ، فأخذ الطريق الى ماردين ، ولكن منيته أدركته فى الطريق (١٧ رمضــان ٥١٦/ ٣ نوفمبر ١١٢٢) وبذلك انتهت حياة هذا المجاهد المظفر الذى أدى لوحدة الاسلام قدر ما أدى شرف الدولة مودود . فقــد أرادت المقادير أن يتم على يديه توحيد حلب والموصل وماردين ، فكانت تلك خطوة حاسمة فى طريق النصر المأمول . وقد كسب الرجل من الانتصارات ما قويت به نفوس المسلمين ، وقضى على نفر من أنجاد الصليبيين كانوا شجى فى حلوق العرب والمسلمين .

وريع بلدوين الثانى عندما علم بأسر جوسلين ، فعجل بالمسير الى حلب وغزا نواحيها واسترد حصن الأثارب ، وكان قد تولى الأمور فيها ابن أخ لنجم الدين ايلغازى يسمى بدر الدولة ، فلم يحسن الولاية وتعرضت حلب للخطر . فأسرع نور الدولة بلك

لتلافى الحال ، وحاصر قلعة كَرْكَر ليشغل بلدوين الثانى عن حلب ، ومضى هذا نحوه ودارت رحى معركة عنيفة عند أسوار البلد ، كتب فيها النصر لنور الدولة بلك وأكرمه الله فوقع بلدوين فى أسره ، فسيره مخفورا الى خرتبرت حيث حبس فى نفس الغرفة مع جوسلين ، وبهذا جمع هذا الأمير الباسل هذين الصليبيين العاتيين فى يده وحبسهما كأنهما طائران فى قفص (ربيع الأول سنة ٥١٧/ أبريل ١١٢٣) . ثم سار الى حلب واستولى فى الطريق على حران ، فلما بلغ حلب اذابهذا التافه بدر الدولة يريد أن يرده عنها ويحوزها لنفسه ، ولكنه لم يستطع مدافعته ، ودخل نور الدولة بلك حلب ورتب أمورها ، وتزوج احدى بنات رضوان فاستقرت له الأمور .

ولم يرح نور الدولة بلك فى حلب طويلا ، بل عجل بالخروج للحرب فاستولى على « البارة » وكانت من أكبر المعاقل التى استولى عليها الصليبيون فى الحملة الأولى ، وكانوا قد جعلوا مسجدها كنيسة وأقاموا فيها أسقفا ، فأعاد بلك المسجد الى أصله وألغى الأسقفية ، ثم بدأ يحاصر كفر طاب جنوبى معرة النعمان ، فاذا هو فى حصارها اذ بلغه نبأ اضطره الى رفعه : لقد تجمع نفر من مأجورى الأرمن وهاجموا البرج الذى كان جوسلين وبلدوين

الثانى سجينين فيه وخلصوهما ، ثم احتلوا الحصن وحاولوا الاستيلاء على خرتبرت ، وهى بلد صغير فى مخارم جبال أرمينية فى أقصى شرقى بلاد الدانِشْمَنْديين شرقى آسية الصغرى .

وترك جوسلين صاحبه يباشر القتال ، وأسرع الى الرها ليأتى بالأمداد ليتم الاستيلاء على ذلك الحصن . فرفع بلك الحصار ومضى مسرعا الى ماردين ومنها الى خرتبرت ، فوصل فى مدة لا تكاد تتصور فى تلك العصور : خمسة عشر يوما ، وفى اليوم السادس عشر كان قد قضى على الفتنة وهزم الأرمن وقبض على بلدوين وأعاده الى سجنه ، ثم قتل كل من كانت له فى الفتنة يد . وعلم جوسلين أن لا أمل له فى المسير الى خرتبرت ، فاتجه نحو حلب وأغار على ما حولها غارة وحشية لا يقدم على مثلها الا جلف مثله : لم يكتف باتلاف الزروع بل قطع الأشجار ونبش القبور وأحرق عظام الموتى ، وهدد حلب بشر مستطير ، ولكن قاضى البلد نهض وتولى الدفاع وصمد فيه ، وأراد القاضى أن يعاقب جوسلين على فعله فاستولى على كنيستين وجعلهما مسجدين ، وأبقى لنصارى البلد كنيستين أخريين .

وعاد بلك الى حلب مع ظهير الدولة طغتكين صاحب دمشق وآق سنقر البرسقى من كبار جند السلطان مسعود ، وحاول

الثلاثة استعادة حصن عزاز فلم يوفقوا ، فاتجهوا لمهاجمة تل باشر حتى ينصرف جوسلين عن حلب . واتصل بعلم بلك أن أمير منبج يخامر على المسلمين مع جوسلين ، فحاصره فى بلده ، وأقبل جوسلين لعونه فهزمه بلك واستمر فى الحصار ، فأصابه سهم قاتل أقعده عن القتال ، فتمالك وانتزع السهم ، وأحس أن منيته حانت فقال وهو يعالج سكرات الموت : « هذا موت لكل المسلمين » ، ومات فى ٢٧ ربيع الثانى سنة ٥١٨/٧ مايو ١١٢٤ ، وفقد المسلمون بموته فارسا نجدا قاد جندهم من نصر الى نصر حتى سمى المظفر .

وخلفه على حلب ابن عمه حسام الدين تَمُرْتاش بن ايلغازى ، ولم يكن كفئا للظرف الذى تولى فيه ، وقد بدأ حكمه بداية سيئة اذ صور له رأيه أن يطلق سراح بلدوين الثانى فيطوقه بمنة يذكرها له ، وكان قد قرر عليه قبل أن يطلقه فدية كبيرة واشترط أن يسلم اليه حصن عزاز ، وقد أدى بلدوين جانبا من الفدية قبل اطلاق سراحه ، فلما أصبح طليقا نكث عهده وأعلن أنه لا يتقيد بعهد قطعه لملك مسلم ، وأحله بطريق بيت المقدس من عهده ، وقال كلمته المشهورة : « لا عهد لمسلم ! » وتوجه فى أواخر ذى الحجة سنة ٥١٨/سبتمبر ١١٢٤ نحو حلب وقلبه عامر بالحقد عليها ، ومن سوء الطالع أن انضم اليه رئيس عربى ممن شقى بهم المسلمون

شـقاء طويلا خلال ذلك العصر هو دبيس بن صدقة لحقـد كان منه عـلى تمرتاش ، ثم انضم اليهما جوسلين وجنـد كثـير من أنطاكية .

لقيت حلب من ذلك الحلف أذى لم تعرفه فى يوم من أيامها ، وضاق عليها الخناق وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب ، لكن أهلها استبسلوا فى الدفاع حتى كان الرجل منهم يصـاب فلا يطمئن فى فراشه الا قدر ما يستريح ثم ينهض للقتال وجرحه يدمى . كل ذلك وتمرتاش فى ماردين لا يقدر الموقف حق قدره . وطال الحصار وتناقص المقاتلون حتى كادت المدينة تستسلم .

ولكن الله تدارك حلب والمسلمين برجـل من طراز مودود وايلغازى وبلك ، هو آق سنقر البرسقى ، وكان فارسا شهما تمرس بالحروب وتولى الأعمال لسلاطين السلاجقة دهرا ، وقد ولاه السلطان مسعود الموصل وحلب فى أواخر سنة ١١٢٤/٥١٨ فرتب أمور الموصل وجمع جنده وسار فى سنة ١١٢٥/٥١٩ الى حلب ، فما جال مع المحاصِرين جولة حتى تفرقوا وعادوا يجرون أذيال الخيبة ، ونجت جبهة الاسلام من أكبر خطر تعرضت له بعد سقوط بيت المقدس .

وفى أثناء أسر بولدوين الثانى كانت أمور مملكة بيت المقدس

بيد يوستاش صاحب قيصرية وصيدا . وأراد المأمون البطائحى وزير الفاطميين أن ينتهز الفرصة ويستعيد يافا ، ولكنه لم يوفق (ربيع الأول سنة ٥١٧/مايو ١١٢٣) ووصل أسطول بندقى وانضم الى الصليبيين ، وأنزل بأسطول الفاطميين هزيمة لم يحاول بعدها الخروج من مراسيه فى عسقلان . ثم توفى يوستاش (١٥ يونيو ١١٢٣) وتولى الوصاية فى بيت المقدس وليام دى بوريس صاحب طبرية ، وأراد أن يشغل المسلمين عن الهجوم على القدس فهاجم مع البندقيين مدينة صور واستولى عليها بعد قتال عنيف . ولم يبق للفاطميين بعد ذلك الا عسقلان (٢٣ جمادى الأولى سنة ٥١٨/٧ يوليو سنة ١١٢٤) .

واضطربت الأمور فى مملكة بيت المقدس حتى انعدم الأمان ، وبات حجاج النصارى لا يأمنون على المسير من الساحل الى بيت المقدس خوفا من الأعراب والتركمان ، فنفر فارس يسمى هيو دى بينس (فى سنة ١١١٩) وكون مع سبعة من رفاقه فرقة من المقاتلين الدينيين سموا أنفسهم فرسان المعبد لحراسة الحجاج ، وعاشوا عيشة الرهبان منقطعين للعمل الذى عاهدوا أنفسهم على القيام به ، وقد اعترف بهذه الفرقة الرهبانية مجمع تروا الدينى فى عام ١١٢٨ ، وذلك هو ميلاد هذه الجماعة الدينية التى ستلعب

من الآن فصاعدا دورا هاما فى الحرب بين الصليبيين والمسلمين ، وقد سماهم المسلمون بالداوِيَّة .

ونعود الى آق سنقر البرسقى : افتتح الرجل أيامه فى حلب بعدالة وحزم حبباه الى الناس ، واجتهد فى اعداد الجند والتمهيد للحرب ، اذ أنه كان مجاهدا استقرت نفسه على قضاء بقية عمره فى خدمة القضية الكبرى : طرد الصليبيين . ثم خرج فى ربيع سنة ١١٢٥/٥١٩ بعدة كاملة وافتتح انتصاراته باستعادة كفر طاب وحاصر عزاز ، ووصل بلدوين الثانى والتحم الجانبان فى معركة لم يوفق فيها آق سنقر ، ثم تقرر الصلح بين الجانبين على تبادل الأسرى وتقاسم خراج ناحية جبل سُمّاك .

وقد تحامى بولدوين الثانى بعد ذلك أرض حلب ووجه ضرباته نحو دمشق وأنزل بظهير الدولة طغتكين هزائم متوالية أكبرها عند مرج الصُّفَّر (ربيع الثانى سنة ٥٢٠/يونيو١١٢٦) ، ولم يخرجه من بلاد دمشق الا ظهور آق سنقر البرسقى فارتد عنها وتهادن الفريقان . وكان بونس (بُنص) صاحب طرابلس قد استولى على رَفَنِيَّة (محرم سنة ٥٢٠/مارس١١٢٦) وعاث فى ضواحى حمص .

وعاد آق سنقر الى الموصل ، وبينما كان يصلى الجمعة فى الثامن من ذى القعدة سنة ٥٢٠/٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ وثب به

جماعة من الباطنية فقتلوه ، وبهذا قضت هذه الجماعة المفسدة على رابع أبطال الوحدة الاسلامية ومجاهدة الصليبيين . ولا يدرى أحد ما كان دافعهم الى هذه الاغتيالات . ومن غريب الأمر أن أذاهم لم يمتد الى صليبى واحد ذى خطر أو الى خائن واحد ، فكأنما نذروا أنفسهم لأذى الاسلام والمسلمين .

وحسب الناس أن أمر الموصل وحلب قد ضاع ، ومن أين لها ببطل جديد بعد أن غال الموت هذه السلسلة الباهرة من رجالها الصِّيد ؟ وقد غاب عنهم أن الشعوب اذا نهضت للعمل العظيم واشرأبت نفوس أهلها للمجد لم يلبث أن يظهر من بين أفرادها من يتولى قيادة ركبهم المظفر ، ولقد استيقظت أمة العرب والاسلام منذ أيام مودود ، وجاشت الصدور بالجهاد والفداء وذاقت طعم العزة والظفر ، فلم يكن هناك بد من ظهور القائد وسير الركب فى طريق النصر والأمجاد .

ففى ربيع الآخر من سنة ٥٢١/ مايو ١١٢٧ عهد السلطان محمود فى امارة الموصل وحلب الى عماد الدين زنكى بن آق سنقر علاوة على عمله كحاكم العراق . فسار الى الموصل واستقر فيها ، ثم بلغه اختلاف أهل حلب ومهاجمة الصليبيين اياها ، فعجل بالمسير اليها ، واستولى فى طريقه على منبج وبِزاعة ، ثم دخل حلب وثبت أقدامه فيها ، فاطمأن البلد من جديد .

وكان وصول عماد الدين الى حلب فاتحة خير ، فقد كان الصليبيون قد كلبوا عليها وعلى دمشق، وتصادف أن توفى طغتكين أتابك دمشق فى ذلك الحين ، وكان على فساد نفسه سياسيا حكيما عرف كيف ينجو بدمشق من أيدى الصليبيين ، فلما مات أرجف الناس بها وتطلع اليها أصحاب بيت المقدس وأنطاكية ، فكان استقرار عماد الدين زنكى فى حلب أمانا للشام وسلاما للاسلام .

— ٥ —

رائد النصر عماد الدين زنكى

وقد درى الروم مذ جاورت أرضهمُ	أن ليس يعصمهم سهل ولا جبلُ
فى كل يوم تزور الثغرَ لا ضجر	يثنيك عنه ، ولا شغل ولا ملل
فالنفس جاهدةٌ والعين ساهدة	والجيش منهمك والمال مبتذل

« أبو فراس الحمدانى »

كان عماد الدين زنكى قبل أن يتولى أمور الموصل من فرسان الاسلام المعدودين وشبابهم الذى يدخر لعظائم الأمور . كانت سنه عشر سنين عندما قتل أبوه آق سنقر ، فضمه اليه قوام الدولة كربوقا وقال : « هو ابن أخى وأنا أولى بتربيته » وضم مماليكه الى جنده وأقطعهم الاقطاعات . وتوفى كربوقا سنة ٤٩٦/١١٠٢ فدخل زنكى فى خدمة شمس الدولة جَكَرْمِش صاحب الموصل ، وبقى معه الى أن قتل سنة ٥٠٠/١١٠٧ ، وظل فى الموصل يعمل مع أمرائها حتى صار فى عداد فرسان شرف الدولة مودود ، فكان

من رجاله الذين يعهد اليهم فى عظائم أموره ، والى صحبته الطويلة لمودود يرجع ايمان عماد الدين زنكى بالوحدة والجهاد لطرد الصليبيين من الشام ، وقد تعلق قلبه بتخليص الشام وأظهر من الحرص على ذلك الغرض الأسمى ما جعل جنده يلقبونه بزنكى الشامى قبل أن يصل الى الولاية بزمان طويل . واستمر زنكى فى امارة الموصل بعد موت مودود معينا لايلغازى ومن أتى بعده .

وصارت امارة الموصل سنة ١١٢٨/٥٢٢ الى مسعود أخى السلطان السلجوقى محمود ، ولم يكن مسعود راضيا عن سلطنة أخيه محمود ، ولم يلبث الطمع أن حركه للثورة على أخيه وطلب الملك لنفسه ، وكان عماد الدين زنكى من فرسانه فجعل يحذره من نتائج الخلاف ويصرفه عن هذه الفتنة التى لا تعود على أحد بخير ، ولكن مسعودا لج فى العداوة وأبى الا الحرب ، فتخلى عنه عماد الدين اذ لم ترض نفسه بأن يحارب سلطانه . وانهزم مسعود واستأمن لأخيه محمود فأمنه ، وأخذ منه الموصل وأقطعها آق سنقر البرسقى ، وضم اليه عماد الدين زنكى وأوصاه بالوقوف عند رأيه وما يشير به .

ثم تقلب آق سنقر البرسقى فى مناصب أخرى فى البصرة وبغداد ، وعزل من الموصل ثم أعيد اليها ، فطلب الى زنكى أن

يخرج معه ، وكان قد ضجر بكثرة التقلب فى البلاد والوظائف وقال : « قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم قد ملك البلاد أمير وتؤمر بالتصرف على اختياره وارادته ! ثم تارة بالعراق ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة ، وتارة بالشام ! » ولم يخرج الى الموصل ، وآثر الاستقرار فى بغداد الى جانب السلطان محمود ، فقربه وأكرمه وتوطدت بينهما صداقة وصحبة . وفى نفس الوقت اتصل بالخليفة المسترشد وكسب وده واحترامه . وعندما وقع بين السلطان محمود والخليفة المسترشد خلاف أدى الى الحرب ، وقف زنكى على الحياد حتى انجلت الغمرة وتصالح الفريقان . ثم ولى زنكى شِحْنكية (أى حكومة) بغداد . فلما قتل آق سنقر البرسقى عام ١١٢٦/٥٢٠ عهد السلطان محمود فى امارة الموصل وحلب الى ابنه عز الدين مسعود بن آق سنقر ، فلم يستطع ضبط هذه الولاية الواسعة التى كانت تتطلب رجلا قادرا ، فعزل عنها واستقر الرأى فى سنة ١١٢٨/٥٢٢ على أن يتولاها عماد الدين زنكى ، فخرج الى الموصل مصطحبا نفرا من أصحابه من الرجال أحسن اختيارهم ، ومن أعظم فضائله وأقوى أسباب توفيقه أنه كان نقادا للرجال يعرف كيف يختار الأكفاء الصالحين منهم ويوليهم ثقته ، وقد انتفع زنكى وابنه نور الدين بهم وبأولادهم

أحسن انتفاع ، نذكر منهم صلاح الدين محمد الياغِسياني والقاضي بهاء الدين أبا الحسن على الشّهرزوري ونصير الدين جَقَر ، فجعل الأول أمير حاجب ، أي أشبه بوزير ، والثاني قاضي قضاة بلاده ، والثالث حافظا لقلعة الموصل وفوض اليه أمر هذه الولاية كلها .

وقد وصف شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي شامة ، مؤرخ نور الدين وصلاح الدين ، أحوال البلاد الاسلامية عند ولاية عماد الدين زنكي للموصل في عبارة توجز ما فصلناه في الصفحات الماضية ، ولا بأس بايرادها على تواليها ، قال : « وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم وامتدت الى بلاد المسلمين أيديهم ، وضعف أهلها عن كف عاديهم ، وتتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب ، واستطار في البلد شرر شرهم ، وامتدت مملكتهم من ناحية شِبختان الى عريش مصر ، لم يتخللها من ولاية المسلمين غير حلب وحماه وحمص ودمشق . وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس — عين . أما أهل الرّقّة وحَرّان فقد كانوا معهم في ذل وهوان ، وانقطعت الطريق الى دمشق الا على الرحبة والبر . ثم زاد الأمر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واتاوة يأخذونها منهم

ليكفوا أذيتهم عنهم ، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم فمن اختار المقام تركوه ومن آثر العود الى أهله أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلا للمسلمين وصغارا . وأما أهل حلب فان الفرنج أخذوا منهم مناصفة أعمالها حتى الرحا التى على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة . وأما باقى بلاد الشام فكان حالها أشد من حال هذين البلدين ، فلما نظر الله سبحانه الى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكى ، فغزا الفرنج فى عقــر ديارهم ، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم ، واستنقذ منهم حصونا ومعاقل » ..

وفى كلام أبى شامة مبالغة ظاهرة ، دفعه اليها حبه للبيت الزنكى وظنه أن المبالغة فى تصوير سوء حال المسلمين عند ولاية زنكى جديرة بأن تزيد فى تقدير أعماله وما أداه للمسلمين ، والحقيقة أن أحوال العالم العربى كانت قد تحسنت كثيرا منذ أيام شرف الدولة مودود ، ووصل الأمر الى درجة التعادل بين الجانبين فى شمال الشام ، أما فى جنوبه وفى فلسطين فقد ظل الأمر على ما هو عليه من السوء نتيجة لضعف الفاطميين وسوء سياستهم ، ولهذا ، فان الصليبيين لم يزيدوا رقعة بلادهم فى الشمال شيئا بعد سنة

٥٠٠/١١٠٦ واتجهت همتهم الى الاتساع فيما كان خاضعا للفاطميين ، حتى لم يبق لهم هناك الا عسقلان ، وحتى هذه ستسقط بعد قليل .

كذلك غاب عن أبى شامة وعن ابن الأثير وابن القلانسى وغيرهم من القدماء أن يلاحظوا التطور الذى أصاب الامارات الصليبية وما دخل عليها من الضعف لأسباب عدة ، منها طول الحرب مع المسلمين وهلاك الأعداد بعد الأعداد من خيرة الفرسان الذين أتوا مع الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ، واشتراك الجنويين والبندقيين فى الحرب أكثر فأكثر واجتهادهم فى الفوز من الغنيمة بأكبر نصيب ، ولقد كانت لهم اليد الطولى فى الاستيلاء على مدائن الساحل بعد أنطاكية ، وكانوا يفوزون فى كل ثغر يشاركون فى فتحه بثلثه غير نصيبهم من الغنائم ، وحصلوا على الحق فى أن يكون لهم حى خاص يقيمون فيه . وكانوا اذا استقروا فى بلد مضوا فيما أهمهم من التجارة وجمع المال ، ويدفعهم ذلك الى التدخل فى السياسة وشئون المدن ، مما كان يشغل أصحابها عن الحرب والدفاع . وهناك أيضا الامبراطورية البيزنطية التى تبينت أن الصليبيين لم يقبلوا لعونها وانما لعون أنفسهم ، فاختلفت معهم من أول الأمر على امارتى أنطاكية والرها ، وما زال الجو يكفهر بين

الجانبين حتى تطور الى عداء سافر بل الى الحـرب بين الحين والحين ، ومال البيزنطيون فى أيام مانويل ويوحنا كومنين (وقد جاءا بعـد ألكسيوس) الى الاتفاق مع المسلمين على الصليبيين . وأهم من ذلك كله ما أصاب عناصر الصليبيين نفسها ، وبيوتهم الحاكمة من تطور كبير .

ذلك أن أيام الجيل العفى المغامر من الصليبيين ذهبت مع أمس الدابر : أكلتهم الحـروب أو ماتوا حتف أنوفهم أو عادوا الى بلادهم . ولم يعرف الصليبيون بعد الجيل الأول رجالا من طراز رايموند صاحب تولوز ، أو بوهيموند وأخيه بلدوين وابن أخيهما تانكرد النرمانيين ، أو من طراز بولدوين الأول ملك بيت المقدس . فقد اتسعت الامارات وكثر بين أيدى أصحابها الخير ، فبدأ يدب فيهم دبيب الضعف والوهن والخلاف ، فلا نظفر بما يشبه هـذا الجيل الأول الا لماما كما سنرى فى حالة عمورى ملك بيت المقدس .

بدأت هذه الظاهرة تنجلى للعيان بعد موت بلدوين الثانى فى شوال ٥٢٥/أغسطس ١١٣١ ، فقد أقر رجالُ المملكة الوريثَ الذى اختاره بولدوين لعرشه ، وهو فولك الخامس كونت أنچو . ولم يكن فولك من الصليبيين ولا فكر قبل أن يغادر بلاده فى أن يحمل الصليب ، وانما كان بلدوين قد أهمه أمر مصير العرش ،

لأنه لم ينجب غير أربع بنات هن مليزاند وأليس وهودييرنا وچوڤيتا ، وكانت مليزاند أكبرهن ولها وراثة العرش ، فبحث لها أبوها عن زوج كفء ، لحمل عبء الدولة معها فلم يعجبه واحد من فرسان الصليبيين فى الشام ، فبعث الى لويس السادس ملك فرنسا يطلب اليه أن يختار لابنته نبيلا فرنسيا جديرا بالتاج ، فاختار فولك هذا ، وكان أبوه كونتا لأنچو وأمه برتزادا من آل مونتفور ، اشتهرت بما كان لها من علاقة غير مشرفة بفيليپ الأول ملك فرنسا . وكان فولك رجلا فى الأربعين من عمره ، عرفه الناس بالطمع والتدبير السيىء اللذين جعلاه من أغنى نبلاء فرنسا . وكان عندما وقع الاختيار عليه قد بلغ آماله من الغنى والجاه وأوصى بالكونتية لابنه جودفروا ، فلما أتاه العرش على طبق ذهبى خرج الى بيت المقدس وهو لا يشك فى أن أحدا من فرسان الصليبيين تحدثه نفسه بمنازعته ، ثم تزوج الأميرة الشابة مليزاند ، وصار اليه العرش بعد موت بولدوين الثانى بثلاثة أسابيع .

ولكن أمراء أنطاكية وطرابلس ساءهم ذلك الأمر كله ، وعز عليهم أن يأتى هذا الطارىء الغريب عنهم ليصبح سيدهم ، لأن سياسة بولدوين الأول والثانى وما تعرضت له الامارات الصليبية الثلاث من أخطار جعلت ملك بيت المقدس سيدا لسائر الأمراء

يدينون له بما يدين النبيل الاقطاعى للملك من واجبات وولاء . وكانوا هم من جانبهم يحاولون التخلص من تلك القيود حتى حيال بولدوين الأول والثانى ، فما بالنا بفولك وهو غريب عنهم مفروض عليهم ؟

وكان أول الساخطين على ما حدث الأميرة أليس ثانية بنات الملك الذاهب ، وكانت وصية على عرش أنطاكية ، فقد كان هناك عرف قانونى فرنجى يقضى بأن الأميرة الوصية مقدمة على غيرها فى كرسى مملكة أبيها اذا مات . ولم يكن جوسلين صاحب الرها بأقل انكارا لفولك ، فقد كان — بعد بولدوين الثانى — رأس الصليبيين وأكثرهم جهدا فى حرب المسلمين ، بل كان قسيم بولدوين فى الأسر ولقى معه الأهوال . أما فى طرابلس فقد رفض الأمير بونس بن برترام أن يؤدى الطاعة للملك الجديد . فاتفق الثلاثة على خلافه ، وأراد هو أن يفرض نفسه عليهم بالقوة . وتوفى جوسلين الأول بعد بولدوين الثانى ، وخلفه فى امارة الرها ابنه الصغير جوسلين الثانى ، فسار فى اتجاه أبيه وانضم الى أليس وبونس . ولم يأذن أصحاب طرابلس لفولك بدخول بلادهم ، فاضطر الى ركوب البحر من بيروت الى جبل صهيون ، وكانت من أملاك زوجه ، ولكنه لم يوفق الى شىء مما طلب من ارغام

الأمراء على الطاعة ، واضطر الى العودة الى بيت المقدس ليجد فى انتظاره ما هو أقسى وأجلب لأساه .

ذلك أن الملكة مليزاند كانت منذ شبابها متعلقة بفارس صليبى يسمى هيثو دى ليبويزيه صاحب يافا ، وكان حديثهما على كل لسان ، ولم تقلع مليزاند عما هى فيه بعد زواجها وتوليها العرش ، ونمى الأمر الى الملك فولك فأهمه وأرقه ولكنه آثر السكوت ، ولكن نبلاء البلاط لم يسكتوا وخرج واحد منهم — والتر جارنييه — عن حدود الكلام الى التحدى ، وطلب هيو للمبارزة ، فنكص هذا وهرب الى يافا ولم يحضر فى الموعد المضروب ، فسقط فى أعين الناس ، وقرر مجلس الملك ادانته بجريمة التخلف عن مبارزة دعى اليها للدفاع عن الشرف . فهرب هيو الى عسقلان وطلب الى المصريين أن يعتبروه لاجئا ، ولكنهم زهدوا فيه ونبذوه . ثم وقع فى أيدى فولك فحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات ، فأخذ يستعد للرحيل الى ايطاليا . ثم أراد أن يلم ببيت المقدس ليودع أصحابه ، وهناك انقض عليه فارس فقتله . وقد حوكم الفارس وحكم عليه بالموت بأن تقطع أطرافه واحدا واحدا ثم تقطع رقبته ، ونفذ فيه الحكم على الملأ . ومع أنه أقر بأن الملك لم يوعز اليه بالجريمة الا أن مليزاند زادت نفورا من فولك ، واجتهد هذا

فى أن يكسب ودها فأطلق لها العنان تفعل ما تريد ، فأقبلت تتدخل فى كل شأن من شئون المملكة .

ولم تكن الأحوال فى بقية الامارات الصليبية بأحسن مما كانت عليه فى بيت المقدس ، فقد كان جوسلين الثانى صاحب الرها (تسميه المراجع العربية ابن جوسلين) شابا كسولا سيىء الرأى والتدبير ، وكان الى ذلك قبيحا قصيرا بطينا مجدور الوجه ، وكان متهالكا على شهواته ، فاحتقره رجاله وأبغضوه ، وكانت أليس الوصية على امارة أنطاكية امرأة أنانية ضعيفة الرأى لا تحسن الا تدبير المؤامرات ، وكان فولك قد أرغمها على أن تنزل له عن الوصاية ، فحقدت عليه وباتت تتربص به الدوائر . أما بونس صاحب طرابلس فكان شابا أهوج مفتونا بنفسه مسرفا عليها فى شهواتها .

وقد حدث هذا التطور كله فيما بين موت آق سنقر ومجىء عماد الدين ، فلم يتبين واحد من أمراء الصليبيين شيئا من خلاله ومناقبه ، فما كادوا يلاقونه فى ميادين الحرب والسياسة حتى فتحوا عيونهم دهشة وعجبا .

ولم تكن الأحوال فى بغداد أيضا بأحسن مما كانت عليه فى بيت المقدس ، لأن السلطان محمود السلجوقى توفى عام ٥٢٥/١١٣١

واختلف أبناؤه واخوته على العرش ، وجرت الحروب بينهم ، وخاض غمارها معهم الخليفة المسترشد آملا أن يستعيد جاه الخلافة العباسية وسلطانها ، وانضم عماد الدين الى مسعود من أبناء محمود وأيده وسار فى جيشه ليحارب سلچوق شاه أخا محمود ، ولكنه انهزم وكاد يهلك لولا أن أنقذه نجم الدين أيوب الكردى صاحب تكريت ، اذ عبربه الفرات وأنجاه من الموت . ثم عاد زنكى الى الحرب وخاض معركة مع الخليفة المسترشد ، ولكنه انهزم للمرة الثانية . وتبعه المسترشد الى الموصل ، ولكنه عاد مسرعا الى بغداد ليلقى مسعودا أخا السلطان محمود فى معركة قضت على آماله ، فعزل ونفى الى آذربيجان حيث اغتاله الباطنية الاسماعيليون . وخلا الأمر لمسعود ، فأحسن الى زنكى وأفاض عليه الخلع والهدايا ، فاطمأن فى الموصل وحلب وبايع مسعودا ، وكرس جهوده بعد ذلك لحرب الصليبيين .

وكان زنكى أثناء ذلك كله قد أقام فى حلب رجلا من رجاله يسمى سوّار ، أو أسوار ، وكان سوار جنديا جريئا وثيق الصلة بقبائل التركمان . فجمع منهم جمعا وخرج فى ربيع سنة ٥٢٧/ ١١٣٣ ليهاجم أنطاكية ، فاستغاث الأنطاكيون بفولك ملك بيت المقدس . وخف الملك لعونهم حتى اذا وصل صيدا بلغه أن بونس

أمير طرابلس التحم مع التركمان فى معركة عند جبل النصيريين وانهزم ولجأ الى حصن بارين (موتنفرّان) ، فأسرع وأبعد التركمان وأنقذ بونس ، فأسره بفضله وأصبح هذا من توابعه ، وزوج ابنه رايموند من هوديرنا أخت الملكة مليزاند . ثم تقدم الى أنطاكية ودفع سوار عنها ، ودخلها دخول الظافر ، فأطاعه من فيها وأصبح بهذا رأس الامارات الصليبية الثلاث ، أى أن قواتها توحدت من جديد قبل أن يدخل الميدان عماد الدين زنكى .

أما فى دمشق فكانت الأمور تسير من سيىء الى أسوأ . فقد خلف الأتابك ظهير الدين طغتكين ابنه تاج الملك بورى ، وكان فارسا نجدا ولكنه كان متهورا قصير النظر . وكانت بانياس من بلاده ، وكان زعيم الباطنية على أيامه ، اسماعيل العجمى ، قد استقر فيها وبسط يده عليها ، فسار بورى نحوه ، فما كان من ذلك المتآمر الضال اسماعيل العجمى الا أن عرض على بونس صاحب طرابلس وبوهيموند الثانى صاحب أنطاكية أن يسلم بانياس اليهما وانتقل هو الى بلادهما تاركا أحد أتباعه فى البلد ، وتبين بعد ذلك أن ذلك الرجل الخبيث كان مشتركا فى تدبيره السيىء مع ابن لتاج الملك بورى يسمى بهاء الدين سونج كان يتولى حماه ، ورجل آخر كان يتولى لبورى حمص واسمه قرخان ونفر آخر من

الباطنية فى دمشق . ولكن أمر هؤلاء لم ينكشف الا بعد ذلك .. وعلى أى الأحوال فقد سار بونس وبوهيموند الثانى واستوليا على بانياس دون قتال . وكان سقوطها خسارة كبرى للمسلمين ، اذ أنها كانت تقع على رأس وادى الأردن وتشرف على ما حولها حتى بحيرتى طبرية والحولة .

ثم تقدم الصليبيان فحاصرا دمشق حصارا طويلا ، ولكن غزاة التركمان أصابوا من جندهما عددا عظيما ، وهطلت الأمطار مدرارا ، فآثرا العودة . واذا كانا لم يوفقا فى حملتهما عليها فانهما كسبا بانياس ، وهى ليست بالشىء القليل .

وبينما كان بوهيموند الثانى صاحب أنطاكية فى الطريق عائدا الى بلده عن طريق قليقية ، انقض عليه نفر من التركمان وقتلوه ، فأصبحت ابنته كونستانس وريثة للعرش ، وتولت أمها أليس أخت بولدوين الثانى الوصاية عليها . وأراد بولدوين الثانى أن يرغمها على الطاعة فسار الى أنطاكية وأجبر أليس على تسليم الوصاية له . ثم مات بولدوين الثانى وتولى فولك ، وكان من أمره مع أليس ما رويناه .

وكان زنكى فى أثناء ذلك يرتب أمور الموصل ويضم بلادها وأطرافها ، ويستعد لما عقد عليه العزم من تكريس حياته لتوحيد

العراق والشام ، وكانت هذه الفكرة قد اختمرت فى ذهنه مذ خاض معارك الحرب المقدسة الى جانب مودود وآق سنقر البرسقى، هداه الى ذلك حسه السياسى وايمانه وبعد نظره . وكان يرى أن الخطوة الأولى هى الاستيلاء على دمشق ، ولكنه كان يعرف أن أصحابها أشد لددا وبعدا عن الايمان بالوحدة من أن يقبلوا الدخول فى أمره ، ثم ان لهم — منذ أيام طغتكين — علاقات بعيدة بالصليبيين ، فاذا هو شد عليهم ألقوا بأيديهم الى الأعداء وضاع الغرض المقصود ، فاستأنى فى أمره ، ولم يشأ أن يعبر الفرات الا بعد أن يأخذ للأمر عدته .

لذلك قضى معظم شهور سنة ٥٢٤/١١٣٠ فى الموصل ، فقضى على المفسدين والواثبين فى سِنجار والرحبة ونصيبين وحران . وطلب اليه أهل حران أن يهاجم الرها وسروج ليقضى على تلك الامارة التى تهدد أملاكه ، ولكنه آثر التريث ، وكانت فى طبعه أناة وتقدير لمواقيت أعماله ، فاكتفى بمهادنة الرها وتأمين بلاده الجزرية منها ، ثم عبر الى الشام واستقر فى حلب .

ولم يكد يستقر فى حلب حتى كان تاج الملك بورى فى طريقه الى بانياس ليستعيدها ، فنفر فولك ملك بيت المقدس الى مهاجمة دمشق ليرغم بورى على الارتداد ، وتحرج مركز بورى فاستغاث

بزنكى . وكانت دمشق منذ حين حجر الرحى وميدان المنافسة بين الصليبيين ومجاهدى المسلمين ، وكان صاحبها طغتكين يحاور ويداور ، ولم تكن فى نفسه نسمة من ايمان ، ولكنه كان ذكيا واسع الحيلة ، وقد عز على نفسه أن ينضم الى جبهة الجهاد ، وفضل أن يمد يدا للصليبيين ويدا لحلب والموصل ، وحفظ الامارة لنفسه بذلك ما عاش . فاستقرت عزيمة زنكى على أن يضمها الى الجبهة المجاهدة ، ودبر الأمر تدبيرا بعيدا ، فلم يكد صريخ تاج الملك بورى يبلغه حتى سار لعونه .

واجتهد بورى فى أن يؤكد العهد مع زنكى مخافة أن ينزعه عن بلده ، فسار زنكى فى حذر شديد ، يقدر لرجله موضعها قبل الخطو تقديرا طويلا . وكان بهاء الدين سونج بن بورى لا يزال فى حماه ، فأمره أبوه بأن ينضم الى زنكى . وكان هذا يعلم خيانته وتآمره مع الأعداء ، فعول على اقصائه من الميدان . فلما ذهب سونج ليلقاه على مقربة من حماه أحسن لقاءه حتى اذا اطمأن قبض عليه ، ثم أغذ السير فدخل حماه وملكها (شوال ٥٢٣/ سبتمبر ١١٢٩) ، ثم تقدم نحو حمص لينزعها من يد صاحبها قرخان ، فحاصرها أربعين يوما دون نتيجة ، وأهل الشتاء فرأى أن يتركها الى فرصة أخرى ، وعاد الى حلب فى ذى القعدة ٥٢٣/ نوفمبر ١١٢٩ .

ثم خرج فى صيف ٥٢٤/١١٣٠ واتجه نحو أنطاكية ، والتقى مع جندها فى سلسلة من المعارك ولكنه لم يستطع أخذها ، فاتجه نحو حارم وحاصرها ، فعرض عليه أصحابها مالا لينصرف عنهم ، وكانت الجراحات قد كثرت فى جنده ، فأخذ المال وعاد الى حلب .

وفى العـام التالى (٥٢٦ / ١١٣١) اغتال الباطنية تاج الملك بورى ، وخلفـه ابنه شمس الملك اسماعيـل ، فتجددت آمال الصليبين فى الاستيلاء على دمشق ، وبدأ دى بور صاحب بيروت يتحرش بها ، ولكن شمس الملك اسماعيل أظهر من الاقدام مارد الأطماع عن بلده ، فقد أسرع نحو بانياس وانتزعها انتزاعا فى المحرم ٥٢٧/نوفمبر ١١٣٢ ، فريع الصليبيون لفقدها ، فقد كانوا يعلقون عليها آمالا كبارا . ثم مضى الى حمـاه فاستخلصها من أيدى رجال زنكى بعـد حصار قصير ، فتقدم فولك وهاجم حوران ، ورد عليه اسماعيل بالتوغل فى أرض مملكة بيت المقدس فآثر الفريقان السلامة وعاد كل منهما الى بلاده .

وكانت عينا عماد الدين متجهتين نحو دمشق لا يكاد ينصرف عن السعى فى ضمها الى بلاده ، اذ لم يكن من الميسور توحيد الجبهة الاسلامية الا اذا دخلت دمشق وما يتبعها حتى بانياس جنوبا فى يده . وقد وجد فى شمس الملك اسماعيل جرأة طمأنته

على مصيرها الى حين ، فقد كان هذا الشاب مقداما لا يرهب جموع الصليبيين مهمــا كثرت ، وكان يتبع خطتهم فى الهجــوم على بلادهم ارهابا لهم . ففى أوائل سنة ٥٢٨/١١٣٣ خرج فى جمعــه وأوغل فى أرض أنطاكية . وكانت شقيف أرنون بيد أمير عربى مهادن لأنطاكية داخل فى طاعتها ، فاتجه نحوه وهاجمه وانتزع منه البلد انتزاعا ردع الصليبيين ، ثم سافر فى جمع من التركمان وهاجم طبرية والناصرة وعكا وعاث فى أرضــها عيثا شديدا ، فرهبه أصحاب أنطاكية وطرابلس وأقصروا عنه وعن بلده ، وكان زنكى يعجب بشجاعته ، فتركه فى دمشق ، ولم ير تجديد السعى لأخذها .

غير أن شمس الملك اسماعيل كان فظا عاتيا ، وكانت يده ثقيلة على رجاله : يصادر أموالهم ويبالغ فى تعذيبهم لاستخراج المال منهم ، فأخذوا يدبرون عليه ، وأحس بحرج مركزه فى بلده فصالح الصليبيين وأصبح لهم حليفا ، فزادت نقمة الناس عليه واعتبروه خائنا مضيعا لأمور المسلمين . وكانت أمه زمرد خاتون فى مقدمة الناقمين عليه ، ويبدو أنه تهددها لما بلغه من علاقاتها مع رجل يسمى يوسف فيروز . ورأت الأم أن تعاجل ابنها قبل أن يعاجلها ، فجمعت أكابر البلد وحرضــتهم على ابنها ، وكان لها ابن آخــر يسمى

شهاب الدين محمود تحبه وترجو أن يصير الملك اليه ، وربما سعى اسماعيل فى هلاك أخيه ، فأسرعت الأم وعقدت العزم على قتل ابنها. ولم يجد اسماعيل حوله معينا أو ناصرا ، فقد كان قد نفّر الجميع، فاتجه فى محنته الى زنكى وكتب اليه يطلب منه القدوم لتسليم البلد له ، فزادت مخاوف نفر من أكابر البلد ممن كانوا يتمتعون بالسلطان فيه ، وعجلوا بالعمل ، وأعانتهم الأم فرصدت نفرا من غلمانها فاغتالوا اسماعيل ، وتولى مكانه أخوه محمود تحت وصاية أمه . وكان زنكى قد تحرك نحو البلد ، فلما بلغه موت اسماعيل رأى أن متابعة السير نحو دمشق قد تجعل أصحاب الأمر فيها يسلمون البلد للصليبيين ، فعاد الى حلب وأفلتت من يده فرصة تحقيق حلمه البعيد .

*

وفكر زنكى فى الاستيلاء على دمشق بوسيلة أخرى غير الحرب ، فأرسل يخطب زمرد خاتون الى نفسه على أن تنزل له عن حمص ، فقبلت ، وزفت اليه فى شوال ٥٣١ / يونيو ١١٣٨ وأخذ حمص . وأراد الرجل أن يثبت حسن نيته ، فأقام مملوكا من مماليك بيت بورى يسمى معين الدين أنر نائبا عنه فى حمص ، وضم اليه حصن بارين من أملاكه . ولكن أنر كان ثعلبا ماكرا ، فما هو

الا أن ابتعد زنكى عن حمص حتى عاد الى دمشق ، ودبر اغتيال الأمير الشاب شهاب الدين محمود فقتل فى أواخر شوال من نفس السنة ، ثم استقدم ابنا آخر لبورى هو جمال الدين محمود عامل بعلبك وجعله أميرا على دمشق . ومن ذلك الحين أصبح هـذا المملوك معين الدين أنر محور الحوادث فى دمشق . وقد آذى القضية الاسلامية أذى بالغا ، اذ أنه كان أنانيا متخونا لا تحرك نفسه عاطفة ، وقد شقى به عماد الدين شقاء بالغا .

وكان أول ما فكر فيه أنر هو محالفة الصليبيين ، فعول على ارسال سفارة اليهم ، واختار لذلك الكاتب الفارسى أسامة بن منقذ صاحب كتاب الاعتبار ، وكان أسامة — على طول باعه فى الأدب — شخصية قلقة لا تستقر على حال . خرج الى الدنيا من بيت من العفاة تمكنوا من قلعة شيزر عند تفكك الدولة السلجوقية وحسبوا أنفسهم فى زمرة الأمراء وأهل السلطان . ومنذ دخل الصليبيون الشام انضـووا تحت لوائهم فلم ينهضـوا لحربهم أو يتحدوا مع المجاهدين عليهم الا لماما .

وكان أسامة كثير الفخر بنسبه ، ولكن ملكاته لم تكن تعينه على ادراك ما سعى اليه من المكانة ، وقد اختلف مع عمه صاحب شيزر ، فتركها الى العراق ، ثم خدم عماد الدين زنكى تسع سنوات

دون أن يوفق الى شيء ، فانتقل الى دمشق ودخل فى خدمة معين الدين أنر ، وكان يده اليمنى فيما سعى اليه من الخلاف ثم التحالف مع الصليبيين ، وسفر له لديهم وعرض العروض المخزية التى سيأتى بيانها ، ثم زار مملكة بيت المقدس مرة أخرى فى صحبة أنر ، وكانت له صداقات متصلة مع رجال من فرسان المعبد (الداوية) أعدى أعداء المسلمين فى ذلك الحين ، ثم مضى الى مصر واشترك فى الفتن الكثيرة التى اجتاحت الدولة الفاطمية فى أواخر سنواتها . وبارح مصر بعد عشر سنوات ، ودخل فى خدمة نور الدين محمود نحو احدى عشرة سنة ، أصيب الشام خلالها بزلزال شديد خرب شيزر فيما خرب من البلاد وأهلك عددا كبيرا من أهلها تحت الهدم . ثم اعتزل عشر سنين فى حصن كيفا ، زار بعدها دمشق ليتقرب من صلاح الدين ، وظل فيها حتى توفى عام ٥٨٤/١١٨٨ وقد عمر ثلاثا وتسعين سنة .

ومع أن هذا الرجل عاش عمره كله فى ظلال محنة الصليبيين — فقد دخلوا الشام بعد مولده بأربعة أعوام وتوفى هو بعد حطين بعام واحد — الا أن عاطفته لم تحفزه الى نصرة قضية العروبة والاسلام الا فيما ندر . بل كان من المتعاونين مع الأعداء العاملين على تأييد سلطانهم ، وهذا هو الذى حببه الى المستشرقين

فعنوا بكتابه « الاعتبار » عناية لم يظفر بها مؤرخ يفضله عشرات المرات كابن الأثير — وكان معاصرا له — فنشره هارتويج ديرنبور وترجمه الى الفرنسية ، وكتب عنه فيليب حتى كتابا ضخما . وكان الرجل متظاهرا بالعلم لا يخرج من بلد الى بلد الا حمل معه على الجمال مكتبة بلغت فى بعض الأحيان أربعة آلاف مجلد ، حتى أراحه الله منها فغرقت فى البحر عندما أرسلها الى عسقلان ، عند مسيره من مصر . وأسلوبه — رغم هـذه الآلاف من الكتب — ضعيف لا بلاغة فيه ، وشعره عادى لا يصل الى مرتبة الجودة ، وهو بعد لم يوفق فى حياته فى شىء طلبه .

أما الذى عرضه أسامة هذا على فولك باسم سيده أنر فهو أن تؤدى دمشق لمملكة بيت المقدس جزية قدرها عشرون ألف قطعة ذهبية كل شهر ، وتسلم قلعة بانياس فى مقابل قيام فولك بدفع عماد الدين زنكى عن دمشق ، أى وضعها تحت حمايته ، وهو عرض لم تسمح به نفس أنر لأخيه فى العقيدة عماد الدين ، ومع ذلك فقد عد أسامة ذلك نصرا سياسيا ، ثم عاد أسامة الى بيت المقدس فى صحبة أنر حيث استقبلهما الصليبيون استقبالا كله رياء وتصنع . وقد وصف أسامة رحلته تلك فى كتابه وصفا يقول المستشرقون انه حافل بالصور المشرقة التى تجلو لنا صفحة من الحياة الاجتماعية فى بيت المقدس فى ذلك الحين .

وقد أخلص أنر للصليبيين اخلاصا لم يبد منه لعقيدته واخوانه، فكان ذلك دافعا لنور الدين الى تخفيف الوطأة عن دمشق ، فقد خشى أن يؤدى توالى طلبه عليها الى أن يسلمها هذا المملوك العجوز العقور للأعداء ، واكتفى من ذلك الحين بضربات سريعة فيما حولها ينوش فيها ما يجاورها من أرض مملكة بيت المقدس . وقد أدى أنر لمملكة بيت المقدس بخيانته خدمة لم تحلم بمثلها ، فقد أمنت حدودها الشمالية واتسع وقت صاحبها للعناية بتحصين حدوده من ناحية مصر وتأمينها وللاهتمام بالجزء الجنوبى من ممتلكاته ، مما أعان الصليبيين فيما بعد على غزو مصر وجعل بعضهم يفكر فى المسير الى الحجاز . فأعاد فولك بناء عدد من الحصون على مقربة من عسقلان ، واهتم بأيلة وحصنها وابتنى قلعة الكرك شرقى البحر الميت الى الجنوب ، فأصبحت هى والشوبك درعا يقى بيت المقدس من هذه الناحية ، وفى قلعة الكرك هذه استعد رينو دى شاتيون لغزو الأراضى المقدسة الاسلامية أوائل أيام صلاح الدين ، مما جعل البطل الكبير يصمم على قتله بيده عندما وقع فى أسره .

وهكذا أتاح معين الدين أنر للملك فولك أن يقضى أواخر أيامه فى هدوء . وعندما كان يجود بنفسه فى ربيع الثانى سنة ٥٣٨/

نوفمبر ١١٤٣ اثر كبوة من جواده هشمت دماغه ، شعر بالراحة اذ وهبته المقادير حليفا سفيها كهذا المملوك معين الدين أنر الذى طالت حياته فى شقاء روحه وأهل دينه . وقد صارت أمور مملكة بيت المقدس من بعده الى زوجه مليزاند ، فاختارت ابنه الأكبر بولدوين شريكا لها فى العرش ، واختارت مستشارا لها صديقا مقربا من أصدقائها هو منسى دى ايبرج صاحب الرملة وزوج هوديرنا بنت بولدوين الثانى ، فأسخط ذلك رجال البلاط ولكن الظروف لم تسمح لهم بالاسترسال مع السخط الى مداه .

ذلك أن عماد الدين زنكى عندما أقصر عن دمشق مضى يفكر فى وجهة أخرى يوجه اليها ضرباته ، وكان منذ حين ينظر الى امارة الرها الموغلة فى أرض المسلمين ويدبر الرأى فى طريقة للقضاء عليها . وقد كان حرصه على ضم دمشق انما هو تمهيد لجمع الكلمة وتأمين حدوده الجنوبية والشرقية قبل أن يضرب ضربته هذه . وكان الرجل طويل الفكرة كتوما لا يعلن عما ينتويه الا بعد أن يتخذ الأهبة له كاملة . وقد أتاح له موقف أنر فرصة تجميع قواه وتوجيهها وجهة أخرى ، وبينما هو يرسم الخطة ويعد العدة اذ هيأت له الأيام ظروفا طيبة ومواتية لتحقيق أحلامه .

ذلك أن الامبراطور البيزنطى يوحنا كومنين الثانى توفى فى

رمضان سنة ٥٣٧ / ابريل ١١٤٣ ، وكان يوحنا داهية واسع المطامع ، غزا قليقية وانتزعها من امارة أنطاكية ثم حاصر البلد بنفسه وكاد ينتزعها من يد صاحبها لولا أن عاجله الموت ، وكانت جيوشه تنوش امارة الرها وآماله تحوم حولها . فلما مات خلفه أخوه مانويل وكان رجلا قادرا سيكون له دور عظيم أيام نور الدين محمود ، ولكنه كان يؤثر الحيلة والسياسة ، وقد شغلته عن الشام أمور الامبراطورية أوائل حكمه ، فطمع فيه رايموند صاحب أنطاكية ، وبعث يطلب اليه الانسحاب من قليقية ، وتحالف مع جوسلين الثانى صاحب الرها ، وكان جوسلين منهوك القوى بسبب موالاة زنكى للحملات عليه ، اذ كان سوّار — أو أسوار — نائب زنكى على حلب لا يكف عن توجيه الحملات الى بلاده .

وكانت سياسة زنكى هى التمهيد للغزو وانهاك قوى العدو بالحملات المتلاحقة ، فاهتم أعداؤه بتقوية حصون بلادهم ، وشيئا فشيئا تحولت الحرب مع الصليبيين الى حرب حصون ، وحرب الحصون — كحرب الخنادق — طويلة المدى ثقيلة التكاليف ، يفيد منها من كان أكثر مددا وأسرع قدرة على تعويض الخسائر فى الأرواح ، وكان زنكى هو الأقوى من هاتين الناحيتين ، حتى لقد أنهك قوى جوسلين الثانى وأوقع اليأس فى قلبه ، فمال الى

الدعة وانصرف الى ما كان يميل اليه من شهواته ، وكان بطبعه ضعيفا أمام نزعات نفسه مسرفا فى نزواته ، مما كلفه أفدح الثمن بعد ذلك بقليل .

وقد وجد جوسلين الثانى أن لا خير فى محالفة صاحب أنطاكية فآثر موادعة سوّار وعقد معه هدنة ، فغضب صاحبه رايموند وتحول الأمر بينهما الى عداء . ثم ان جوسلين أساء الى النصارى اليعاقبة — أى أهل البلاد — فى أنطاكية وأهان مقدساتهم ولم يعترف ببطريقهم أثاناسيوس الثامن ، ثم غصبهم أثرا دينيا كانوا يتبركون به هو كف مار برسومة وكانوا يحفظونه فى كنيستهم الكبرى ، فامتلأت قلوبهم حقدا عليه .

*

هنا أدرك زنكى أن فرصته للقضاء على الرها قد حانت ، فجمع قواده وجنده وخرج من الموصل متجها نحو ديار بكر فضمها الى بلاده ، وكان ذلك حيلة منه أراد بها أن يخدع جوسلين عن هدفه . وقد جازت الحيلة على جوسلين واطمأن باله اذ وجد خصمه يتجه شمالا بغرب بعيدا عن أراضيه ، فمضى الى تل باشر — وكانت مقامه المحبب الى نفسه — وأقام يلهو مع نفر من بطانته من السوقة ما بين اسكاف وحائك وبزاز . وبينما هو منصرف الى لهوه

اذ عطف زنكى غربا وأغذ السير وظهر أمام أنطاكية بجيش كثيف تؤيده فرق من فرسان التركمان الكاسرة . وريع جوسلين للنبأ ، ولكنه لم يجرؤ على المسير للقاء زنكى ، فأرسل يستنجد برايموند صاحب أنطاكية والملكة مليزاند صاحبة بيت المقدس .

أما رايموند فلم يلب له نداء ، وأما مليزاند فقد أسرعت بتعبئة جيش قودت عليه صاحبها منسى ، واشتد الحصار على البلد ، وتضخم جيش زنكى بمن انضم اليه من المتطوعة من شمال العراق . وتولى الدفاع عن البلد هيو (هيج) أسقف لاتين البلد يشاركه باسيل أسقف يعاقبتها ويوحنا أسقف الأرمن ، وقد مال باسيل ويوحنا من أول الأمر الى التسليم فرفض هيو واستمر فى الدفاع .

وقد زعم وليام الصورى — مؤرخ اللاتين — أن هيو استبسل فى الدفاع وأنفق فيه من ماله ، والحقيقة أنه بخل بما عنده ، وكان قد جمع المال وعدده . وفى ليلة عيد الميلاد ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩/١١٤٤ انهار جانب من السور واندفع المسلمون داخل البلد كالسيل ، فتهارب السكان فى فزع نحو قلعة البلد ، فاذا هيو قد أغلق أبوابها من دونهم ، فهلكت منهم آلاف فى فوضى الزحام ، وكان هيو نفسه من بين القتلى . ومضى الجند يقتلون وينهبون ، فأسرع زنكى بدخول البلد وكف يد الجند عما هم فيه ، ولم يستعمل

القسوة الا مع اللاتين ، أما الأرمن والسريان والروم فقد أمنهم ، اذ كان يعرف أنهم فى ضنك مع هذه الطغمة الباغية من الدخلاء .

وأسرع زنكى فاستولى على سروج ثانية الحصون التى كانت لهذه الامارة شرقى الفرات ، ولم يبق من هذه الامارة الصليبية غير حصون متناثرة غربى الفرات هى تل باشر ودلوك ومرعش وعينتاب والبيرة . وظل جوسلين الثانى فى تل باشر ، ولكن امارة أنطاكية الصليبية زالت من الوجود .

بهذا قضى عماد الدين زنكى على أكبر الامارات الصليبية فى الشام وأخطرها بعد بيت المقدس ، وأدى بذلك خدمة لقضية الوحدة الاسلامية لا تضارع الا بما فعله نور الدين وصلاح الدين فيما بعد . فقد قضى على ذلك الوتد الذى كان يمتد شرقى الفرات حائلا دون الاتصال المباشر بين الموصل وحلب ، واتصل أتراك ايران بأتراك آسية الصغرى ، وانقطع أمل المذبذبين من أرمن هذه النواحى فى الكيد لجيرانهم والتدبير عليهم ، وتمهد الطريق للعمل الحاسم .

ولقد طربت شعوب العرب والاسلام للنبأ العظيم ، وجرت به البشرى من بلد لبلد فارتفعت الهامات وطابت النفوس واشرأبت الى الجهاد . أما الرؤساء وأصحاب الأمر فكأنما ساءهم النبأ

وأوجسوا منه خيفة ، ولقد بلغ الخبر بغداد فما طرب له خليفة ولا حركت البشرى به سلطانا ! بل ان شابا من أبنـاء السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كان تحت وصاية زنكى — وكان هذا يكرمه حتى كان لا يخاطب الناس الا باسمه — زين له الغرور قتل نصير الدين جقر نائب زنكى فى الموصل ، فدس عليه نفـرا من غلمانه فاغتالوه ، وكان ذلك بعد استيلاء زنكى على الرها بأيام ، فساور نفسه الخوف من أن يكون ذلك فاتحة فتنة ، ولكن القاضى تاج الدين يحيى الشهرزورى ، أخا كمال الدين الشهرزورى ، عالج الأمر بحكمته وسجن الشاب ، وقبض الناس على الغلمان وفتكوا بهـم .

وبلغت الأنباء زنكى فأرسل زين الدين على بن بكتكين نائبا له فى الموصل وعاد الى الغزو ، فجهز جيشا لحصار قلعة جعبر ، وكانت ذات موقع عسكرى خطير ، اذ أنها تقوم عند أوفق نقطة لعبور الفرات من الشام الى الجزيرة الفراتية .

ومضى زنكى ليحاصر قلعة جعبر ، وكان رأيه قد استقر على استنزال كل المستبدين من أصحاب البلاد داخل أملاكه « للحزم الذى كان عنـده والاحتياط » كما يقول ابن الأثير فى تاريخ الأتابكة ، وأقام محاصرا للقلعة ، فبينما هو نائم فى خيمته ذات ليلة

اذ دخل عليه جماعة من غلمانه ، أوغرهم عليه خصومه فوثبوا عليه وطعنه كبيرهم طعنة نجلاء ، توفى منها فى اليوم التالى ، وكان ذلك فى السادس من ربيع الثانى سنة ١٤/٥٤١ سبتمبر ١١٤٧ .

بهذا اختفى من الميدان ذلك البطل الذى واصل جهاد مودود وايلغازى وآق سنقر البرسقى وبلك ومهد الطريق لنور الدين ، وقد أدركته المنية فى ميدان الحرب فحقت له الشهادة ، ولهـذا يسمى عند مؤرخى العصر بأتابك الشهيد ، وقد ولد سنة ٤٧٧/ ١٠٨٤ وتوفى سنة ١١٤٦/٥٤١ ، أى أن عمره عند وفاته كان أربعا وستين سنة هجرية ، وكان رجلا مهيب الطلعة واسع العينين أقرب الى الطول .

ولم يكن زنكى محاربا قادرا فحسب ، وانما كان سياسيا بعيد النظر حسن التقدير لا يخطو خطوة الا بعد تدبير وحساب ، وكان يرسم خططه على مهل ويسير فى تنفيذها فى أناة ، ولم تكن له وجهة منذ تولى أمور الموصل الا جهاد الصليبيين ، وفى ميادين الجهاد معهم قضى أيامه . وكان يرى موالاة حربهم واقلاق راحتهم، ولهذا فقد هيأ قوة ضاربة عظيمة الكفاية وجعلها فى حركة دائمة ، فاما قادها بنفسه أو جعل عليها أحد قواده ، فأنهك قوى الصليبيين وأوقع الرعب فى قلوبهم ، ولولا عناد أصحاب دمشق لبلغ من

التوفيق أكبر مما بلغ ، فقد كانت خطته بعد دمشق هى القضاء على امارة طرابلس حتى يفصل أنطاكية عن بيت المقدس . ولم يكن يرى مهاجمة مملكة بيت المقدس حذرا مما يجر اليه ذلك من خوف الغرب الأوروبى ونهوض ملوكه للعدوان على الشام من جديد ، ولهذا فقد آثر الاستيلاء على الامارات الثلاث الأخرى ، وقد ورث ابنه نور الدين عنه هذه السياسة ، وكانت نتيجة جهوده ضعف مملكة بيت المقدس وقعودها عن مهاجمة دمشق أو توسيع رقعتها فى اتجاه الشمال .

وكان الرجل عارفا بشئون الجنــد خبيرا بسياستهم ، وقد اجتمعت حوله ألوف كثيرة من العسكر ، بعضهم نظامية كالعرب والأتراك والأكراد ، وبعضهم غير نظامية كالتركمان والبدو ، وكان يجتهد فى أن يضبط أمور هذه الجموع بحكمة القائد الماهر . وقد كسب حب جنده أجمعين ، وتمكن من أن يســيرهم كيفما شاء ويضبطهم حتى فى أحرج الأوقات ، فعندما اقتحم جنــده الرها وكادوا يأتون على ما فيها كف يدهــم وحافظ على البــلد لأن « تخريب مثله لا يجوز فى السياسة » كما قال . وكان على علم بشئون سكانها قبل أن يدخلها ، ولهذا فقد أكرم السريان والروم والأرمن ، لأنهم مواطنون فى الدولة الاسلامية الكبرى من زمان

طويل ، فهم اخوان مواطنون ، أما اللاتين فدخلاء استقروا مع المعتدين ، ولهذا فقد اشتد عليهم . وبلغ من اكرام زنكى للسريان أن زار كنائسهم المرة بعد المرة وأذن لهم بوضع الأجراس فى كنائسهم ، فعادت اليها بعد أن كان اللاتين قد حرموا ذلك عليهم .

وكان زنكى رجلا تقيا مواظبا على الفرائض ، وكانت فيه عدالة تستوقف النظر ، حتى لقد غضب على رجل من كبراء أمرائه هو عز الدين أبوبكر الدبيسى ، لأنه غصب دارا ليهودى وسكن فيها ، قال ابو شامة ان زنكى « نظر الى الدبيسى نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ، ودخل البلد فأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد ، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : ولقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبنا ليقيموها ، ونصبوا الخيام ، وخرج من ساعته » .

وكان يرى أن الجندى ينبغى أن يظل جنديا ، ولهذا فقد كان ينهى جنده عن اقتناء الأملاك ويقول : « مهما كانت البلاد لنا فأى حاجة لكم فى الأملاك ، فان الاقطاعات تغنى عنها ، وان خرجت البلاد عن أيدينا فان الأملاك تذهب معها . ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوا أملاكهم » ،

واشارته الى الاقطاعات اشارة خبير بالنظام المالى لعصره ، لأن الاقطاع كان يعطى مقابل القيام بخدمة يؤديها المقطع للدولة ، فهو أشبه بالراتب ، فاذا اعتمد الرجل على الاقطاع دام ولاؤه وحرص على بقاء الدولة ، أما اذا اقتنى الأملاك فقد استقل عنها ماليا وعاش على خراج أملاكه ، فقلت حميته وحرص على رعاية أمواله ، وقل اهتمامه بشئون الدولة .

وكان اذا فتح بلدا على أطراف أملاكه أنزل فيه جندا وجعل كل ما يستخلصونه من الصليبيين ملكا لهم ، فكان ذلك حافزا لهم على الجد فى الحرب وسد الثغور .

ونختم تقدير زنكى بعبارة رواها أبو شامة مقتبسا كلام ابن الأثير ، قال : « وأما شجاعته واقدامه فاليه النهاية فيهما ، وبه كانت تضرب الأمثال ، ويكفى فى معرفة ذلك جملة أن ولايتـه أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب : الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها ، بيت سـقمان (الأرتقى أصحاب ديار بكر) وركن الدولة داوود صاحب حصن كيفا ، وابن عمه صاحب ماردين ، ثم الفرنج ، ثم دمشق . وكان ينتصف منهم ويغزو كلا منهم فى عقر داره ويفتح من بلادهم ، ماعدا السلطان مسعود ، فانه كان لا يباشر قصده ، بل كان يحمل

أصحاب الأطراف على الخروج اليه ، فاذا فعلوا عاد السلطان محتاجا اليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته ، فيكون الحاكم على الجميع ، وكان يداريه ويخضع له » .

وهذه الملاحظة الأخيرة من ابن الأثير أدل على زكانة زنكى من كل بيان ، فقد كان سلطان السلاجقة قد وصل الى حال من الضعف تغلب عليه معها أمراؤه ، حتى كانوا يقبلون الرشا وينقلون الولايات من رجل الى رجل على هواهم ، فكان زنكى يرغمهم على الاعتراف بقدره بهذا الأسلوب . ولم يعد الصواب فيه ، فقد حدث أن عزلوه عن الموصل وحلب وهو فى عنفوان الجهاد وجعلوا مكانه دبيس بن صدقة ، فشغله ذلك عن العمل المثمر حينا طويلا . وبلغ من سوء هذه الحاشية أنهم لم يثبتوه قط فى ولاية الموصل وحلب ، بل كان أتابكا — أى مربيا — لاثنين من أبناء السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، وكانا غلامين سفيهين ، فكان هذا البطل الجليل يعمل ويفتح باسمهما ، وقد رأيت ما فعله أحدهما بنائبه على الموصل نصير الدين جقر ، ولهذا فقد كانت له العيون والأرصاد فى مقر السلطان يطالعونه بما يتم فيه فى ليل أو نهـار .

— ٦ —

ظهور نور الدين ..
والحملة الصليبية الثانية

والنصرُ دانٍ ، وخيل الله مقبلة ترجو الشهادة فى الهيجاء ، وتغتنمُ
صابَ الغمامُ عليهم والسهامُ معاً فما دروا أيّما الهطّالةُ الدِّيَمِ

« محمد بن نصر القيسرانى »

ظهر نور الدين محمود على مسرح الحوادث فى وقت اشتدت فيه الحاجة الى مثله ، فوجد الميدان أمامه مهيأ ليظهر مواهبه ، ومن نعم الله على صاحب المواهب أن يظهر فى وقت يحتاج الناس فيه الى ما عنده ، وأن يجيء وكأنه دواء اشتدت حاجة المريض اليه ، فيعظم به النفع وتنصقل مواهبه بالعمل وينشرح صدره بالتوفيق ، وتصفو نفسه بتقدير الناس اياه . وكأين من عظيم أتى والزمان مدبر ، أو ظهر فى زحمة من أمثاله ، أو أقبل وقد انقضت الحاجة اليه ، فأصبحت حياته فى الحالات كلها وكأنها تطفيف لكيل ، وربما

وقعت المنافسة بينه وبين أضرابه فضاعت جهوده وجهودهم ، وأتت البلايا من وجوه المكاسب .

وقد ولد نور الدين محمود فى شوال سنة ٥١١/فبراير ١١١٨، وهو ثانى أولاد عماد الدين زنكى ، اذ كان أصغر من سيف الدين غازى بقليل ، وكان لزنكى ابنان آخران ستلقاهما بعد قليل ، هما : قطب الدين مودوذ ونصرة الدين محمد . وقد تأثر بنو زنكى جميعا بما كان لأبيهم من خلال وفضائل ، فكانوا جميعا من رجال الجهاذ وفرسانه ، على تفاوت فى ذلك بينهم ، فكان نور الدين أطولهم باعا فى ذلك ثم يليه سيف الدين فنصرة الدين فقطب الدين ، ولهذا كان نور الدين أحب أبناء زنكى اليه وأكثرهم ملازمة له وتأثرا بايمانه بضرورة توحيد البلاد وضم الصفوف للخلاص من المعتدين .

وقد كان نور الدين مع أبيه فى حصار قلعة جعبر عندما قتل ، وكانت سنه اذ ذاك ثلاثين سنة هجرية ، وقد أنفق سنوات طويلة مع أبيه فى ميدان الحرب والجهاد ، وتعلقت نفسه بالسير على آثاره . وبينما اتجه أخوه سيف الدين غازى نحو الموصل واجتهد فى اقرار أمره فيه ، مضى نور الدين نحو القاعدة الثانية من قواعد ملك زنكى وهى حلب واستقر فيها ، ولم يكن ذلك مجرد مصادفة

بل هو اختيار طبيعى : اختار كل من الأخوين الجبهة التى سيعمل فيها . ويذهب المؤرخون الى أن الذى أشار على نور الدين بذلك وأعانه عليه كان أسد الدين شيركوه ، وربما كان ذلك صحيحا ، ولكنه ما كان ليتم لو لم يكن نور الدين قد أراده ، واستقرت نفسه عليه .

ومن حسن حظ نور الدين ، وحظنا معه ، أنه أتى فى أوانه ، وجمع الخلال التى كانت الظروف تتطلبها من كل ناحية ، وتمكن هو من أن ينتفع بهذه الخلال على أحسن وجه ، فعمت البركة به وشمل النفع منه وزادت أعماله فى قيمة جهود من سبقوه . فقد كان جميع من ذكرنا من أبطال الوحدة والجهاد محاربين قضــوا حياتهم فى ميدان الشرف يوالون الضربات على الأعداء كأنهم مطارق من حديد تزعزع أسسهم وتوهى بنيانهم ، فقضوا على المئات بعد المئات من أولئك المغامرين ، وأتوا على جيليهم الأول والثــانى وألجأوا الثالث الى التحصن وراء ما بقى لهم من معاقل ، وهد عماد الدين زنكى ركنا من أركانهم الأربعة فهاضت النكبة جناحهم وريعوا روعا شديدا واختبأوا وراء الأسوار ، وبعثــوا يطلبون الأمداد والنجدات .

ودلت الدلائل على أن الأوان قد آن للخروج مرة أخرى من

حرب الحصون الى حرب الميدان ، وكان هذا من صالح العرب والاسلام ، لأن حرب الحصون مخربة للزروع والحقول قاضية على الزراع مؤذنة بالخراب . والمقاتل الذى يخرج لحصار حصن يبدأ أول ما يبدأ بالقضاء على المحاصيل فى الحقول وتدمير القرى العزلاء واحراقها وقتل من فيها ، ويعلم الله كم من قرية فى الشام خربت وباد أهلها أو أسرع الناجون منهم الى أقرب بلد محصن يستترون وراء أسواره . ولم يقتصر الأمر على القرى بل تعداه الى المدن ، فخرب منها ما قدر الأعداء عليه ، ولم يبق الا المراكز الرئيسية ذات المواقع العسكرية فقد زادت حصانة ومنعة .

واهتم كل من الجانبين بتقوية أسوار ما وقع له من هذه المراكز ولكنها هى الأخرى كانت تتهدم بتوالى الحصار وفعل آلاته ، من أبراج خشبية تنصب على مقربة منها ليقاتل المحاصرون من أعلاها ويعمل النقابون على فتح الثغرات فى الأسوار من أسفلها ، وكباش هادمة ، وهى قطع ضخمة من الحديد تركب فى نهاية عمود ضخم من حديد أو خشب ، ثم يوضع العمود على روافع ينزلق عليها ، ولا يزال الناس يجرونها ثم يصدمون برأسها حائط الحصن حتى يتزعزع ، ومن نيران توقد خلف الجدران وتغذى بالخشب والزيت حتى تحترق الحجارة وتتفتت ، ومن سوائل محرقة من النفط

والكبريت يبل بها القطن والكتان وتدس فى ثغرات السور فتتفجر وتوسع الفتحات وربما هدمت جدار الحصن ، هذا الى المنجنيقات الضخمة التى ترمى بقطع ثقال من الحجارة أو الحديد على السور أو داخل البلد ، فتهدم الأول وتهيل البيوت على أهلها فى الثانى ، وقد تلف الحجارة فى قطع من القماش المنقوع فى النفط وتوقد وترمى فتحدث الحرائق ، وقـد تلقى الخرق المتقدة نفسها وقد كورت كورا كبيرة فتشب النار حيثما وقعت ، الى غير ذلك من آلات التدمير والتخريب .

وكلما تقدمت السنون بالحرب الصليبية زادت هذه الآلات شدة وبأسا حتى أصبحت الحصون لا تكاد تقف أمامها ، وقد رأينا كيف صمدت عسقلان أمام الحصار أوائل سنوات الصليبيين فى الشام ، وسنراها بعد قليل تستسلم بعد أسابيع . وكانت هذه الحرب كلها تدور فى بلاد العرب والمسلمين ، فالخسارة كلها عليهم ، وكان من الضرر البالغ أن تستمر الحرب على هذه الصورة ، وكان لابد أن تعود مرة أخرى حرب ميادين ، وللعرب فيها الكفة العليا فى ذلك الدور الذى نحن بصدده ، فلديهم من الرجال أمداد لا يملك الصليبيون مثلها ، وبلادهم بعيدة وتعويض من يموت منهم عسير .

وقد كانت حرب الحصون أصلح ما تكون للفترة الماضية ، فان أمر العرب كان مفرقا ، وما كانوا يستطيعون جمع الجموع الكثيرة لحرب الميادين . وكان التحصن وراء الأسوار — مع ضرره على الزمن الطويل — أقمن بايقاف العدو أو تأخير تقدمه ، وأما الآن ، وقد هبت رياح الوحدة وأخذت الصفوف تتراص والجموع تتوالى ، فحرب الميادين والمواقع أجدى علينا وأقطع لنفس العدو وأسرع نذيرا بآخرته .

ولم تقتصر حركة التجميع التى قادها من ذكرنا من الأبطال على جمع الرؤساء وما لديهم من قوات ، بل نهضت بهمم الناس ورفعت قواهم المعنوية فخرجوا الى الميادين أرسالا ، فما يكاد النفير يدعو لحملة حتى تنثال جموع المطوعة انثيالا ، بعضهم من أهل البلاد والبقية من أجناس اسلامية عفية من الترك والأكراد والتركمان ، وقد رأينا كيف تضخم جيش زنكى عندما قام بضربته القاضية للرها ، فقد بلغ من كثرة المتطوعين والمجاهدين أن كاد يعجز عن ضبط نظامهم ، وبعد لأى ما كف يدهم عن مدينة الرها بعد استيلائه عليها .

وعسى من يسأل : كيف أتيح لأولئك الصليبيين أن يصمدوا هذا الصمود الطويل مع أن مجموع ما وصـــل منهم مع الحملة

الصليبية الأولى لم يزد على مائة ألف نصفهم من الحجاج والمتطوعين والنساء والأولاد ، أى من غير العسكريين ؟ كيف قتلت منهم ألوف بعد ألوف وبقيت منهم مع ذلك أعداد ظلت تحمى ما بأيديهم وتوجه الى المسلمين الضربات ؟ بل كيف وصلت قبيل قدوم عماد الدين زنكى الى السيطرة على الشام كله عـدا مدينـة حلب وما يتبعها ، فاذا بارحنا هذه البلاد القليلة لم نجد الا خاضعا لهم أو مؤديا لهم جزية ؟

والحقيقة أن الأمداد لم تتوقف عن الوصول من أوروبا وصقلية يوما ، وهذه الأمداد اما حملات صليبية مصغرة ، تقذف الى الشرق بألفين أو ثلاثة آلاف من المقاتلين دفعة واحدة ، أو جماعات من الحجاج المتحمسين تنضم الى الجيوش ، أو أفراد من الفرسان يخرجون الى بلادنا لتجريب حظهم والاشتراك فى غنائم الحرب الدائرة . ومن المفيد أن نقف هنيهة عند هذه الناحية ، فهى عظيمة الأهمية بالنسبة لما يلى من الأحداث :

لم يتوقف مدد المقاتلين من الغرب عاما واحدا ، فقد انفتح باب الشرق للمغامرين الأوربيين من كل نوع . صحيح أن عدد من وفد الى الشام من البارونات والفرسان الرسميين — أى الذين تدربوا تدريبا كافيا وحصلوا من الملوك والكنيسة على درجة فارس —

فيما بين الحملات الصليبية الكبرى كان قليلا ، ولكن فرسان الدرجة الثانية المعروفين فى الحوليات الصليبية باسم السرجندية (وهو معرب لفظ سيرچانت) كان عظيما ، وكان تيارهم الى الامارات الصليبية متصلا منذ البداية ، وكان أولئك السرچندية يتولون أهم الأعمال الحربية تحت قيادة الفرسان والبارونات ، وكانت تنضم اليهم ، بصورة متصلة أيضا ، جماعات من المقاتلين .

وكان المفروض أن كل أوربى يصل الى الشام انما يصل للاشتراك فى حرب المسلمين ، فيما عدا مهاجرة الجمهوريات الايطالية : البندقية وپيزا وچنوا وأمالفى ، فقد كانوا يفدون تجارا ويسكنون أحياء يقطعهم اياها الأمراء الصليبيون ، ويؤدون للامارات بهذا خدمات ذات أثر مباشر على مجهودهم الحربى . وكان أولئك الوافدون جميعا يقطعون الأراضى ليعيشوا على ريعها ، وسواء أكانت الأرض المقطعة ملكا لعربى هاجر أمام الزحف الصليبى أم بقى فى مكانه ، فقد نقلت الادارة الصليبية ملكيتها الى المهاجر . وذلك كله يذكرنا بما فعله ويفعله الصهيونيون فى فلسطين . وكما ظل الصليبيون فى بلادنا قوة احتلال عسكرى دون أن يضرب لهم فى الأرض جذر أو يمتد لهم بين سكانها عرق ، فكان ذلك من أقوى أسباب ضعفهم ، فكذلك الصهيونيون

اليوم — رغم كل ما يزعمون من حق « تاريخى » فيما يحتلونه من البلاد — لا زالوا قوة احتلال عسكرية لا تربطها بالأرض التى تستقر عليها صلة أو بأهلها واشجة ، وذلك أيضا من آكد أسباب ضعفهم ، وسيكون فى القريب من أقوى أسباب زوالهم وتحرير البلاد منهم باذن الله .

وقد أصهر عدد من مهاجرى الصليبيين الى المسيحيين المحليين من الأرمن والسريان وغيرهم ، ولكن ذلك الصهر لم يكن واسع المدى ولا ظاهر الأثر . وانضمت اليهم كذلك أعداد من شذاذ الترك والتركمان فى نواحى آسـية الصغرى — وكانت الدولة البيزنطية قد سبقتهم الى ذلك ويسمون فى تواريخها بالتركوبولى — ولكن الصليبيين لم يعتبروا التركوبولى جندا مساويا لجندهم ، بل زعانف وأذنابا ، على أنهم أدوا لهم مع ذلك خدمات جليلة .

ولا يستطاع احصاء أعداد الفرسان والسرچندية الذين هاجروا الى الشام وانضموا الى قوات الصليبيين ، ولكننا نستطيع القول بأن مئات منهم كانت تصل كل عام ، بل وصلت فى سنة ٥٩٤/١١٠١ دفعة كبيرة من بضعة آلاف ، هلك الكثيرون منهم فى الطريق ، وفى عام ٥٢٣/١١٢٩ ، وبعد اعتراف الكنيسة بهيئة فرسان المعبد (الداوية) سافر رئيسهم هيو دى پاين وطاف بانجلترا واسكتلندا

وفرنسا وعاد ومعه بضع مئات من خيرة فرسان الغرب الأوروبى . وحدث مثل ذلك بعد أن تحولت هيئة الرهبان المعروفة باسم رهبان النزل (هوستال أو هوسپتال) الى فرقة دينية عسكرية تشترك فى حرب المسلمين . وقد تم هذا التحول فى تاريخ تلك الجماعة على يد فارس فرنسى يسمى رايموند دى ليپوى فى عام ٥١١/١١١٨ ، فقد ضم اليها قطعة طيبة من الفرسان ، انضافت اليهم جماعات أخرى وفدت من الغرب استجابة لدعوة البابا ، الرئيس الأعلى للهيئة . وتعرف الجماعة عند العرب باسم الاسبتارية، وكان لها ، الى جانب الداوية ، أبعد الأثر فى الحروب مع المسلمين، وخاصة أيام نور الدين وصلاح الدين .

ولنضف الى ذلك كله من كانوا ينضمون الى جيوش الامارات الصليبية من الحجاج وكانوا آلافا كثيرة ، وكانوا يقاتلون فى حمية المتحمس لدينه ، ولهذا فقد كان لهم أثر واضح فى الصراع بين الصليبيين والعرب على مصير الشام .

*

ظهر نور الدين فى الميدان وقد بلغ الصراع بين الاسلام والنصرانية فى حوض البحر الأبيض مداه ، فقد كانت المعارك دائرة على أرض الأندلس بين مملكتى ليون وقشتالة وامارة

قطلونية من ناحية ، والأندلسيين والمرابطين فالموحدين من ناحية أخرى . فبعد أن قام المرابطون بدورهم المجيد وأوقفوا تقدم الاسبان من الشمال بانتصارهم فى موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦/٤٧٨ تسلم الموحدون الراية منهم من منتصف القرن الثانى عشر الميلادى تقريبا — وهو نفس الوقت الذى ظهر فيه نور الدين — ومضوا يذودون عن حمى الاسلام فى قوة وحمية ، وظهر من سلاطينهم مجاهدون أدوا لقضية العروبة والاسلام أجل الخدمات : عبد المؤمن بن على وابنه أبو يعقوب يوسف ، وحفيده يعقوب بن يوسف المعروف بالمنصور ، وهو صاحب النصر المدوى على قوات قشتالة وليون عند الأرك فى شعبان سنة ٥٩١/يوليو ١١٩٥ ، أى بعد انتصار حطين بثمانى سنوات .

ولو أن قوات يعقوب المنصور اتحدت مع قوات صلاح الدين ونازلت أوربا صفا واحدا لنجا الأندلس الى الأبد ، ولكان لتاريخ الغرب الاسلامى اتجاه آخر . ولم ينتبه الى ذلك الا عبقرى الاسلام صلاح الدين ، فقد أرسل سفارة الى يعقوب المنصور يعرض عليه ضم القوى ومنازلة الأعداء جبهة واحدة ، ولكن يعقوب أخذته العزة وغضب لأن كاتب الرسالة لم يخاطبه بأمير

المؤمنين ، ورفض التعاون فكانت النتيجة أن كسر الاسبان ابنه محمدا الناصر كسرة قصمت ظهر الاسلام الأندلسى وظهر دولة الموحدين فى موقعة العقاب التى تعرف باسم لاس ناقاس دى تولوزا عام ٦٠٩/١٢١٢ . وربما كان من المفيد هنا أن نذكر اخوتنا عرب المغرب المعاصرين بهذه الصفحة المحزنة من تاريخ الاسلام ، فان بعضهم يزعم أنه فى الغرب وأنه أقرب الى أوروبا ، وأن له — نتيجة لهذا — اتجاها تاريخيا آخر يختلف عن تاريخ عرب المشرق ، بل يذهب بعض رؤسائهم الى معاداة القومية العربية ورائدها جمال عبد الناصر — صلاح الدين عصرنا — فيجنون بذلك على بلادهم جناية كبرى ، ويؤخرون تقدم ركب الاسلام الزاحف ويضيعون السنين ، ونحن أحوج الى يوم !

ومن أعجب العجب أن شعوبهم تدرك ذلك وتمد يدها الى بقية شعوب العرب ، ولكنهم لا يصغون الى صوت الشعوب ، ناسين أن صوت الشعوب لا ينطق عن الهوى بل هو نور وحق ، والنور نار تحرق الضال والعابث والمفسد ، والحق يمحق الباطل ويظهر عليه ، والعروبة هى الأساس الوحيد السليم الذى يمكن أن تعتمد عليه أمة عربية فى جهادها نحو التقدم واستكمال التحرر .

والقومية العربية هى الدعوة الوحيدة الكفيلة بجمع شعوب العرب على صعيد واحد ، وتقوية جبهتها والوصول بها الى تحقيق الأمانى المرجوة ، وقد رأينا فى هذا العرض كيف كان مصير المتخاذلين والمنصرفين عن الوحدة ، الذين حسبوا أنهم يستطيعون أن يقفوا وحدهم أمام الضغط الصليبى ومطامعه ، وسنرى فى الفصول التالية مصير معين الدين أنر وأصحابه من المعارضين للاتحاد مع جبهة الجهاد ، ومصير الفاطميين الذين صور لهم الوهم والأنانية أنهم يستعينون بالعدو على اخوانهم . ونحن انما نكتب هذا التاريخ للعبرة ، وتبصرة المعاصرين بما كان من أمر السالفين من أجدادنا مع السالفين من أجداد أعدائنا اليوم ، فلعل الذكرى تنفع المؤمنين !

وفى صقلية كانت راية الاسلام قد انطوت على يد النورمان فى عام ٤٨٤/١٠٩١ ، ثم تطلع ملكهم رجار الى غزو تونس وأخذ يناوش أميرها ، ولم يخطر ببال هذا الأمير أن يمد يده الى اخوانه المجاهدين فى الشرق ، بل وضع نفسه فى عام ٥٢٨/١١٣٤ — أى فى أواخر أيام عماد الدين زنكى — تحت طاعة نورمان صقلية ، وبادر هؤلاء فاحتلوا جزيرة جربه ، مفتاح تونس ، ثم استولوا على

طرابلس سنة ٥٤٠/١١٤٦ ، بعد سقوط الرها بسنتين ، فلما تم لهم ذلك تنبهوا الى ما لم يتنبه اليه أمير تونس العربى — وتطلعوا للاشتراك فى المعركة الدائرة فى الشرق ، وكان لهم دور خطير فى الحرب الصليبية الثانية .

*

تردد نبأ سقوط الرها فى غرب أوروبا فهز عواصمه هزا عنيفا ، واجتمعت مليزاند ملكة بيت المقدس بالمسئولين فى امارة أنطاكية ، واستقر الرأى على ارسال وفد على رأسه هيو أسقف جبالة الى البابا يوجينيوس الثالث لكى يدعو الى حملة صليبية جديدة . وقد وصل الوفد الى ڤيتربو فى ايطاليا حيث كان البابا يعيش مبتعدا عن روما ، ولم يكن يوجينيوس الثالث فى موقف يسمح له بأن يكرر ما فعله أربان الثانى ، فقد كان الناس قد تحزبوا عليه فى روما وأبعدوه عنها ، ولكن علاقاته كانت طيبة بملكين من ملوك أوروبا هما كونراد ڤون هوهنشتاوفن ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، فوجه اليهما منشورا بابويا يدعوهما الى الخروج مع فرسانهما للذياد عن الكاثوليكية فى الشرق .

وقد رحب لويس السابع بطلب البابا ، فقد كان معظم أهل الامارات الصليبية الثلاث الباقية فرنسيين ، ودعا أفصاله (أى أتباعه) الراغبين فى الخروج معه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من ترتيب ، ولكن كبار الأفصال لم يستجب منهم أحد ، فدعا الى اجتماع آخر يعقد بعد ثلاثة شهور ، ولجأ الى علم من أعــلام الدين فى مملكته كان له من السلطان على الناس فوق ما للملك ، وهو برنار قس كنيسة كليرفو ، وكان رجلا ذكيا فصيحا كاتبا لازالت كتابته تقرأ فى أوروبا الى اليوم ، ولعل رجلا من رجال الدين الغربيين — بعد جريجورى السابع وأربان الثانى — لم يؤد للكنيسة الكاثوليكية والبابوية ، بل لعالم السياسة فى غرب أوروبا ما أدى هذا الرجل ، وهو فى طليعة رجال أوروبا فى القرن الثانى عشر . ولقد رفعته الكنيسة فيما بعد الى مقام القديسين ، فصار يعرف بسان برنار . ولم تكن هذه أول مرة يتصــل فيها بشئون الصليبيين ، فقد سبق أن كتب بنفسه قانون جماعة فرسان المعبد (الداوية) ، ولم يكد لويس السابع ويوجينيوس الثالث يطلبان اليه القيام بالدعوة لحملة صليبية جديدة حتى أسرع ووضع فى هذا العمل كل قواه .

وكما وقف أربان الثانى على باب كنيسة كليرمون يدعــو للحرب الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة ، وقف سان برنار خارج كنيسة فيزيليه فى ٣١ مارس سنة ١١٤٦ (١٦ شوال ٥٤٠) يدعو للحملة الصليبية الثانية ويفرغ بلاغته على قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل نارا ، فما وافى المساء حتى كانت ألوف بعد ألوف قد قررت الخروج الى الشرق لتصب النقمة على رءوس العرب جزاء لهم على ما جرءوا عليه من استعادة جزء من وطنهم المسلوب . وأمام الحماس الشعبى اندفع النبلاء يعلنون رغبتهم فى الخروج الى الشرق ، وحفل سجل الحملة بأسماء أكنات وبارونات من أعتى رجال الحرب فى زمانهم : روبرت كونت درو أخو لويس السابع ، وألفونسو چوردان كونت تولوز (ولد فى فلسطين) ، وجيوم كونت نيڤير ، وهنرى وريث كونتية شامپانيا ، وتيرى دى فلاندر (سبق له الاشتراك فى الحرب فى الشرق وهو صهر مليزاند ملكة بيت المقدس) ، وأماديوس دى ساڤوا عم الملك ، وغيرهم من كبار رجال مملكة فرنسا ، واشترك من كبار رجال الدين أساقفة لانچر وأراس وليزييه ، وبلغ من تزاحم أصاغر الناس على الاشتراك أن خلت قرى كاملة من رجالها كما قال سان برنار فى خطاب بعث به الى البابا .

ومن فرنسا اتجه سان برنار الى ألمانيا — كما فعل أربان الثانى من قبل — وهناك ألقى كلامه الملتهب على جماعات الچرمان المتعطشة أبدا للدماء ، وبلغ من حماس الناس أنهم لم يصبروا حتى يجىء أوان الخروج ، فنفسوا عن أنفسهم بمهاجمة اليهود ، فقتلوا منهم عددا عظيما وأحرقوا دورهم ونهبوها ، وفاضت دماؤهم فى كولونيا ومايننس وڤورمز أنهارا .

وهذه ثانى مذبحة لليهود نصادفها فى تلك الفترة القصيرة من التاريخ ، ولو ذهبت تقلب صفحات التاريخ الأوروبى لوجدتها مضرجة بدماء اليهود ، بينما عاشوا فى ظلال الاسلام آمنين لم يرعهم شىء من ذلك . ومن عجائب النفس الأوروبية أنها تزعم اليوم أنها تتصدى لحماية اليهود وانصافهم منا ، **نحن العرب !** ولو أننا سلكنا مع اليهود مسلكهم لما بقى على ظهر الأرض حى ينبس بالشريعة الموسوية ، فان بلادنا كانت على طول العصور الوسطى حصنهم ومأواهم ، ومن هذا المأوى خرجوا فى مطالع العصر الحديث ليجمعوا المال ويؤثلوا لأنفسهم جاها وسلطانا ، ثم عادوا يجزوننا عن احساننا بما ترى ، فلو أنك بحثت فى صفحات التاريخ عن أحسن احسان قوبل بأسوأ اساءة لما كان الا ذاك . ولكننا لا نأسف على خير أسديناه ، وما هى الا طبائعنا ، والكريم على أعراقه يجرى ..

اتجه ملك ألمانيا كونراد هوهنشتاوفن عن طريق البر بجيش جرار يحاول المؤرخون المحدثون التقليل من عدده ، ويبالغ القدامى فى تكثيره حتى ليبلغون به الى المليون ، ونكتفى من هؤلاء وهؤلاء بالقول بأن الجيش كان بضع عشرات من الألوف لا تصل الى المائة ولا تقل عنها الا يسيرا ، وكان فى الجيش ملكان من أتباع ملك ألمانيا هما ڤلاديسلاف ملك بوهيميا وبوليسلاف الرابع ملك بولندا ، وكان فى الجيش عدة من النبلاء وكبار الفرسان أكبرهم فردريك دوق سوابيا ، وخرج معه كذلك نفر من كبار رجال الدين يقود كل منهم فرقة من فرسان ناحيته مثل أساقفة اللورين وتول وميتس .

وكانت سن كونراد قد ناهزت الخمسين ، فعهد فى أمور القوات التى معه الى ابن أخيه فردريك دوق سوابيا الذى ذكرناه . وقد ارتكب الجيش الألمانى أعمال النهب والقتل التقليدية للجيوش الصليبية فى البلاد التى مر بها بعد وصوله الى صوفيا ، حتى لقد أحرقوا ديرا بمن فيه من الرهبان بجوار أدرنه ، وخافهم الامبراطور مانويل كومنين على عاصمته فأمرهم أن يعبروا الى الشاطىء الآسيوى بعيدا عنها ، فرفضوا ودخلوها فى ربيع الأول ٥٤٢ / سبتمبر ١١٤٧ .

وخرج ملك فرنسا بمن معه بعد الألمان بشهر — فى يونية سنة ١١٤٧ (ذى الحجة ٥٤١) — وكانت عدة الجيش الفرنسى تقل يسيرا عن الألمانى ، واصطحب لويس السابع زوجه اليانور دى أكويتين ، وكانت ابنة أخى رايموند صاحب أنطاكية ، وصحبها نفر من النبيلات رأين مرافقة أزواجهن ، وكان فى الحملة ايفيرارد دى بار رئيس هيئة فرسان المعبد مع نخبة مختارة من الفرسان جمعهم للاشتراك فى هذه الحملة . وكان لويس السابع فى السادسة والعشرين من عمره ، ولم يكن على جانب كبير من قوة الشخصية ، ولكن جيشه كان أحسن نظاما وأقوى عدة من جيش الألمان . وقد وصلوا هم الآخرون القسطنطينية عن طريق البر ، بعد وصول الألمان بأسابيع .

واجتمع الملكان بامبراطور الدولة البيزنطية مانويل كومنين ، وانتهى الأمر بعد مناقشات لم تخل من مشادات وخلاف الى وضع خطة العمل ، وبدأ سير الحملة الصليبية الثانية نحو أرض المسلمين يتقدمها الجيش الألمانى . ولا شك أن هذه الحملة كانت أحسن عدة وأكثر عددا من الحملة الأولى ، ثم انها كانت مقبلة على بلاد للصليبيين فيها امارات وجيوش ، فكانت حقيقة أن تفوز بأضعاف ما فازت به الأولى .

ولكن الأولى نزلت بلادا مفرقة وقلوبا متنافرة ، فما أسرع ما كسبت النصر ، أما الثانية فقد أتت وجانب كبير من العالم الاسلامى متحد تحت راية نور الدين محمود ، وقد أزال زنكى امارة الرها وحمى ظهر شمال الشام بفتحه المبين ، وكان يقود القوة الاسلامية رجل مجاهد مؤمن نذر نفسه لقضية الوحدة والاسلام هو نور الدين ، وسنرى بعد قليل ما سيصير اليه أمر هذه الحملة الجرارة يقودها ملكان وعشرات من كبار الأمراء والفرسان والنبلاء والأساقفة ، فاذا وصلت الى نهايتها ، فاعلم أن ذلك كله كان بنعمة اتحاد العرب والمسلمين .

*

كان من الممكن أن يقع الخلاف على ملك عماد الدين زنكى بعد وفاته ، فقد كان له أربعة من الأولاد كل منهم جدير بأمور المملكة ، ولكن أكبرهم سيف الدين غازى ونور الدين محمود أوتيا من الحكمة ما هداهما الى الاتحاد ، فاتفقا فى اجتماع عقداه على أن تكون الموصل وما يتبعها شرقى نهر الخابور — أحد نهيرات دجلة — لسيف الدين ، وحلب وما يتبعها شرقا من أملاك أبيهما لنور الدين .

وكأنما تدخلت الأقدار لتجعل القسمة بينهما على هذا النحو ،

فان سيف الدين ورث مع القسم الشرقى للمملكة مشاكلها المحلية والآسيوية الخالصة : تأمينها من مطامع السلطان السلجوقى والخليفة ومؤامرات بلاطيهما ، ثم حماية حدودها الشرقية من غارات أصحاب الأمر فى فارس ، وثغورها الشمالية من عدوان أتراك آسية الصغرى وآل دانشمند والبيزنطيين ، فى حين ورث صاحب القسم الغربى — نور الدين محمود — الجهاد مع الصليبيين .

وقد كان كلا الأخوين مؤهلا لما وجهته الأقدار نحوه ، فكان سيف الدين غازى صاحب سياسة وأناة يزينهما اقدام يكف عنه طمع الطامع ، وكان نور الدين جياش القلب بالايمان يرى نفسه مجاهدا لم يخلقه الله الا لجمع كلمة المسلمين واخراج الأعداء من ديارهم ، وكانت فى طبعه رقة كسبت له نفرا من أعدائه كانوا قد نفروا من عنف أبيه عماد الدين زنكى ، وكان الى ذلك عفيفا قنوعا اذا قرأت سيرته حسبت أنك أمام مرابط مجاهد بسيط لا أمام سلطان له جاه وجيوش ، وهذا طرف من خلاله وشيمه ، وندع باقيها لتستبينه فى أطواء ما سيلى من الصفحات .

ومن غريب الأمر أن القسمة بين الأخوين كانت عادلة فى كل شىء ، فمال فريق من رجال عماد الدين زنكى الى سيف الدين ،

ومال نفر آخر الى أخيه ، وفى مقدمة رجال سيف الدين الوزير جمال الدين محمد بن على والقائدان صلاح الدين محمد بن أيوب الياغسيانى وعز الدين أبو بكر الدبيسى ، وانضم الى نور الدين القادة سيف الدولة سوار ، ثم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وأسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية ، وكلهم كانوا من فحول الرجال وكبار القادة وأصحاب الرأى والاخلاص الشديد للاسلام والمسلمين .

وقد جنى الأخوان أول ثمرات الاتحاد عقب وفاة أبيهما بقليل، فقد طمع المحيطون بمملكة عماد الدين فى الفوز بما يستطيعون الفوز به ، حاسبين أن الأخوين سيتحاربان ويفوزون هم بما يريدون ، فأسرع معين الدين أنر صاحب دمشق وأخذ بعلبك وأرغم صاحب حماه على أن يدخل فى طاعته ، وتقدم صاحب ماردين فاستولى على بعض الحصون المتاخمة لبلاده .

وتشجع الصليبيون أيضا ، فتقدم رايموند صاحب أنطاكية واكتسح بلاد نور الدين حتى وصل الى أسوار حلب ، وظن جوسلين الثانى أن الفرصة واتته ليسترد الرها ، فجمع جنده وسار مغذا نحوها ، وتواطأ معه نفر من الأرمن من سكانها ، وتمكن من دخولها فى ربيع الثانى سنة ٥٤٢ / أكتوبر ١١٤٧ ، ولكنه عجز

عن الاستيلاء على قلعتها ، وكان نور الدين غازيا فى نواحى أنطاكية، فكر بأقصى ما يستطيع من سرعة حتى وصل الرها فى الثانى من نوفمبر ، واقتحم البلـد ففر جوسلين وتبعـه المسلمون ونازلوه وأوقعوا به هزيمة دامية قتل فيها من أنجاد جيشه بولدوين صاحب مرعش وقيسون وجرح جوسلين فى رقبته فلجأ الى سميساط ، وتحصن فيها .

وعاقب نور الدين من خانوا المسلمين من أرمن الرها فقتلهم عن آخرهم ، وخاف بقية أهل البلد من المسيحيين على أنفسهم ، فغادروها . وقد كان نصارى الشرق يفخرون بالرها ويرون أن كنيستها أقدم كنائس النصرانية فى الشام والموصل ، فقضى جشع جوسلين الثانى على هذه الذكرى ، وخلا البلد من النصرانية بعد ذلك .

وبعد ذلك بقليل أتيحت لنور الدين الفرصة ليلقن أصحاب مملكة بيت المقدس درسا أقسى مما لقنه لجوسلين الثانى صاحب تل باشر : ذلك أن أرمنيا حديث عهد بالاسلام يسمى ألتونتاش كان يتولى لمعين الدين أنر حصن بصرى وصرخد من أرض حوران، فحدثته نفسه بالخروج عليه ، فاتصل بملكة بيت المقدس مليزاند وعرض عليها تسليم القلعتين اليها اذا هى اعترفت به حاكما على

اقليم حوران كله ، وكان الكثيرون من أهل حوران نصارى أرثوذكسيين ، فحسبت مليزاند ورجالها ان ذلك يتيح لهم الاستيلاء على اقليم حوران كله .

وكان معين الدين أنر كما نعلم قد صافى مملكة بيت المقدس وعاهد أصحابها ، حاسبا أن ذلك ينفعه فى صراعه العقيم مع اخوانه فى حلب والموصل ، ولكنهم لم يكادوا يرون فرصة الاستيلاء على جانب من بلاده حتى بادروها فى نهم الجراد الى الحقل الأخضر ، فأرسل يحتج على تصرف أصحاب بيت المقدس ، وماذا تجدى الاحتجاجات ؟ فعرف ذلك العجوز الماكر أنر أن الله حق ، والتفت نحو نور الدين يستجير به ، فعبأ نور الدين جيشه وخرج معينا له، مؤكدا أنه ما أتى الا لنصرة الاسلام وأن لا مأرب له فى دمشق ، وكان صادقا فيما قال ، لأنه كان يعلم أن مصيرها اليه دون عنف ، وكان من مبادئه التى سار عليها ألا يعنف على أخ مسلم ، وألا يضم الى بلاده بلدا لمسلم الا بالمحبة والرضا .

وسار نور الدين ومعين الدين أنر نحو بصرى فسلمها اليهما أهلها ، وبلغ الصليبيين استسلامها فعادوا بخفى حنين وفرسان المسلمين يتخطفون من قدروا عليه من عسكر ساقتهم وجناحيهم ، فلم يصلوا الى بيت المقدس الا وقد هلكت منهم مئات ، واذا

بذلك الخبيث معين الدين أنر يرسل اليهم طالبا تجديد المحالفة حذرا من نور الدين ! وقد علم هذا الرجل المخلص بالأمر ، ولكنه تظاهر بأنه لا يعلمه ، وترك دمشق لصاحبها حتى يبعث الأمان فى قلبه ، ومضى يهاجم حصون امارة أنطاكية ، فاستولى منها على أرتاح وكفر لاثا وبَصَرْفُوت (سنة ١١٤٧/٤٥٢) .

وعلى اثر ذلك ملك الرعب الصليبيين جميعا من نور الدين ، وعلموا أنهم أمام رجل لا يقل عن أبيه عماد الدين زنكى . كانت سنه اذ ذاك تسعا وعشرين سنة ، ولكنه أوتى من الحكمة ما لا يتيسر للشيوخ ، وكانت موارده أقل بكثير من موارد أبيه ، فقد كان يملك نصف دولته فحسب ، ولكنه عرف كيف يدبر الأمر ، ويصل بالقليل الذى كان لديه الى أبعد مما وصل اليه أبوه .

فى هــذه الأثنــاء كانت طــلائع الحملة الصليبية الثانيــة قد دخلت بلاد الاسلام ، وكان الجيش الألمانى ، وعلى رأسه الملك كونراد فى مقدمة الداخلين ،وكان جنده قد أخافوا مانويل كومنين، الامبراطور البيزنطى ، وحفزوه على أن يكون على الحذر منهم ، فلجأ — من باب الاحتياط — الى موادعة مسعود سلطان سلاجقة آسية الصغرى ، وعاصمته قونية ، فعقد معه هدنة ،وساءت العلاقة بين مانويل كومنين وبين الألمان نتيجة لهذا واعتبروه خائنا .

وقد حدثت أمثال هذه الخلافات بين البيزنطيين والصليبيين أثناء الحملة الصليبية الأولى ، ولكنها لم تؤثر فى تقدمهم لأن المسلمين كانوا أكثر منهم اختلافا وتفرقا ، أما الآن وجبهة الاسلام موحدة والقلوب مؤتلفة فقد أتيح لهم الانتفاع بما وقع بين العدو من خلافات .

وأول ما أفاد منه المسلمون من اختلاف رأى العدو أن مانويل كومنين نصح كونراد بألا يخترق آسية الصغرى فى طريقه الى أنطاكية ، بل يسير مساحلا حتى تستطيع الأساطيل البيزنطية أن تقدم له العون اذا حاجه الأمر اليه ، فأساء كونراد الظن بالنصيحة ، وأوغل فى آسية الصغرى حتى وصل نيقية فى ربيع الثانى سنة ٥٤٢/أكتوبر سنة ١١٤٧ ، وهناك أمر قائده أوتوفون فرايسنجن بأن يتقدم بكتلة الجيش نحو ديريليوم (اسكى شهر) على أن يلحق هو به على مهل . فلما كان أوتو على مرأى من ديريليوم انقضت عليه قوات المسلمين وأنزلت بجيشه مذبحة كبرى ، وأسرع كونراد لنجدته فوجد أنه هو نفسه سيهلك بمن معه ، فكر هاربا يطلب السلامة .

فى هذه المعركة (أوائل جمادى الأولى ٥٤٢/ أواخر أكتوبر سنة ١١٤٧) هلكت تسعة أعشار الجيش الألمانى وغنم المسلمون

غنيمة بلغ من ضخامتها أنها ظلت تباع فى أسواق المسلمين حتى قلب فارس شهورا متتابعة ، ولم يكسب المسلمون هذا النصر الا بفضل ما سرى فى كيانهم من روح معنوى عظيم نتيجة للاتحاد وتآلف القلوب ، وقبل ذلك بخمسين سنة أبادت الحملة الصليبية عند ديريليوم نفسها جيش قلج أرسلان ومهدت السبيل لدخول الشام.

ودخل الفرنسيون آسية الصغرى بعد ذلك بقليل ، فوجدوا الجو مكفهرا : مانويل كومنين ساخط على الألمان ، وشائعات تحالفه مع المسلمين تملأ الأسماع ، ثم هذه الهزيمة القاصمة التى حلت بمن سبقوهم ، ووقع الخلاف بينهم وبين مانويل كومنين حتى دعا بعضهم الى التحالف مع رجار النورمانى صاحب صقلية على البيزنطيين ، فما زال لويس السابع برجاله حتى صرفهم عن ذلك الرأى ، ثم تعهد لمانويل بأن يعيد اليه ما ضاع من أملاك ، فزادت نفوس فرسان الفرنسيين غضبا ، وأخذ الجيش الفرنسى الطريق الى أرض المسلمين والنفوس متوترة والخلاف يملأ القلوب .

واجتمع كنراد ولويس السابع فى مدينة نيقية فى جمادى الثانية ٥٤٢/ نوفمبر ١١٤٧ ، واتفقا على أن يسيرا نحو أنطاكية مساحلين ، وتقدم الألمان الطريق فأتوا على جميع الأزواد التى أعدها رجال الدولة البيزنطية للحملة على مراحل الطريق ، وأتى

فى أعقابهم الفرنسيون فلم يجدوا زادا ولا طعاما ، فأخذوا ينهبون المدن البيزنطية ، واشتبكوا مع جند الدولة فى قتال . وكان معهم عدد غفير من الحجاج ، فلما رأوا بوادر الخلاف والحرب آثروا العودة الى القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شر الحج والهلاك .

— سار الجيش الألمانى فى المقدمة ، فلما وصل الى افيسوس اشتد المرض بكنراد ، فعاد الى القسطنطينية ، وحرص مانويل كومنين على أن يقوم على تمريضه بنفسه ، وكان ذا هوى بالطب والأعشاب ، فأبل من مرضه ، وصفا الجو بين الرجلين ، حتى اتفقا على أن يصهر كنراد الى مانويل فيزوج أخاه هاينريخ دوق النمسا تيودورا ابنة أندرونيكوس أخى مانويل . ولم يعاود الألمان السير مخترقين آسية الصغرى ، بل نقلوا الى فلسطين فى سفن الأسطول البيزنطى فى رجب سنة ٥٤٣ / مارس ١١٤٨ .

وسار لويس السابع بمن معه متئدا خوفا من أن يقع له ما وقع للألمان ، ولكن قلوب من معه كانت تفيض بالشك فى البيزنطيين ، فلما وصل الى قرب بليدة تسمى «أنطاكية بسيديا» وأرادوا أن يعبروا القنطرة اليها وجدوا المسلمين قد ملكوا رأس القنطرة وعسكروا على الضفة الأخرى ، بل قيل ان البيزنطيين سمحوا لهم بالتحصن وراء أسوار البلد ، فخاضوا معهم معركة خسروا فيها بضع مئات ،

وبعد لأى ما عبروا ، وقد تأكدت مخاوفهم من ناحية البيزنطيين .
وتقدموا على عجل ، وعلى طول الطريق كانوا يصـــادفون جثث
حجاج الألمان الذين سبقوهم الى الهلاك فازدادوا خوفا ، حتى
كانت الملكة ومن معها يرتعدن خوفا وهن فى المحفات ، وأقسمت
الملكة ألا تعود الى حماقة المغامرة بالسير فى أرض المسلمين مرة
أخرى . وعندما انحدروا نحو البحر هاجمهم المسلمون وألقـــوا
الفزع فى قلوبهم وقتلوا منهم بضع مئات أخرى ، ولم ينج لويس
السابع بنفسه من الموت الا بجهد الجاهدين .

وعندما وصل الجيش الى أضاليا فى رجب ٥٤٣/ مارس ١١٤٨
كان الشقاء قد بلغ برجاله كل مبلغ ، فطلب لويس الى حاكم البلد
البيزنطى أن ينظر له فى سفن تنقله وجيشه الى أنطاكية فى البحر ،
ولم يجد الرجل سفنا تكفى لنقل جيش كامل ، فركب الملك ونفر من
الفرسان ما تيسر من السفن وترك كونت فلاندر مع البقية لتأتى
بعده ، ولم يكف المسلمون فى أثناء ذلك عن الهجـــوم وتخطف
الرجال ورميهم بالنبال .

ثم جمع الحاكم سفنا أخرى فركب فيها الكونت وبقية الفرسان
وتركوا المشاة من خلفهم لمصيرهم . ولم يستطع أولئك أن يحصلوا
على سفن ، ولا كان معهم من المال ما يدفعونه لكرائها ، فساروا

بحذاء الساحل يجرون أقدامهم جرا ، وانضم اليهم من تخلف من الألمان ، وتعقبهم رماة المسلمين وفرسانهم يصيبون منهم قدر ما يستطيعون ، فلم يصل من أولئك الرجال الى أنطاكية الا نصفهم فى رمضان سنة ٥٤٣/ مايو سنة ١١٤٨ .

*

رست السفن بالملك لويس السابع ومن معه من الفرنسيين عند السويدية جنوبى أنطاكية ، وتعرف عند الصليبيين باسم سان سيميون (القديس سمعان) . كان وصولهم فى رمضان سنة ٥٤٣ / مايو ١١٤٨ ، فخف للقائهم رايموند دى پواتييه أمير أنطاكية وحاشيته وصحبه ، وعادوا بهم الى البلد ، وبدأت سلسلة ولائم وحفلات أنست القادمين ما لاقوا من مشقة وشقاء فى آسية الصغرى .

و « راحت السكرة وجاءت الفكرة » ، كما يقولون ، فاقترح رايموند أن تنهض الحملة بكامل هيئتها الى حلب لتقضى على نور الدين القضاء المبرم ؛ وكان وجود نور الدين على حدود امارة أنطاكية من حماه الى الرها منذرا بنهاية هذه الامارة ولحاقها بأختها الرها ، ولم يخف نور الدين خطته بل مضى يهاجم ويوغل ، فما كان يمر شهر حتى يحرر حصنا من أيدى محتليه .

وبالفعل أخذ رايموند جماعة من فرسان لويس وقام معهم بغارة سريعة على أرض حلب ، فكانت هذه الغارة قاضية على آماله ، إذ لقيهم جنود نور الدين ولقنوهم درسا ظل فى أذهانهم زمنا طويلا .

وتردد لويس السابع بعد ذلك فى الاستجابة الى ما عرضه رايموند دى پواتييه ، وزعم أنه خرج من بلاده على نية الذهاب الى بيت المقدس ، فهو لا يستطيع شيئا قبل أن يفى بما نواه . والواقع أنه كان محيرا فى أمره ، فقد توالت عليه وفود الامارات الصليبية وكل منها يرجو أن يستخدمه ومن معه فى تحقيق أهداف خاصة بامارته :

أقبل جوسلين الثانى ، طريد الرها وقعيد تل باشر ، يطلب أن يسير معه لاسترداد امارته الضائعة ، وكانت حجته فى ذلك جديرة بالنظر ، فان سقوط الرها كان سبب خروج الحملة الصليبية من بلادها ، وكانت أحاديث القديس برنار كلها تدور حول مصابها وضرورة استرجاعها .

وأقبل بطريق القدس برسالة خاصة من مجلس مملكة بيت المقدس يستحث الملك على الاسراع اليها ويقول ان كنراد ومن معه قد وصلوا وهم فى انتظاره . وانبرت الملكة اليانور ، زوج

لويس السابع تطلب الى زوجها أن يستجيب لمطالب رايموند ، وكان عمها ، وتحمست للأمر حماسة جعلت الرجل يراجع نفسه ويتدبر ما يقال من حوله . ذلك أن اليانور لم تزل مذ وصلت الى أنطاكية ملازمةلعمها ملازمةزادت علىمايكون عادة بينالشابة وعمها من مودة القربى .. كانا يقضيان الساعات معا ، اما فىقصر الامارة أو فى القصر الذى خصص لنزولها ، فاذا خرجا مضيا الى الصيد أو للنزهة فىالبساتين ، ولغطت الألسن بالكلام ، وكان رايموند رجلا فحلا عربيدا ذا ولع بالنساء ومغامرات المعاشق . ووجد لويس أن مبادرته بالخروج الى بيت المقدس قد تحسم الأمر ، فلم يكد يفصح عن رغبته حتى قالت الملكة انها باقية فى أنطاكية لتواسى عمها سواء بقى زوجها الملك أم ذهب ، وطال النقاش بينهما ووقع النفور واشتدت الخصومة ، وازدادت الألسن شقشقة ، وأحس الملك أن شرفه يشيل فى كفة الميزان ، فاستجمع شهامته ، ومضى فجر الملكة جرا من قصر عمها ، ومضى بها مرغمة الى القدس ، وهى تقسم لتطلبن الطلاق من ذلك الجلف القاسى ..

وكان الملك كنراد قد وصل مع رفاقه الى بيت المقدس فى شعبان سنة ٥٤٣/ أبريل ١١٤٨ ، واجتمع رجال الحملتين مع رجال مملكة بيت المقدس ومن انضم اليهم من رجال الامارات الأخرى

والإسبتاريين والداويين . فضمت القدس فى ذلك الحين من ملوك أوروبا وأمرائها وفرسانها وأساقفتها من شتى بلادها ما لم يجتمع قط قبل ذلك فى عاصمة من عواصم أوروبا نفسها : كان هناك خمسة ملوك وملكتان (كنراد ولويس وبولدوين الثالث ملك بيت المقدس تحت الوصاية وملكا پولندا وبوهيميا ثم اليانور ومليزاند)، وكان هناك من الأمراء الألمان هاينريخ أمير النمسا وأوتو أمير فرايزنجن وفردريك أمير سوابيا ، ومن أمراء الفرنسيين هنرى دى شامپانيا وتيبرى أمير فلاندر ، وأمير غير صريح النسب هو برترام الابن غير الشرعى لألفونسو چوردان ، أضف الى هذا الحشد عددا ضخما من الأساقفة وأمراء الكنيسة ورئيسى الاسبتاريين والداويين وألوفا من الفرسان وألوفا أكثر من المشاة . كل أولئك تجمعوا ليحاربوا أميرا مسلما واحدا نهض وراية الاسلام فى يده ، هو نور الدين محمود ..

وانتهى رأى الجمع بعد مشاورات طويلة الى الاستيلاء على دمشق تمهيدا لمهاجمة حلب ! كان أول ما قرروه القضاء على صديقهم وحليفهم صاحب دمشق الذى باع ذمته ولم يضع ثقته فى الله ورجاله ، فكان ذلك القرار عبرة لكل من تحدثه نفسه بالترامى على أعتاب أعداء جنسه حاسبا أنه يضمن بذلك السلامة،

فيخسر كرامته وايمانه أولا ثم يقضي أصدقاؤه المزعومون على الباقي من كيانه .

ولا شك أن الذى حفزهم على الطمع فى دمشق هو ثقتهم فى تخاذل أصحابها وقلة ايمانهم وسهولة القضاء عليهم ، وهو فى ذاته مظهر لما كان رجال بيت المقدس يضمرونه من الاحتقار لمعين الدين أنر وأضرابه من الخونة الضالين ، ولو أنهم وقفوا أعزاء أمام الخصوم لكانوا جديرين بالاحترام . نعم ، كان الصليبيون أبغضوهم ، ولكن البغض لون من الاحترام ، فأنت لا تبغض مهينا ، وانما تحقره أو تهمله ، وليس أسوأ من الموت الا حياة المحقر المهين .

ويتعجب المؤرخون الأوروبيون من عزم الصليبيين على مهاجمة معين الدين أنر ودمشق ، ويرون أن الهجوم على نورالدين كان أجدى ، ولكن دولهم المعاصرة لو كانت فى موقف الصليبيين لما فعلت غير ما فعلوه ، لأن الجيوش انما تبدأ بمواضع الضعف لتنفذ منها وتستعين بالنصر فيها على مهاجمة مواضع القوة والحصانة .

وقد ذاقوا من المسلمين الى ذلك الحين الويلات ، ولم يعودوا يجرءون على الاقتراب من عرين يقف دونه أسد كنور الدين ،

وحسبهم جانب هين يهيضونه ويصيبون عليه نصرا يرفع من همتهم . ولم يفتهم فى ذلك الحساب الا أمر واحد ، هو أن نور الدين لم يكن يعتبر نفسه أمير حلب ، بل درع المسلمين أجمعين ، وما هو الا أن يهموا بالاعتداء على بلد عربى حتى يجدوه فى وجوههم ، وهذا هو الذى وقع عندما هجموا على دمشق .

ولو أن نور الدين كان كغيره من الأمراء لا يهتم الا لبلاده لاجتاحوا دمشق ولفرح المؤرخون الأوروبيون بهذا النصر ، ولمضوا يمتدحون حكمةقواد الحملة وبعد نظرهم ،ولكنها فشلت، وعند الفشل يكون اللوم والتثريب . وغاب عن أولئك المؤرخين الأوربيين كذلك ما بعثته الصحوة فى قلوب العرب والمسلمين من روح غلاب وايمان بالنصرجعلهم يستصغرون الأعداء ولا يرهبونهم كما كان الحال قبلا . وسنرى فى تفاصيل الحملة ما فعله أفراد الشعب العربى وما أتوه من ضروب البسالة والاقدام . وسيلمس الصليبيون هذه القوة الشعبية فى كل خطوة يخطونها فى بلاد الاسلام بعد الآن .

أخذت الحملة طريقها نحو دمشق فى أوائل ربيع الأول سنة ٥٤٣/ منتصف يوليو ١١٤٨ ، ووصلت الى ظواهر دمشق فى أواخر ذلك الشهر ، فاستولوا على موضع يعرف بمنازل

العساكر ــ أو نزول العساكر ــ على أربعة أميال جنوبى دمشق ، وحاولوا ضرب معسكرهم هناك ،ولكنهم وجدوا أن الماء لا يكفيهم، فانتقلوا الى ناحية المِزة حيث وجدوا ماء كثيرا ، فضربوا خيامهم، وبدأوا الزحف نحــو البلد ، ونشب القتــال بينهم وبين أهله ، « واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد الأتراك والقتّال وأحــداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير » ، وبدأوا ينازعون الصليبيين الأرض شبرا شبرا . وتقدم الصليبيون فى بطء شديد ، ودفعوا المجاهدين نحو الأسوار ، وانتشروا هم فى البساتين المحدقة بها من الجنوب وضربوا معسكرهم قربها .

وقد استشهد من المسلمين فى اليوم الأول نفر كبــير ، ولم تقتصر الشهادة على الفتيــان والمقــاتلين ، بل شملت الشــيوخ والعباد ممن خرجوا مقاتلين فى سبيل الله . وكان معين الدين أنر من وراء الأسوار يدير الدفاع عن دمشق ويرقب تطور القتــال ، فرأى الشــيخ أبا الحجاج يوسف بن دوناس المغربى الفندلاوى ــ وكان عابدا مسنا ــ واقفا أمام السور ومعه صاحبه الشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول، فلما بصر بالصليبيين قال : أما هؤلاء الروم ؟ فقال صاحبه : بلى ! فقال : فالى متى نحن وقوف ؟ وقال: سر على اسم الله ، وتقدما . وقصد أنر الشيخ الفندلاوى وقال له :

يا شيخ ، أنت معذور ، ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال.. فقال : قد بعتُ واشترى ، فلا نقيله ولا نستقيله .. (يعني قول الله تعالى : ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وتقدم واستشهد وصاحبه عند النَّيرب على مسافة كيلومتر ونصف جنوبى دمشق . وظل القتال بين الجانبين طول النهار ، فلما هبط الليل حجز بينهما .

وخاف معين الدين أنر أن تكون الدائرة عليه ، فأرسل يستنجد بسيف الدين غازى صاحب الموصل ، كأنما خاف على مصيره اذا هو استنجد بحلب وصاحبها نور الدين . وفى أثناء الليل وصلت الى معسكر المسلمين أرسال من خيل التركمان ورجالة الأطراف وأعداد كثيرة من المجاهدين من الزراع وأهل النواحى المجاورة لدمشق ، فعوضت خسائر اليوم الأول ، واستقوت النفوس ، واشتدت عزيمة الساهرين على أسوار البلد من أهل البلد والمقاتلين

وطلعت شمس الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة ٥٤٣/ ٢٥ يوليو ١١٤٨ وقد زال الروع من قلوب المسلمين وأفرغ الله عليهم الصبر ، فباكروا العدو بوابل من النبل والسهام ، فتأخر مشاتهم وأقبل الفرسان مدرعين فى دروع سابغة من الحديد تغطى الفارس وفرسه ، وكان فى المقدمة كنراد ملك الألمان ونبلاؤه ،

وما زال يجتهد حتى احتل « الربوة » على نهر بردى . وكان الصليبيون قد عانوا الأمرين فى مطاردة المسلمين من البساتين التى عسكروا فيها ، اذ كانوا يستترون بأشجارها ويرمونهم بنبلهم المصمى ، فاجتهد الصليبيون فى قطع الأشجار ، ثم أقاموا مما قطعوه من جذوعها متاريس تحميهم .

وظن الصليبيون أن وصول كنراد ومن معه الى هذا الموضع القريب من الأسوار مؤذن بوقوع البلد فى أيديهم ، فأسرع الكونت تييرى دى فلاندر الى مخيمات الملوك الثلاثة كنراد ولويس وبولدوين الثالث يطلب اليهم أن يولوه أميرا على دمشق اذا تم فتحها ، ولقى من بعضهم قبولا . وعلم بذلك بعض الأمراء الآخرين فأنكروه ، ووقع الخلاف بينهم . قال الدكتور حسن حبشى : « وبذلك كان بيع فراء الدب قبل صيده مثيرا للحسد فى نفوس بقية الأشراف الذين رأوا أنهم لا يقلون عن كونت فلاندر مكانة أو اقداما » .

ولكن اليوم التالى أتاهم بما لم يكونوا يتوقعون ، فقد أحاط بهم المجاهدون والمتطوعة ورماة النبل من كل جانب ، وأخذوا يرشقونهم بالسهام ويرمونهم بالأحجار ، وهم متحصنون خلف متاريسهم ، لا يجرؤ واحد منهم على تخطيها ، فاذا فعل عاجله

الموت ، ثم تسلل المجاهدون مرة أخرى فى البساتين واستتروا بما بقى من الأشجار وأخذوا يصرعون من يقع عليه بصرهم . وسكتت حركة الصليبيين حتى ظن المسلمون أن سكوتهم حيلة مدبرة ، وما كان الا خوفا وحيرة .

وتلاقى الملوك ورجالهم واشتوروا ، فاستقر رأيهم على الخروج من « هذه الشبكة التى حصلوا فيها » كما يقول أبو شامة . فخرج الجيش الصليبى كله من البساتين جنوبى المدينة ، وانتقل الى شرقيها بحذاء السور . ولم يكادوا يستقرون فى موضعهم الجديد حتى تبينوا أن موضعهم الأول كان أرحم بكثير ، فقد أصبحوا فى العراء يشد عليهم فرسان التركمان فى عنف ، ويرميهم الرماة بالنبل ، ثم ان الماء كان قليلا ، فأدركهم العطش وتبينوا أنهم قبالة أحصن مواقع السور ، وقد علاه المجاهدون يصبون عليهم الموت صبا ، ووقع فى ظنهم أن الذين نصحوهم بالانتقال من البساتين لم يفعلوا ذلك الا لقاء مال دسه اليهم المسلمون ، ثم تواترت الأنباء بأن نور الدين قد اقترب من دمشق بقواته ، فزاد أمرهم فشلا ، وأيقنوا بالهزيمة .

وبينما هم فى ذلك الموقف الحرج تجددت بينهم الخلافات على مصير دمشق ، وكان الطامعون فى أمر امتلاكها هم الأمراء الجدد

الذين حسبوا أن الشدة التى هم فيها ان هى الا أزمة عابرة ، اذ لم يخطر ببالهم أن للمسلمين هذا الجلد فى القتال ، وكان أشدهم طمعا تيبرى كونت فلاندر كما ذكرنا ، فقد زاد سعيه وامتد به الأمل الخادع الى أن قال انه يرجو أن يكون أميرا شبه مستقل على دمشق على مثال رايموند دى پواتييه فى أنطاكية ، وأيده فى مطلبه لويس وكنراد وبولدوين الثالث ، اذ كان صهره ، وأسرع أحد أمراء الصليبيين القدامى فى الشام ، وهوجى بريسبار صاحب بيروت يخطب امارة دمشق ويقول انه أولى بها من ذلك الطارىء ، ولقى أذنا صاغية من الملكة مليزاند وصاحبها مِنَسَّى ، ولكنه أحس أنه مخذول فائتمر مع نفر من أصحابه من الأمراء واتصلوا بمعين الدين أنر ، وعرضوا عليه أن يحملوا الصليبيين على الانسحاب اذا هو أعطاهم قدرا كبيرا من المال . وأنفذ المال اليهم ، فاستودعوه واحدا منهم هو اليناند أمير « الجليل » ، واتصل الخبر برجال العسكر ، ووجد المال فعلا عند اليناند .

وكان أنر قد لجأ الى ذلك ليتحاشى دخول نور الدين دمشق ، وكان قد اقترب منها وأقام عسكره فى حمص . ولو شاء نور الدين أن يتقدم ويأخذ دمشق فى ذلك الحين لفعل ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن المطامع فى أرض المسلمين ، فاكتفى بالمراقبة من

بعيد . ثم انه كان يحسب ألف حساب لما يمكن أن يفعله أنر ، وليس بمستبعد عليه أن يترامى على الصليبيين اذا هو رأى أمره الى ضياع على يد نور الدين ، فيضيع على المسلمين نصرهم الذى كسبوه الى هذا الحين .

وأخذ أنر يخيف الصليبيين بجيش نور الدين ، فمالت نفوسهم الى الانسحاب ، وفعل المال فعله فى نفوس من أخذوه ، واشتد هجوم المسلمين على العسكر الصليبى وزاد بهم العطش . وأحس كنراد ولويس أن صليبيى الشام طغمة من الطامعين الفاسدين لا يؤمن جانبهم ولا يستحقون معاونة ، فعولا على العودة الى القدس بمن معهما .

وبدأ الانسحاب فى اليوم الخامس لوصولهم قرب دمشق ، وهو الأربعاء ١١ ربيع الأول سنة ٥٤٣/٢٨ يوليو ١١٤٦ ، ومضى الجيش المفلول نحو القدس عن طريق الجليل ، وطارت جماعات فرسان التركمان ومقاتلة المسلمين خلفه تتخطف من استأخر أو شذ عن العسكر ، حتى خلفوا وراءهم خطا من القتلى ، فما كان أشبههم اذ ذاك بجيش نابليون فى عودته الكسيرة من حملته على روسيا فى شتاء سنة ١٨١٢ . ووصل الجيش الى القدس منهوك القوى ، ودخلها خافض الرأس ذليلا ، وعجل المقاتلون من صليبيى

الشام الى نواحيهم ، وتفرق الباقون فيما قسم لهم من دور يطلبون الراحة .

وقد قضت هذه الحملة على هيبة الصليبيين قضاء مبرما ، وتلاشت أسطورة قوتهم التى لا تغلب ، وجرؤ عليهم الناس فى كل مكان ، وبات نجمهم وشيك الأفول ، بالضبط كما حدث للأسطورة النابليونية بعد حملة الروسيا . ولم يحطم أسطورة الصليبيين الا ارتفاع قوة المسلمين المعنوية نتيجة لاتحادهم ووقوفهم صفا واحدا وايمانهم بأنهم اليوم قلب واحد ، وقد شدوا ظهورهم بنور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازى .

هكذا تحطمت حملة صليبية كاملة على صخرة روح الفداء والاتحاد الذى شمل العرب والمسلمين ، فهذه حملة اشتركت فيها أربع ممالك من أوروبا تؤيدها مملكة بيت المقدس تلاشى أمرها كأنه ورق خريف تذروه الرياح . وما أشبه هذا بما وقع بعد نيف وثمانية قرون فى بور سعيد ، حين تحطمت قوات دولتين أوروبيتين هما انجلترا وفرنسا ، تؤيدهما قوات جماعة طارئة على فلسطين محتلة لأرضها هم جماعة الصهيونيين! وكما انتصرت دمشق بالاتحاد كذلك انتصرت بور سعيد بالاتحاد وروح البذل والفداء التى شملت العرب أجمعين ، يقودهم ويبعث فيهم روح النضال رجال الثورة المصرية العربية التى أيقظت العرب أجمعين .

وأسرع كنراد فغادر فلسطين من ميناء عكا فى ٢١ ربيع الثانى سنة ٥٤٣ / الخامس من سبتمبر سنة ١١٤٨ ووصل الى القسطنطينية ليحتفل بزواج أخيه هاينريخ دوق النمسا الى تيودورا ابنة أخى مانويل كومنين ، وبينما كان الملك المهزوم يحاول أن يتعزى عما أصابه بمباهج الزفاف ، كان أهل القسطنطينية يبكون ، لا على مصير الحملة الضائعة ، وانما لأن تلك الأميرة الجميلة تزف الى جلف متبربر مثل هاينريخ ! كما قال شاعرهم برودموس . وفى رمضان سنة ٥٤٣ / فبراير سنة ١١٤٩ رحل كنراد الى وطنه قانعا من الغنيمة بالاياب .

وفى أوائل صيف ١١٤٩/٥٤٣ ركب لويس السابع ومن معه السفن عائدين الى بلادهم . وكانت نفس لويس قد تغيرت على مانويل كومنين ، فقرر أن يعاقبه على ما قارف فى حق الحملة الصليبية من خيانة . وكان كنراد قد حالف مانويل على أن يكونا يدا واحدة على رجار النورمانى صاحب صقلية ، وكان عدو البيزنطيين اللدود ، لا يفتأ يغزو أراضيهم فى البلقان ، واتفق الاثنان على القضاء عليه واقتسام مملكته .

ونمى ذلك الى لويس السابع فقرر محالفة رجار ، وبينما كانت سفنه تمر بين جزائر البلوبونيز هاجمتها سفن البيزنطيين ،

فأمر الملك برفع العلم الفرنسى على سفينته حتى يضمن السلامة ، فنجت سفينته ، واستولى البيزنطيون على سفينة أخرى من سفنه ونهبوا ما فيها وأخذوا رجالها أسرى ، فكان ذلك شر ختام لهذه الحملة ، ولم تسمح نفس مانويل باطلاق سراح أسراه الصليبيين الا بعد جهد شديد .

*

وأقبلت المصائب تباعا على الصليبيين ، والمصائب تأتى جماعات كما يقول شيكسبير : مر لويس السابع ببلاد الملك رجار النرمانى فى جنوب ايطاليا وصقلية ، والتقى معه فى بوتنزا واتفق الاثنان على القضاء على دولة البيزنطيين عقابا لها على ما خانت الصليبيين ، وما ألحقت بالفرنسيين من مهانة حينما هاجمت أسطولهم وأسرت رجالهم . وعاد لويس الى فرنسا وقد عقد العزم على تنفيذ ما اتفقا عليه ، وما زال بكبار أهل مملكته حتى أقنعهم بضرورة تحقيق هذا المشروع ، واستدعى الملك القديس برنار ، وحدثه فى الأمر فلقى منه أذنا صاغية ، وأخذ هذا الرجل يدبج الخطب ويلقيها فى أسلوبه البليغ داعيا هذه المرة الى القضاء على دولة مسيحية هى الدولة البيزنطية ، وسبحان مغير الأحوال !

وأسرع برنار الى كنراد ملك ألمانيا يحاول اقناعه فلم يوفق ،

اذ كان هذا قد عقد الخناصر مع مانويل كومنين وأصهر اليه ، ولم تتحقق حملة الغرب المسيحى على الشرق المسيحى هذه المرة ، ولكن الفكرة ما زالت تختمر فى الأذهان حتى تحققت بعد خمسين سنة ، عندما كانت الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦٠٠ / ١٢٠٤ متجهة نحو القسطنطينية ، فاستولت عليها ، وأقامت فيها دولة لاتينية ظلت تحكمها مدى ستين عاما .

وكان الكونت برترام ، الابن غير الشرعى لألفونسو چوردان ابن رايموند كونت تولوز (رأس الحملة الصليبية الأولى وأول أمراء امارة طرابلس الصليبية) قد تلكأ فى الشام بعد رحيل الملك لويس السابع والفرنسيين . كان يرى نفسه أحق بامارة طرابلس من صاحبها الأول ومنشئها ، وأضمر الاستيلاء عليها بالقوة . فجمع نفرا من فرسانه وزعم أنه متجه نحو الساحل ليبحر من احدى موانيه ، فلما قارب حصن «العُرَيمة» انقض عليه ودخله وتحصن فيه ، وريع رايموند دى پواتييه صاحب أنطاكية للأمر ، ولم يستطع التغلب على برترام ، وتلفت يلتمس المعونة من الصليبيين فلم يجد منهم معيناً ، فاتجه نحو معين الدين أنر ونور الدين محمود صاحب حلب وسيف الدين غازى صاحب الموصل يستعين بهم .

وتلكأ أنر على عهده ، ولكن نور الدين خف الى الفرصة

ينتهزها ، اذ وجدها سبيلا يمد بها ذراعا بين امارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس ، ومضى بقواته فاستولى على حصنى باسوطا وهاب ، ورأى أنر منه العزيمة فلم يجد محيصا عن الانضمام اليه ، وحاصرت قواتهما العريمة واستولت عليها وسوتها بالتراب ، ووقع برترام وأخته أسيرين فى يد نور الدين ، فعاد بهما الى حلب ، حيث ظلا أسيرين اثنتى عشرة سنة (٥٤٣/١١٤٩).

هكذا ختمت قصة الحملة الصليبية الثانية ، ولقد ذهب المؤرخون الأوروبيون مذاهب شتى فى تعليل الهزيمة ، فذهب الفرنسيون — قدامى ومحدثين — الى أن السبب خيانة مانويل كومنين الامبراطور البيزنطى ، وذهب الألمان والانجليز المحدثون الى أن السبب سوء تصرف رؤساء الحملة وتقاعس الصليبيين فى الشام . وهذه كلها أسباب لا تبرر ذلك الفشل الذريع ، فان سياسة الدولة البيزنطية فى هذه الحملة لم تختلف عن سياستها أثناء الحملة الصليبية الأولى ، وقد رأيت اختلافها مع الصليبيين حول أنطاكية ، وكذلك لم تخل الحملة الصليبية الأولى من أخطاء عسكرية وقع فيها قادتها ، ثم ان الخلاف بينهم فى الأولى لم يقل عن اختلافهم فى الثانية .

أما الجديد حقا فهو نهوض المسلمين واتحادهم وتضام صفوفهم

وارتفاع قواهم المعنوية نتيجة لهذا الاتحاد ، فقد رأيت اقدام المسلمين على مهاجمة جيوش الألمان والفرنسيين فى آسية الصغرى وكيف أرغموا الصليبيين على الخروج منها والسفر الى فلسطين عن طريق البحر ، وجميع أولئك المسلمين الذين قاموا بذلك العمل الجليل كانوا متطوعين حفزتهم الحماسة الوطنية وحمية الرجال على الاقدام دون أن يوجههم ملك أو أمير ، فقد كانت قوة دولة سلاچقة الروم مضعضعة فى قونية ، وكان سلطانهم قلج أرسلان الثانى بعيدا عن فكرة التصدى للصليبيين قانعا بحلفه مع مانويل كومنين.

ولكن الشعب العربى كان قد صحا واندفع يذود عن بلاده بنفسه ، وأمام صحوته تنبه الغافلون من أصحاب السلطان — مثل قلج أرسلان هذا — واضطروا الى المسير الى العدو والمساهمة فى قتاله . وكانت هذه الشعوب الناهضة تشد ظهرها بالبطل المجاهد نور الدين ، وتعلم أنه معها فى الميدان وقد عقد العزم على السير بالجهاد الى غايته . وأمام حماسة الدمشقيين وعزمهم على الدفاع عن مدينتهم حتى الموت اضطر معين الدين أنر الى الوقوف فى وجه الصليبيين والاشتراك فى الدفاع .

ولقد حاول أن يلتوى ويماطل ، فاذا بنور الدين يتقدم بجيوشه الى حمص على أهبة المسير للقاء الصليبيين ، وبعث قرب

قواته فى قلوب المسلمين فى الشام قوة معنوية كبرى ففاضت حماستهم وأغرقت الأعداء ، وخاف معين الدين أنر أن يغرقه التيار فاستبسل ، وبدت منه فى هذه المرحلة الأخيرة من حياته الطويلة شجاعة يحمدها له المؤرخون . ولم يكن له بد من أن يسير مع التيار ، وكأنما كان شوقى يعنيه عندما قال :

تحرك أبا الهول ! هذا زمان　　تحرك ما فيه ، حتى الحجر !

— ٧ —

نور الدين يضم دمشق إلى جبهة الجهاد

وقفتَ فى الجيش والأعلام خافقةٌ ... بالنصر ، كل قنـــاة فوقها علمُ
يحوطك الله صـــوناً من عيونهم ... والله يعصم مَن بالله يعتصم

« القيسرانى »

كان فشل الحملة الصليبية على الشام ، وانسحاب الباقين من رجالها الى بلادهم فرصة ذهبية أتيحت لنور الدين ، فقد باتت الامارات الصليبية فى حال من الضعف والخوف لا تمكن أصحابها من رفع رءوسهم من جديد ، ولم يكن هناك أمل فى أن يصل مدد من الغرب خلال السنوات التالية . كان لابد أن ينقضى زمان طويل ينسى الغرب الأوربى أثناءه ويلات الحملة الثانية وعار هزيمتها ، وكان على نور الدين أن يخطو ليحقق أهدافه فى الوحدة وجمع الصفوف

واجلاء بقايا الصليبيين من أرض الشام . وقد آثر أن يسير فى طريقه مستأنيا ، حريصا على أن يضم بلاد اخوانه المسلمين بالحسنى فلا ينغص على واحد منهم حياته ، ولا يقهره على أرضه ، بل يمد له فى حبال الصبر حتى يكسب بالحسنى والرفق ما تعجز عن كسبه الأسنة والرماح .

وكان أخوه سيف الدين غازى عضده فى كل ما طلب ، وكان غازى أسن منه ، ولكنه كان هادىء الطبع لين الجانب مبتلى بالأمراض ، فكان يسلم أمره لنور الدين ويستجيب له اذا دعاه ، ويمده بالجند اذا طلب ، وقد كان تصافى هذين الأخوين نعمة من نعم الله على قضية الوحدة والتحرير ، ورمزا على ما شمل المسلمين كلهم من اخاء ووفاء .

ولم يكد جوسلين الثانى صاحب تل باشر يرى آخر جنود الحملة الصليبية الثانية يغادر فلسطين حتى أيقن بقرب نهايته ، وهداه رأيه الى أن يستأمن لنور الدين ، فخرج الى معسكره حاملا راية بيضاء ، وطلب أن يضعه نور الدين تحت حماه ويعتبره من أتباعه ، وأحرج نور الدين ، اذ لم يشأ أن يضفى عليه حمايته ويضمه الى أتباعه ، لأن ذلك يحول بينه وبين الاستيلاء على ما بقى من امارة الرها ، بل يكون مضطرا لحمايته والمحافظة له على

ما بيده من أرض ، ولم يكن يتمشى مع الشهامة العربية أن يرد رجلا استأمن اليه وأتاه طائعا ، فاختار حلا وسطا ، وعقد معه هدنة قصيرة الأجل .

وبلغ النبأ مسعودا سلطان سلاچقة آسية الصغرى ، وطمع هو الآخر فى أن يطوى امارة أنطاكية تحت جناحه ، فجمع جمعا ، ومضى فهاجم مرعش لعل صاحبها رايموند دى پواتييه يرهبه ويدخل فى طاعته . ولكنه لم يكد يخب بالمطى الا قليلا حتى نهض له رايموند ، وانضم اليه علىّ بن وفاء شيخ جماعة الباطنية بنفر من رجاله ، واجتاحا أراضيه ، فأسرع مسعود يستغيث بنور الدين فعجل هذا بالمسير نحو ناحية من بلاد امارة أنطاكية دون أن يستكمل العدة لهذا الهجوم ، وكان قائده أسد الدين شيركوه منحرف الصدر لأن نور الدين فضل عليه منافسه مجد الدين بن الداية وزاد محله قربا ، فأساء شيركوه الى ابن الداية فتراخى فى القتال والتقى الجمعان عند بغرا — أو بغراس — ولم يدرك نور الدين أمله المنشود فى النصر الكامل فانسحب بمن معه ، وتدارك أمر أسد الدين شيركوه .

وأعاد نور الدين الكرة ، فأغار على بصرى ، وكانت تحت سلطان امارة أنطاكية ، ومنها انتقل الى بغراس ليلقى رايموند من

جديد بعد أن أعد العدة وأصلح بين قائديه ، واضطره الى الفرار أمامه ، ثم اتجه جنوبا وحاصر « انّب » وكانت عدة جيشه ستة آلاف فارس غير المشاة والمتطوعة ، ونهض رايموند دى پواتييه للقائه فى أربعة آلاف فارس وألف من المشـــاة ، فاســـتقر رأى نور الدين على أن يقضى على هذه القوة الكبيرة قضاء تاما ، فرفع الحصار ومضى جنوبا ورايموند يتابعه ، فلما هبط الليل ضرب خيامه فى وهدة من الأرض قرب عين مراد — بين « أنب » وبحيرة ضحلة تسمى « غاب » — فزحفت قوات نور الدين وأحاطت به وبجيشه .

فلما أصبح الصباح أدرك رايموند أنه قد أحيط به وأن لا أمل له الا فى الاندفاع بنفر من خيرة فرسانه واختراق الحصـــار ، ثم يتبعهم بقية الجيش . وكان المسلمون عـــلى السفوح المحيطة بالوهدة ، فما كاد رايموند ومن معه يندفعون حتى ردوهم وأعملوا السيوف فى جيش أنطاكية ، وصبوا عليه السهام فتساقط رجاله صرعى ، فلم ينج منهم من القتل الا من وقع فى الأسر ، واندفع أسد الدين شيركوه فقتل رايموند بيده ، وكان بين القتلى رينالد صاحب مرعش وشيخ الاسماعيلية على بن وفاء (صـــفر ٥٤٤/ يوليو ١١٥٠) ثم أسرع نور الدين يحاصر أنطاكية ، فاستنجد

أهلها ببلدوين الثالث صاحب بيت المقدس ، وأسرع هذا بقوة من رجاله لانجادهم ·

وكان نور الدين حريصا على ألا يجتمع عليه أهل مملكة بيت المقدس وأهل أنطاكية ، وكانت رسلهم تتردد عليه فى الصلح ، فهادنهم لمدة قصيرة على أن يأخذ كل ما حول أنطاكية من الحصون فلم يعد لها الا شريط من الأرض يمتد حتى اللاذقية ، وبذلك ارتد بولدوين عن أنطاكية وأصبحت هذه قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى يد نور الدين ·

وانقضى أمد الهدنة ، فأسرع نور الدين واحتل حارم وأرتاح ، وظهر من جـديد أمـام أنطاكية ، وغزا بلادها حتى السويدية (سان سيميون) ، فاستغاث أهلها بجوسلين الثانى ، وبدلا من أن يسير هذا لنجدتهم مضى نحو مرعش ليأخذها ، اذ اعتبر نفسه وارث رينالد الذى قتل يوم هزيمة عين مراد ، فسار نحوه مسعود سلطان سلاجقة آسية الصغرى · وتمكن جوسلين الثـانى من دخولها بمعاونة نفر من أهلها النصارى ، فأخرجه مسعود منها ، وأمر الذين اشتركوا فى تسليمها لجوسلين بالخروج الى أنطاكية ، فلما توسطوا الطريق انقضت عليهم جماعة من المقاتلين فأبادتهم ·

وانتهت هدنة نور الدين مع جوسلين فى شتاء سـنة ٥٤٣ /

١١٤٩ ، فبادر بالعمل . وكان قد ساءه أن ينتهز هذا الرجل فرصة الهدنة معه ليؤذى بقية المسلمين ، فسار نحوه فى ذى الحجة ٥٤٤/ أبريل سنة ١١٥٠ . فاذا هو يغير على بلاده اذ أوقعه الله فى يده على أهون سبيل ، ذلك أن جوسلين الثانى كان ذا غارة وفتك حتى وصفه المؤرخون المعاصرون بأنه كان « شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج ، شـديد العداوة للمسلمين ، وكان يتقدم على الفرنج فى حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه ، وشدة عداوته للملة الاسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها » .

ولكنه كان الى جانب ذلك فاسدا منحل الخلق ، لا يكف عن طلب النسـاء ، فخرج فى قطعة من فرسانه متجها نحـو أنطاكية ليجتمع بمن فيها ، لينظروا فى أمر من يحل محل رايموند دى پواتييه المقتول . فلما كانوا فى بعض الطريق حانت له فرصة الانقضاض على جماعة من التركمان كانوا قد أراحوا على الطريق فأصاب عددا من نسائهم ، فثارت حمية الباقين منهم وكروا عليه وأخذوه امساكا باليد ، وبلغ الخبر نور الدين فأرسل من تسلمه منهم ، وأرسله الى حلب ، حيث سملت عيناه وسجن فى قلعتها حتى مات بعد تسع سنين (١١٥٩/٥٥٤) .

هكذا خلت الامارتان الصليبيتان من رجل يقوم بأمورهما :

فأما أنطاكية ، فقد تولى أمرها البطريق «ايمرى» ورتب شئونها ريثما يصل بولدوين الثالث ملك بيت المقدس وينظر فى أمرها ، وأما بقية امارة الرها فلم تجد من يلم شعثها . وكانت بياتريس ، أرملة جوسلين الثانى قد اجتهدت فى القبض على زمام الأرمن ففشلت ، فاذا هى فى حيرتها اذا بمانويل كومنين يتقدم عارضا شراء حطام الامارة منها ، ودفع الامبراطور مبلغا طائلا من الذهب وتسلم تل باشر وراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك وغيرها ، واحتفظت بياتريس ببلدة قلعة الروم لحصانتها ، حاسبة أنها تستطيع أن تقضى فيها بقية أيامها فى سلام .

ولكن أملها خاب فيما رجته ، وكذلك خاب أمل مانويل فيما اشتراه ، ذلك أنها وجدت أنها لا تستطيع البقاء فيها فتخلت عنها لرئيس أرمنى ورحلت الى أنطاكية يصحبها من بقى من الفرسان . ولم يهنأ مانويل بالبلاد التى اشتراها عاما واحدا ، اذ اتفق تمر تاش أمير ماردين ومسعود سلطان سلاجقة آسية الصغرى ونور الدين على تقاسمها ، فأخذ الأول سميساط والبيرة وأخذ الثانى عينتاب ودلوك ، وأخذ الثالث — نور الدين — راوندان ثم لم يلبث أن أضاف اليها تل باشر (جمادى الأولى سنة ٥٤٥/يوليو ١١٥١) ، وبهذا تلاشى كل أثر لامارة الرها ، وردت الينا بضاعتنا .

وقبل ذلك بقليـــل ، ربيع الآخـــر ٥٤٥/مايو ١١٥١ توفى معين الدين أنر بعد عمر طويل قضاه فى الكيد والتدبير ومعارضة الوحــدة الاسلامية ، وكان يقوم بأمر دمشق تؤيده عصبة من المستبدين المستمتعين بخيرات البلد معه ، وكان قد فرض وصاية على مجير الدين آبق أمير البلد وحفيد تاج الملك بورى . فلما مات نهض مجير الدين وقبض على الأمر ، ولكن عصبة أنر فرضت عليه رجلا يسمى مؤيد الدولة المسيَّب بن على ، وجعلته يقيمه وزيرا له ليطلق أيديهم فى الأمور كما كانوا ، فقبل ، ثم بدأت المنازعات ، وتعصب لكل فريق جماعة من أهل البلد ، واشتدت الخصومة حتى وقعت الحرب بين الجانبين . وساء حال البلد وأهله ، وخاف نور الدين اذا استمر هذا الحال أن يفضى الأمر الى وقوع دمشق وتوابعها فى أيدى مملكة بيت المقدس ، وأدرك أن الوقت قد حان لضمها الى جبهة الجهاد .

ولكن الاستيلاء على هذه الامارة الواسعة بعض الشىء لم يكن بالأمر اليسير ، لا لقوة من فيها وكثرة جندها ، بل لأن هذه العصبة التى سيطرت عليها كانت ترى فى الصليبيين سندا لها ، ولهذا لم تكن لتتخلى عن التحالف معهم مهما فعلوا ، وكان نور الدين يعلم ذلك ويحاذر أن يشتد فى قصد البلد أو حصاره مخافة أن يقع ما يخشاه .

وكان بولدوين الثالث ورجاله يفهمون الموقف فهما كاملا ، ويعلمون أن حصول دمشق فى يد نور الدين معناه نهاية مملكتهم ، ولهذا فقد كانوا من جانبهم لا يسرفون فى الغارة على بلاد دمشق حتى لا يضطر أصحاب الأمر فيها الى تسليمها لنور الدين ، فاكتفوا بالضربات والغارات السريعة على اقليم حوران ، ووجهوا قواهم نحو البقية الباقية من أملاك الفاطميين فى جنوب غربى فلسطين ، وانتهزوا فرصة استحالة مجىء نور الدين لاغاثة هـذه البلاد ، فاستولوا على صور وعسقلان ، كما سيجىء . وكان قلب نور الدين ينفطر ألما لاستحالة انقاذهما عليه ، فجعل يدير الرأى ويجمع العدة وقد استقر عزمه على استخلاصهما من أيدى أولئك العابثين .

وبينما نور الدين يستعد اذ بلغه نبأ موت أخيه سيف الدين غازى (جمادى الآخرة ٥٤٥ / يوليو ١١٥١) فأسرع قطب الدين مودود — وهو الابن الثالث لعماد الدين زنكى ، وكان مع أخيه سيف الدين غازى — ووضع يده على الموصل وطلب الامارة لنفسه. وكان نور الدين يكبره ، وهو أولى — شرعا وكفاية — بالولاية منه ، فسار نحو الموصل ، وكان يتولى أمرها باسم قطب الدين الأمير جمال الدين محمد بن على الذى ذكرناه ، وكان رجلا عاقلا صالحا ، فما زال يسعى حتى وفق بين الأخوين ، واستقر الأمر

على أن تكون الموصل والبلاد الجزرية — عدا سنجار — لقطب الدين على أن يخطب فى بلاده لنور الدين ، بحيث تكون هى وحلب دولة واحدة .

ورضى بذلك نور الدين لما فى نفسه من قناعة وكره لمعاداة أهله واخوانه ، بل نزل لأخيه عن حمص فى مقابل سنجار ، واستقر الأمر على ذلك ، وعادت الوحدة والصفاء ، واطمأن نور الدين من هذه الناحية وعاد الى حلب ليواصل جهاده ، وقد امتد ملكه حتى شمل بلاد أبيه كلها .

وقد أعجب نور الدين بالوزير جمال الدين محمد بن على ، وطلب اليه أن ينتقل الى حلب ليكون معه ، فاعتذر جمال الدين وقال مقالة أريب : « أنت عندك من الكفاية ما يستغنى به عن وزير ومشير ، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانةً ، وأعداء أخيك مسلمون ، فيحتاج من يقوم بدفعهم . واذا كنتُ عند أخيك فالنفع اليك عائد . وأريد من بلادك مثل ما لى من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجى (يريد : نفقاتى) » ، فأجابه الى ذلك ، فقال له جمال الدين : « أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار ، فيجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة » ، فأمر له بها . فكأن نائب جمال الدين

يقبضها كل سنة ويشترى بها أسرى من الفرنج ويطلقهم ·

واتجه نور الدين بكل قواه ليفرغ من أمر دمشق ، وكان هدفه الأول كسب الرأى العام فى البلد الى جانبه حتى يقف الناس معه أمام الطغمة الباغية التى تستبد بالأمور بمعاونة قوات من الجند المرتزق ، وكانت وسيلته الى ذلك أن يترك المتنافسين على السلطان فى دمشق منصرفين الى عبثهم ، ويتولى عنهم أمر دفع الصليبيين عن بلاد دمشق ، فيرى الناس أنه ناصر الحق والعرب وحامى ذمار الاســلام ·

ففى أواخر سنة ٥٤٥ / مارس ١١٥١ أوغلت قوات مملكة بيت المقدس فى أرض حوران ، فأسرع نور الدين ليدفعهم عنها ، وكتب وهو فى الطريق الى مجد الدين آبق ورجاله يطلب اليهم أن يمدوه بمعونة قدرها ألف فارس مع قائد يعتمد عليه ، فردوا عليه ردا سيئا وأغلظوا له فى الكلام · ولم يكن يعنيه ردهم فى شىء ، فقد كان يتوقعه وكان فى غنى عن عونهم ، ولكنه أراد أن يظهر للناس حقيقــة أمرهم ، واستمر فى طريقــه حتى اضطر الصليبيين الى العودة الى بلادهم ، ثم عاد فاقترب من دمشق ، وأصدر الى جنده الأوامر الحاسمة بألا يمسوا شجرة أو يفسدوا زرعا ، بل جعل يقدم الأقوات والأموال الى الفلاحين المحيطين بالبلد للتخفيف

عنهم ، فهفت القلوب اليه وتواصل الدعاء له ، وكان المطر قد استأخر على هذه النواحى ، فلما أهل عليها نور الدين هطل على الأرض مدرارا ، فروى النـــاس وسقيت الأرض وزاد تعـــلق الناس به .

ومن موضع « منازل العساكر » على أربعة أميال جنوبى دمشق كتب الى مجير الدين آبق وأصحابه يقول : « اننى ما أردت بنزولى هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وانما دعانى الى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج ، وعدم الناصر لهم . ولا يسعنى — مع ما أعطانى الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال — أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم ، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذى دعاكم الى الاستصراخ بالفرنج على محاربتى ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين . ولابد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة » (١) .

(١) كانتــا قد سقطتا فى يد الصليبيين كما سيجىء .

أتدرى كيف كان رد أولئك الناس عليه ؟ : « ليس بيننا وبينك الا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت الينا ! » . وقد بلغ عجب نور الدين من سفاهة أولئك الناس كل مبلغ ، وازداد اصرارا على ضرورة القضاء عليهم ، قبل أن يقارفوا حماقة لا تعود مضرتها الا على العرب والمسلمين .

ورأى مجير الدين ورجاله من عزم نور الدين ما أوقع الرعب فى نفوسهم ، فسارعوا فى المحرم سنة ٥٤٦ / ابريل ١١٥١ وكتبوا اليه يطلبون الاجتماع به ، وعرضوا عليه أن يدخلوا فى طاعته على أن يظلوا فى حكم البلد . ووجد نور الدين أنها خطوة لا بأس بها ، والسبب فى ذلك — كما يقول ابن القلانسى صاحب « ذيل تاريخ دمشق » — « أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين ان أقام على حربها والمضايقة لها » ، وخرج مجير الدين ووزيره للقاء نور الدين فأحسن استقبالهما وأكرمهما ، ورأيا من طيب خلقه ما ملأ قلبيهما أمنا ، وانتهز أهل البلد الفرصة فخرجوا جماعات ليملأوا عيونهم من طلعة نور الدين ، فاختص طلبة العلم وقراء القرآن وضعفاء الناس بعطفه وحبه ، وأوسعهم كرما واحسانا .

*

ولكن الاحسان لا يثمر عند اللئام ، فما هو الا أن ثنى

نور الدين عنانه عن دمشق حتى عاد مجير الدين وأصحابه يتصلون بالفرنج ويمدون لهم يد المودة ويدفعون لهم الأموال ويأذنون لهم فى دخول البلد ، فعاد اليها ونزل بعسكره قربها ، وبعث الى ولاة البلد يقول : « أنا ما أوثر الا صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين وخلاص من فى أيديهم من الأسارى ، فان ظهرتم معى فى عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد ، فذلك هو المراد » .

وكان الرجل يحسب أن قلوبهم لا زال فيها عرق من المروءة والشهامة ينبض ، فما لبثوا أن خيبوا ظنه وكتبوا اليه يرفضون ، بل مضوا يبعثون بجماعات من جندهم تفسد الزروع المحيطة ببلدهم حتى لا يستقوى بها نور الدين ! واستنجدوا بالصليبيين فأسرعوا لعونهم ، وأقبل الملك أمورى ملك بيت المقدس الجديد فى نفر من فرسانه فأدخلوه البلد ومضوا يتشاورون معه . وعجل نور الدين فأرسل قطعة من جيشه عدتها أربعة آلاف فارس ليردوا عسكر بيت المقدس عن البلد ونواحيه ، فأوقفتهم عند بصرى ، ثم اقترب من البلد مجتهدا فى تجنب القتال مع المسلمين . وطال مكثه خارج الأسوار ، ولكنه كان قد عزم على الفراغ من أمر دمشق فجعل مقامه غير بعيد عنها .

واستمر الحال على ذلك الى سنة ٥٤٩ / ١١٥٤ ، وكان الفساد

قد بلغ بحكم دمشق مبلغا جعل الناس يضجون ويطالبون باصلاح الحال ، فاضطر مجير الدين الى اعدام أحد وزرائه واطلاق الشعب على دوره فنهبوها .

ثم ان أمورى ملك بيت المقدس ، بعد استيلائه على عسقلان ، اطمأنت نفسه من ناحية حدوده الجنوبية ، فأقبل يشتد على دمشق حتى قرر عليها قطيعة من المال تؤديها كل عام ، وبعث جباته يجبونها من أهل البلد مباشرة .

ثم زاد الأمر حتى أذن لرجال الصليبيين بالبحث عن أسراهم داخل البلد ، فمن أحب المقام منهم تركوه ومن أراد العودة اليهم أخذوه ، فانفجرت مراجل غضب الشعب وثار على مجير الدين آبق فحصروه فى القلعة مع رجل من معاونيه يسمى مؤيد الدين بن الصوفى ، فكتب اليه نور الدين يلومه ويؤكد له أن رحمته ما زالت تتسع للعفو عنه واكرامه اذا هو أسلم البلد .

وانما لجأ نور الدين الى ذلك خوفا من أن يعود هذا الفاسد الى الاستنجاد بالصليبيين ، « وانضاف الى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين ، فان الدم عنده كان عظيما ، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل » ، كما يقول ابن الأثير . وكان رجال مجير الدين يكاتبونه ويعرضون استعدادهم للانقلاب على

سيدهم ، فاكتفى نور الدين بابلاغ مجير الدين ما يقوله أنصاره أولا بأول ، فيصب عليهم العقاب وربما قتلهم ، كما فعل مع عطاء ابن حفاظ السلمى ، وكان قد فوض اليه أمر دولته . وما زال على ذلك حتى لم يبق الى جانبه من يستعين به ، وأقام وحيدا .

ثم خطا نور الدين الخطوة النهائية ، فأمر رجاله بأن يتصلوا بأنصاره فى دمشق ليقوموا بالوثبة الأخيرة ، فثار أهل البلد ثورة رجل واحد ، وتقدم القائد أسد الدين شيركوه نحو سور البلد من ناحيته الشرقية ، فأدلى الناس لجنده الحبال فصعدوا وعلوا السور وصاحوا : « نور الدين ، يامنصور ! » ، ويقال ان احدى نساء دمشق كانت أول من أدلى الحبال ، وكسر الجند باب البلد ودخل عسكر شيركوه .

ثم فتح باب توما ودخل منه نور الدين وخواصه ، فاستقبله الدمشقيون استقبال المخلص . ثم استقدم كبراء أهل البلد من القضاة والفقهاء والتجار وخاطبهم بما ملأ قلوبهم غبطة وأنسا ، ورجاهم الاجتهاد فى اصـــلاح ما وهن من أمور البلد ، وألغى الضرائب التى كان مجير الدين قد قدرها على الفواكه والخضر ومياه الرى والسقيا ، فزاد حب الناس له واستبشارهم بمقدمه .
وولى نور الدين أسد الدين شيركوه على البلد (المحرم سنة ٥٤٩/ مارس سنة ١١٥٤) .

هكذا ضم نور الدين دمشق وأعمالها ، وكانت تمتد جنوبا حتى تتاخم حدود مملكة بيت المقدس على خط طويل يمتد مستعرضا شمالى ناحية الجليل ، فزالت هذه الفجوة الواسعة التى كانت تحجز بين نور الدين وملاقاة هذه المملكة وجها لوجه . وازدادت جبهة الاسلام قوة بدخول دمشق ورجالها وأنجادها فى جبهة الكفاح والتحرير ، وانفتح الطريق الى مصر ، لأن الطريق من نواحى دمشق اليها كان مفتوحا وان كان يخترق الأراضى التى تحتلها مملكة بيت المقدس ، فان رجال هذه المملكة كانوا عاجزين عن حراسة الأرياف وضبط الطرق ، انما كان همهم التشبث بالحصون والسيطرة على ما حولها .

وانضمام دمشق الى جبهة نور الدين يعد لهذا أعظم خطوة عسكرية خطاها المسلمون منذ ميلاد حركة التحرير أيام شرف الدولة مودود . وقد أدرك رجال مملكة بيت المقدس ذلك وباتوا على الخوف من نور الدين ، واتجه هذا ببصره الى الخطوة التالية : مصر .

فان جبهة العروبة المكافحة لا تستقوى كل الاستقواء ، ولا تشتد كأنها بنيان يمسك بعضه بعضا الا اذا انضمت اليها مصر فهى عقدة بلاد العروبة ومورد لا ينضب من الرجال والقوة

والمال ، وهى اذا اتحدت مع الشام والعراق كان ذلك مؤذنا بالنصر المؤزر ، وقد ملك نور الدين الآن الشام والجزيرة الفراتية والموصل ، وبقيت مصر وهى مدار المعركة القادمة التى خاضها نور الدين فى اقدام البطل الفاتح المحرر .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه المعركة الحاسمة ، لنمر سراعا ببلاد الصليبيين لنرى كيف صارت أحوالها فى أثناء ذلك كله ، لأن كمال هذا التاريخ لا يتحقق الا اذا أحطنا ، خطوة خطوة ، بما يجرى فى بلاد الأعداء .

ولقد استطردنا مع محاولات نور الدين لضم دمشق الى بلاده حتى جمعناها فى صعيد واحد ، ولنعد الآن الى ما استطردنا عن ذكره من الأحداث .

*

تركنا امارة أنطاكية وقد قتل أميرها رايموند دى پواتييه فى ربيع ٥٤٤/١١٥٠ مخلفا زوجة شابة هى كونستانس وأربعة أبناء صغار ، أكبرهم بوهيموند الذى عرف فيما بعد بالثالث . وتولى البطريق ايمرى شئون البلد حتى وصل بولدوين الثالث ملك بيت المقدس ليتدارك الأمر . وقد تبين منذ الوهلة الأولى أن الامارة فى حاجة الى أمير يحميها من نور الدين ، فمضى يختار لكونستانس

زوجا يعينها على أمور الحكم حتى يشب ابنها بوهيموند . فاقترح عليها ثلاثة رجال لتختار من بينهم واحدا ، فاستعرضتهم ببصرها ، فلم يعجبها واحد منهم . وتركها بولدوين ، وكان فى التاسعة عشرة من عمره ، وعاد الى بيت المقدس ، اذ لم تكن بلاده آمنة الى الدرجة التى تسمح له بالابتعاد عنها حتى تجد هذه الشابة المدللة زوجا يعجبها ، وكانت سنها اثنتين وعشرين سنة .

وأرسلت كونستانس سفارة الى مانويل كومنين ، امبراطور الدولة البيزنطية ترجوه أن يختار لها من بين رجاله أميرا يليق بها ، فرحب بالطلب ، واختار للأميرة أميرا نورمانى الأصل يسمى قيصر يوحنا روجر ، كان زوجا لابنته ، ثم توفيت عنه ، وكان رجلا فى الأربعين قد زايلته بهجة الشباب ، فمضى قيصر الى أنطاكية متأنقا محتفلا بنفسه ، ولكن عين الأميرة الشابة لم تكد تقع عليه حتى رجته أن يعود بأناقته واحتفاله من حيث جاء .

وبلغ الأمر بولدوين الثالث فأهمه ، ثم لم يلبث همه أن زاد بأخبار سيئة وردت عليه من امارة طرابلس ، ذلك أن الشقاق كان قد دب بين أميرها رايموند الثانى وزوجه هوديرنا وهى خالة بولدوين وأخت الملكة مليزاند . فقد كانت هوديرنا امرأة طائشة تتحدث الألسن عنها بما لا يحسن ، حتى وقع الشك فى نسب

ابنتها الى زوجها فوضعها فى حجرة وأغلقها عليها ، فاستغاثت بابن أختها ، فأقبل وأصلح ذات البين ، ثم اتجه الى أنطاكية ولام كونستانس على مسلكها ، وجمع نفــرا من الأشراف لاقناعها بالعدول عما هى فيه ، فأبت ، وأصرت على أن تبقى بلا زوج . وعاد بولدوين الى طرابلس ، ليستصحب خالته الى بيت المقدس ، لتقضى عنده أجازة تستريح خلالها من العناء الذى لاقته مع زوجها . فلما فصل بولدوين الثالث من طرابلس ومعه خالته ، خرج رايموند الثانى لوداعهما ، فلما كانت الجماعة عند الباب الجنوبى للبلد اذ انقض عليها نفر من الرجال فطعنوا رايموند واثنين من فرسانهم فأردوهم قتلى . فأصبحت طرابلس هى الأخرى بغير أمير ، ورجعت هوديرنا لتحكم الامارة وصية على ابنها بوهيموند الثالث .

وعاد بولدوين الثالث وأمه الى بيت المقدس ، فطلب أن يتوج ملكا اذ أنه بلغ سن الرشد ، وأصرت أمه على أن تتوج معه ، وأيدها فى ذلك صاحبها منسى وأنصاره ، وكانوا كثيرين . فما كان من بولدوين الا أن اقتحم الكنيسة مع نفر من فرسانه وأرغم البطريق على تتويجه وحده . وثار أنصار الملكة ، وكادت الحرب تقع بينهم ، وأخيرا اتفقوا على أن تكون ناحية الجليل وشمالى المملكة لبولدوين ، وبيت المقدس ونابلس للملكة . وكان هــذا

حلا أعرج لا يقنع به الملك ولا تنتظم به الأمور ، فتجدد النزاع وأرغمت هذه العجوز مليزاند على أن تعتزل السياسة وتكتفى بخراج بلدة نابلس ، ثم عزل صاحبها منسى ، وأقيم مقامه رجل يسمى هنفروا تورون من أصحاب الملك . وأعطيت يافا لأماليك، الأخ الأصغر لبولدوين الثالث ، وهو المعروف عند المسلمين باسم أمورى (سنة ١١٥٢/٥٤٦) .

وكانت هذه الخلافات الداخلية ذات نفع عظيم لنور الدين ، اذ أنه فى ذلك الحين كان قد مضى فى تنفيذ خطته للاستيلاء على دمشق ، وخاصة بعد موت معين الدين أنر ، فتمكن من ارغام مجير الدين وأصحابه على الاعتراف بسلطانه على دمشق وخطبوا له فيها وضربوا السكة باسمه على ما رويناه .

وخلال الشهور الأولى من حكومة بولدوين الثالث كانت أمور الفاطميين تسير من سيىء الى أسوأ ، فان الخليفة الآمر قتل بعد مصرع وزيره الأفضل بن شاهنشاه بقليل ، وأقبل من بعده الخليفة الحافظ ، أبو الميمون عبد المجيد . ومن غريب المفارقات أنه ولد فى عسقلان حتى كان يخاطب قبل الخلافة « بالأمير عبد المجيد العسقلانى ابن عم مولانا » وهو الذى أهمل أمر عسقلان حتى ضاعت بعد أيامه بقليل ! ذلك أنه كان رجلا سيىء التدبير لا يحسن

اختيار رجاله ، فما زال يبدل الوزراء حتى انتهى رأيه الى أن يجعل الوزارة فى أولاده ، فلم يكن حظه معهم بأحسن منه مع غيرهم ، اذ ثار عليه ابنه حسن وطلب هلاكه حتى استخفى ، ثم تمكن الحافظ منه وقتله .

وفى أثناء ذلك كانت المجاعة قد ضربت بجرانها على البلاد ، وغلت الأسعار ، واضطر الحافظ الى أن يسحب جانبا كبيرا من الحامية المصرية فى عسقلان ، فضعف أمرها ، وطمع فيها أهل مملكة بيت المقدس ، خاصة وقد أهمل الأسطول ، ولم يعد هناك أمل كبير فى أن يستطيع انجاد هذا الثغر اذا تهدده الخطر ، ومات الحافظ عن سبع وسبعين سنة حكم منها تسع عشرة (٥٤٤/١١٥٠) وخلفه ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور اسماعيل ، وكان أضعف من أبيه وأسوأ رأيا ، وقد غلب عليه وزراؤه نجم الدين بن مَصَّال اللكى ثم أبو الحسن على بن السَّلاَّر وركن الدين العباس بن أبى الفتوح ، ووقع النزاع بين هذين الأخيرين وبدا بوضوح أن أمر الدولة كله الى زوال .

وشرهت نفس بولدوين الثالث الى الاستيلاء على عسقلان ، فقد كانت شوكة فى جنب بلاده تصل اليها أساطيل الفاطميين بالأمداد والأقوات ، فيخرج رجالها للغارة على ما قرب منها من

البلاد ، ثم انها كانت محطة على الطريق بين الشام ومصر وملجأ للقوافل والسفار ، فبدأ بولدوين يحصن غزة ويشحنها بالأمداد ويشكها بالمقاتلة تمهيدا للهجوم على عسقلان . وبلغت الأخبار مصر واهتم لها الوزير ابن السلار ، فاستقر رأيه على الاستنجاد بنور الدين ، وكان فى ذلك الوقت معسكرا الى جوار دمشق . وكان أسامة بن منقذ مقيما فى مصر اذ ذاك ، فوقع اختيار ابن السلار عليه ليقوم بالسفارة لدى نور الدين ، فذهب اليه وطلب اليه باسم الخليفة الظافر أن يقوم بغارة على اقليم الجليل تشغل بولدوين عن عسقلان .

ولو كان نور الدين يثق فى الفاطميين وسفيرهم لما تردد فى القيام بالغارة المطلوبة ، ولكنه كان يعلم أنهم حفنة من الفاسدين المتعاونين مع الصليبيين لا يؤمن جانبهم ، ولعله يغامر بنفسه وجنوده فيجد الظافر ووزيره وسفيره قد ائتمروا عليه مع الصليبيين بليل ، فآثر ألا يستجيب الى هذا الطلب ، ونفسه تفيض بالألم لمصير هذا الثغر الاسلامى الهام الذى لا يستطيع نجدته ، اذ كان أصحاب دمشق لا يزالون على عنادهم لا تحفزهم عاطفة كريمة على التخلى عما هم فيه والانضمام لجبهة الكفاح . ولم يكن نور الدين ليأمن أن يتجه نحو عسقلان مخلفا أولئك الناس فى ظهره .

وكر أسامة بن منقذ عائدا الى مصر ، فألم بعسقلان وأقام فيها سنتين ، ثم عاد الى مصر ليشهد مأساة مصرع الوزير ابن السلار على يد قريبه وخليفته فى الوزارة العباس بن أبى الفتوح .

*

وعلى اثر ذلك ، فى ٢٨ شوال سنة ٢٢/٥٤٧ يناير ١١٥٣ نهض بولدوين بكل من أمكنه جمعه من الفرسان والمشاة وأدوات الحرب والحصار واتجه نحو عسقلان ، وخرج فى الحملة رئيسا الداوية والاسبتارية بخير رجالهم ومعظم الأساقفة ورجال الدين ، وحمل بطريق بيت المقدس قطعة من خشب كان رجال الدين قد أوهموا الناس أنها بقية الصليب الذى عذب عليه السيد المسيح على قولهم .

وكانت عسقلان اذ ذاك كالحصن الشامخ يدور حولها سور يمتد داخل البحر فى نصف دائرة كأنه درع يقيها هجمات البحر ، وكان فيها من الأقوات والذخائر « مالا يحصر فيذكر » ، كما يقول أبو شامة راويا عن ابن القلانسى .

وأقام بولدوين محاصرا لها بضعة أشهر لا يستطيع حيالها شيئا ، ثم أقبلت طائفة من حجاج النصارى من ناحية غزة وانضمت الى جيشه فزاد عدده ، واجتهدت حامية عسقلان فى دفع الخطر ،

فقامت بكرة على معسكر المحاصرين لم تؤت نتيجة ، ثم وصلت بضع مراكب من الأسطول الفاطمى فاستقوى بها العسقلانيون وأرسلوا يستنجدون بنور الدين محمود ومجير الدين آبق صاحب دمشق ، فتحمس نور الدين ودعا آبق والدمشقيين الى الخروج معه . وجمع هو « من سائر الأعمال والبلدان للغزو فى أحزاب الشرك والطغيان لنصرة أهل عسقلان على الافرنج النازلين عليها » .

والتقى نور الدين ومجير الدين عند حصن افليس ، على الطريق بين معرة النعمان وحلب ، وكان نور الدين قد فرغ من الاستيلاء عليه ، ومضى الاثنان نحو بانياس ليجبرا بولدوين على رفع الحصار عن عسقلان ، والاسراع لتدارك بلاده ، ولكن نور الدين أحس من ناحية حليفه بما أوقع الشك فى نواياه ، وأدرك أن التعاون معه لا يؤمن ، وزاده ايمانا بذلك أن بولدوين لم يتحرك من موضعه ولا خاف على بلاده ، فاستيقن نور الدين أن هناك أمرا مبيتا بين بولدوين ومجير الدين ورجاله ، فآثر العودة الى حلب وتجنيب جنده مالا تحمد عقباه ، وانصرف مجير الدين كذلك الى دمشق .

ومن البديهى أن رجلا مثله يبلغ به التفريط فى بلاده المبلغ الذى رأيناه لا يصدق اذا زعم أنه خارج لنجدة بلد ليس له هو عسقلان . ثم أقبل أسطول فاطمى كبير من سبعين سفينة محملة

بالرجال والأمداد ، وحاول جيرارد الصيداوى قائد الأسطول الصليبى أن يعترضه ففشل ، وأرست المراكب الفاطمية فى ميناء عسقلان ، وأفرغت حمولتها وعادت أدراجها نحو مصر ، واستمر الحصار .

واستعان الصليبيون على الثغر الحصين ببرج ضخم من الخشب يعلو على سور البلد ، أخذوا يقذفون منه الحجارة الضخمة وكرات القطن والخرق المبللة بالنفط المشتعل ، فتهدم البيوت وتشعل فيها النيران . وفى احدى الليالى تسلل نفر من المدافعين فأشعلوا النار فى البرج الهائل ، ولكن قضاء الله المحتوم أراد أن تهب الريح فتدفع بألسنة اللهب نحو حائط السور المقابل فاحترقت الحجارة وهشت ، وما أصبح الصباح حتى انهار جانب منه وانثلم السور ثلمة واسعة ، وكان فرسان جماعة الداوية على مقربة من ذلك الموضع ، فزعموا أنهم أصحاب الفضل فى ذلك ، وأصروا على أن يكونوا هم الذين يأخذون البلد ، ومنعوا غيرهم من الدخول ، ثم نفذ أربعون منهم من الثغرة ، فأحاط بهم المدافعون وقتلوهم عن آخرهم وألقوا بجثثهم الى أصحابهم المحاصرين ، ثم أسرعوا فرموا الثغرة وعادوا الى الدفاع .

وعقد الجانبان هدنة قصيرة ليدفن كل منهما موتاه ، وفى أثناء

هذه الهدنة عقد بولدوين الثالث مجلسا فى خيمته ليتدارس الموقف مع رجاله ، ومال نفر من البارونات الى رفع الحصار وترك البلد ، ولكن بطريق بيت المقدس وهو رايموند لى پوى الفرنسى أصر على ضرورة الاستمرار ، وأيده فى ذلك رئيس الداوية ، وما زال رجل الدين هذا يحرض أعضاء المجلس على الاستمرار فى الحصار والاشتداد على البلد وأهله بحجارة المنجنيق والقذائف الملتهبة حتى أقنعهم ، فعادوا يقصفون البلد على أعنف الصور وأقساها ، حتى تصاعدت ألسنة اللهب فى كل نواحيه ، وأيس أهله من المدد ، فطلبوا التسليم ، فأجيبوا اليه على أن يخرج الناس ويمضوا الى مصر سالمين لا يأخذ أحد منهم الا ما يستطيع حمله .

وبينما كان المسلمون يغادرون البلد دخل الصليبيون وتمكنوا من قلعة عسقلان واستولوا على ما وجدوه فيها من مئونة وافرة وسلاح كثير . ثم حولوا جامع البلد الى كنيسة سموها كنيسة القديس بولس ، وضمت هذه الكنيسة الى أسقفية بيت لحم ، وأقام الملك أخاه الأصغر أماليك (أمورى) — وكان كونتا ليافا — حاكما على البلد .

هكذا استولت مملكة بيت المقدس على آخر حصون الفاطميين فى الشام وأمنعها . وكانت عسقلان خلال السنين الخمسين الماضية

درة مدائن الاسلام فى جنوب الشام حتى كانت تسمى « عروس الشام » ، وقد أدت حاميتها أجل الخدمات فى محاربة الصليبيين ، ولهذا فقد كان لسقوطها فى يد الأعداء دوى عظيم ، وارتفعت به هامة بولدوين الثالث حتى أعاد الى أذهان الصليبيين ذكريات عصرهم الذهبى أيام بولدوين الأول والثانى .

وكان هذا الانتصار أيضا آخر انتصار كبير لهذه المملكة ، وبعد ذلك بدأ الانحدار السريع ، لأن نور الدين تبين أن مملكة بيت المقدس لازالت تملك من القـوة ما تستطيع أن توجه به الضربات القاسية ، اذ قد لجأ اليها الكثيرون من فرسان البلاد التى استولى عليها المسلمون فتضاعف عدد فرسانها ومقاتليها ، ثم ان رجال الكنيسة اللاتينية فيها — ومعظمهم فرنسيون — كانت قلوبهم تنطوى على حقد متفجر مؤذن بالضرر الشديد ، ولا سلام ولا أمان الا اذا قضى على هذه المملكة الواغلة عليهم ، وستكون هذه رسـالة نور الدين فيما بقى له من أيام العمر ، ورسـالة صلاح الدين عمره كله .

وبينما كان نور الدين يدير الرأى فى حسم هذا الداء ، بما عرف عنه من بعد النظر وسلامة التفكير واحكام الخطط ، كان مجير الدين آبق ورجاله يسرعون بطاعتهم الى بولدوين الثالث ،

وقد أرهبهم مظهر القوة الذى بدا فى حصار عسقلان والاستيلاء عليها ، فقرر عليهم جزية سـنوية ، وبعث رجاله يجمعونها داخل البلد على ماذكرناه ، وأخذ فرسانه يجوسون خـلال بلاد امارة دمشق ينهبون ويحرقون ويقتلون ، ومجير الدين ومن معه مصرون مع ذلك على الاسـتقلال عن نور الدين ، وصدق من قال : ان الانحطاط البشرى لا يعرف حدودا — وكان من نتيجة ذلك أن قرر نور الدين أن يضرب ضربته التى تريث طويلا قبل أن يقدم عليها ، فدخل دمشق بالقوة ، وضمها الى جبهة الكفاح والنضال، وأبى خلقه الكريم الا أن يفى لمجير الدين بما وعده به اذا هو سلم قلعة دمشق ، فأقامه على حمص ، ثم بدا له ما اقتضى نقله الى بالس ، ثم خاف الرجل على نفسه ، فمضى الى بغداد ، حيث عاش خاملا الى أن أدركه الموت .

وليت نهاية مجير الدين كانت آخر متاعب نور الدين مع اخوانه المسلمين ! ما زال فيهم من لم تسمح نفسه بأن يدع هذا المجاهد يتوجه بقواه لاتمام ما عول عليه من السير بالجهاد الى نهايته ، وأصر على أن يشغله عن الغرض العظيم : ما كاد نور الدين يطفىء جمرة أصحاب دمشق حتى نهض قلج أرسلان الثانى سلطان سلاجقة آسية الصغرى يطمع فى شىء من أملاك نور الدين فى الشمال ،

واستعان فى ذلك بآل دانشمند والصليبيين ، ولكن نور الدين أوقع به الهزيمة وانتزع منه كل ما كان قد أعطاه اياه من بقايا امارة الرها .

*

وفى أثناء ذلك كله لم يكف نور الدين شهرا عن الخروج للغزو . كان أمن البلاد اذ ذاك معقودا بنشاط الحاكم ، فاذا توقف عن التجوال فى نواحى بلاده والالمام بالعواصم والمعاقل لم يأمن أن يخرج عليه بعض ولاتها ، ولو كانوا أقرب النـاس الى الأمير ، وكذلك الحدود كانت سلامتها رهينة باستمرار المرابطة فيها وموالاة الغزوات منها فى أرض الأعداء ، لا هدنة تدوم ولا محالفة تقعد العدو عن افتراس بلد حليف اذا أنس منه تراخيا عن الدفاع .

ثم ان أعداد جيوش نور الدين كانت تتزايد كل يوم ، وكل رجالها راغبون فى الحرب ناظرون الى ما فيها من ثواب ومغانم ، ولم يكن يستطيع أن يدع هذه الجموع خالية من العمل فترة من الفترات ، فما هو الا أن يعود من غزوة حتى ينهض بالتى تليها ، حتى أنهك هذا النشاط المتصل بدنه وسار به نحو المشيب قبل أوانه .

وينبغى أن نذكر أن حملات هـذه العصور كانت طويلة ،

تستغرق الواحدة منها الشهر والشهرين ينقضى معظمها علــى صهوات الخيل ، أما الراحة فلا تصاب الا لماما ، ساعة هنا وساعة هناك ، بالليل أو بالنهار ، وأما النوم فكان فى خيام جافية مفتحة الجوانب يحوم حولها الجند والفرسان والخيل والحرس والخدم محدثين من الضوضاء ما يحول دون النوم المريح الذى يتطلبه البدن .

وقد كان نور الدين زاهدا فى النعيم قلما يستريح الى فراش وثير ، وكان مهما استأخر به النوم لا يأذن لجنبه أن يمس الفراش الا اذا صلى فأطال الصلاة ، فقلت ساعات نومه وزاد جسده جهدا ، ثم انه كان زاهدا فى الطعام فلا يصيب منه ما يكفيه ، اذ كان كغيره من أصحاب الرسالات يعيش بايمانه وقوة روحه لا بجسده وقواه ، فلا عجب أن بدأت صحته تضعف حتى بدا وهو فوق الأربعين بقليل وكأنه شيخ فى الستين ، وسنرى أثر ذلك الاجهاد بعــد قليــل .

وكانت سنة ٥٥٢ والتى تلتها (١١٥٧ — ١١٥٨) فترة عصيبة على الشام كله ، فقد دهى بسلسلة من الزلازل توالت فى تلاحق وقسوة كأنما مادت الأرض بما عليها ، وقد بدأت الهزات فى حلب فى أواخر جمادى الأولى سنة ٥٥٢ واستمرت موجتها الأولى حتى

نهاية الأسبوع الأول من جمادى الثانية ، فانهارت المنازل فى حلب وحماه وكفر طاب وحمص وأفامية وشيزر على من فيها ، ثم عادت فى أوائل رجب وأثرت فى دمشق أثرا بالغا حتى هرب الناس من الدور ، وتصدعت حوائط الجامع الأموى وتناثرت فصوص الفسيفساء التى تزين ما حول الصحن ، واستمرت الهزات تغدو وتروح أياما متوالية .

وبلغت المصيبة غايتها فى حماه ، حتى نسبت الزلازل كلها اليها فقيل « زلزال حماه » . قال ابن القلانسى فى « ذيل تاريخ دمشق »: « وقد انهدمت حماه وقلعتها وسائر دورها ومنازلها ، على أهلها من الشيوخ والشبان ، والأطفال والنساء ، وهم العدد الكثير والجم الغفير ، بحيث لم يسلم منهم الا القليل اليسير . وأما شيزر فان ربضها سلم الا ما كان خرب أولا ، وأما حصنها المشهور فانه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبى العساكر بن منقذ ومن تبعه ، الا اليسير ممن كان خارجا » ، وكان من بين هذا اليسير الذى نجا أسامة بن منقذ ، لم يبق بعد هذه النازلة من كبار أهل بيته سواه ، واستمرت هذه النازلة الى رمضان .

وقد شغل المسلمون والصليبيون جميعا بهذه الزلازل خلال هذين العامين ، اذ أن الكارثة امتدت من قبرص الى حلب ومنها الى

جنوبى بيت المقدس ، فانصرف الناس الى اعادة بناء ما تهدم من البيوت والحصون والأبراج . ولكن نور الدين ورجاله لم يدعوا الوقت يمضى دون جهاد ، ومطولات تاريخ هذه الفترة حافلة بأخبار عشرات الانتصارات التى كتبت لسرايا نور الدين وغزوات رجاله ، وقد حال هذا النشاط بين الصليبيين وبين النظر الى ما يلى عسقلان جنوبا من بلاد الخلافة الفاطمية .

وكان نور الدين حريصا كذلك على أن يلم بالمدائن المنكوبة ، لينظر فى أمر اعادة بناء ما انهدم من بيوتها وأسوارها وقلاعها ، وليعين المنكوبين من أهلها بالمال الكثير ، والمواساة تصدر عن قلب رحيم .

وتأثرت نفس نور الدين بما رأى من آثار النكبة فى كل مكان، واشتد اشتغال باله بأمر الثغور خلال سنة ٥٥٢/١١٥٧ ، حتى لنجده فى حركة دائمة بالليل والنهار ، فاذا أتيحت له لحظة سكون طلب المكاتبات الواردة من الأطراف والرسائل التى يأتى بها الحمام الزاجل فيقرؤها واحدة واحدة ، ويتخذ فى كل شأن ما يراه ، وكثيرا ما كان يحدث أن ينزل ليريح ، ويعد له الفراش ، فلا يلم به، وانما ينهض من مجلسه ويتجه نحو حصن أو ناحية فيواصل الركوب أياما وليالى متتابعة ، ثم يخوض معركة حامية ويعود

أدراجه كأنما كان يحسب أن الله رزقه جسدا من حديد .

وقد بدأت علائم الاجهاد تظهر على نور الدين من أوائل سنة ٥٥٢/١١٥٧ ، ولكنه استمر على نشاطه كأنه لا يحس شيئا ، ثم ثقل جسمه شيئا فى أوائل جمادى الأولى ، وطلب الراحة ، ولكن رسائل يحملها حمام الزاجل سقطت على معسكره فى التاسع من ذلك الشهر بأن بولدوين الثالث خرج فى جند كثيف يغير على اقليم حوران ، وأنه عسكر عند الملاحة ، قرب الركن الشمالى من بحيرة الحولة ، بين طبرية وبانياس ، واستعد لغارة عنيفة على أرض المسلمين ، فنهض اليه فى عسكره .

فلما أطلت عليه رايات جيش نور الدين تهيأ للحرب ، وجعل جيشه أربع فرق ، فعلم نور الدين أنها خطة رسموها وأنهم بيتوا أمرا عظيما ، فترجل عن فرسه تأهبا لخوض غمار المعركة والسيف فى يده ، فكان لعمله هذا أثر السحر فى رجاله ، فترجل كبارهم وجردوا سيوفهم ، ثم دخل المعركة ورجاله من خلفه وحوله ، وانتصب رماة جيشه يصبون سيلا من السهام على الأعداء ، وأقبل أصحاب الرماح يطعنون فرسان الصليبيين المحصنين بدروع الحديد فيلقون بهم عن خيلهم ، فلم تلبث قواتهم أن زلزلت زلزالا شديدا ، وأعمل المسلمون فيهم السيوف ، فاستأسر منهم مئات

وفر بضع عشرات وهلك الباقون ، وكان من بين الفارين بولدوين الثالث ، هرب الى قلعة صفد واحتمى فيها ثلاثة أيام ، ثم خرج مستخفيا الى عكا ، ولم يأمن على نفسه الا بعد أن دخلها ، وكان من بين الأسرى برتراند دى بلانكفورت رئيس الداوية .

وعاد نور الدين بالأسرى والغنائم الى دمشق ، فدخلها فى موكب حافل خرجت له دمشق كلها لتملأ عينيها من جيش الاسلام المظفر ولتحمد الله على ما أفاء على رجل الاسلام المجيد من نصر عزيز .

أما نور الدين فقد كان الجهد قد بلغ به مداه ، وكان حقيقا بأن يأذن لجسده فى شىء من الراحة ، ولكنه اتجه نحو أنطاكية وأخذ يتأهب للهجوم عليها ، فاذا هو فى ذلك أحس دبيب المرض يسرى فى جسده ، ثم دهمته العلة دفعة واحدة ، فاشتدت به الحمى ، وتضعضع كيانه حتى أرجف الناس بموته لعدة أيام من رقاده ، ثم أفاق شيئا فاستدعى أخاه نصرة الدين وقائده أسد الدين شيركوه وبقية رجاله ، وأوصى لأخيه هذا من بعده على أن يكون مقامه فى حلب ، وينوب عنه أسد الدين فى دمشق . وخاف أن تنزل به المنية فى موضعه هذا بازاء الأعداء فطلب أن يحمل فى محفة ويسار به الى حلب ، فوصلها ورقد يتمرض فى قلعتها .

وترددت أنباء مرضه فاضطربت الأمور ، وتشجع رجال مملكة بيت المقدس فهجموا على شيزر ودخلوها وقتلوا وأسروا من أهلها نفرا ، ولكن الناس تسارعوا لنجدتها فأخرجوهم منها ، وبلغ من الهرج أن نصرة الدين عندما وصل الى حلب بعد أيام ليقوم مقام أخيه أثناء مرضه منعه مجد الدين بن الداية نائبها من دخول القلعة خوفا على نور الدين ، ووقع القتال بين الرجلين ونور الدين مسجى في فراشه ، ودامت الفتنة بضعة أيام .

ثم رفع الله غاشية المرض عن نور الدين فانتشرت البشرى ، ودخل اليه نفر من أهل البلد فتحققوا من عودة العافية اليـــه ، وما زال التحسن يطرد حتى أبل من مرضه وارتدت اليه صحته ، فاستدعى أسد الدين شيركوه وشكره على وفائه له أثناء مرضه ، والتمس العذر لمجد الدين بن الداية فيما فعل ، وولى أخاه نصرة الدين اقليم حوران وصرفه اليه ليتابع الجهاد .

ثم عاود المرض نور الدين مرة أخرى أوائل سنة ٥٥٤/١١٥٩ ولكن الله لطف به فأبل بعد قليل ، وقد عاين أثناء هذه المرضة الثانية من خيانة نفر من رجاله ما يذهب صبر الحليم ، فقد اتصلوا بأخيه نصرة الدين ودعوه الى الاسراع الى دمشق ليسلموا له البلد فما زاد الرجل على أن أمر باعتقالهم ، ولو أمير غيره لفعل

بهم الأفاعيل ، ولكنه كان واسع الحلم شديد الكراهة لاراقة دماء المسلمين ، أما أخوه نصرة الدين الذى أسرع ليغنم الفرصة ، فقد صرفه ولم يمسه بأذى ، واستقر رأيه على أن يكون خليفته أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة الفراتية ، وأفضى الى خواص رجاله بذلك . وقد أظهر جمال الدين محمد بن على وزير قطب الدين من الكياسة وبعد النظر فى هذه المناسبة ما زاد نور الدين به اعجابا .

*

وفى هذه الأثناء كانت الأمور تتطور حول بلاد نور الدين تطورا بعيد المدى ، فان كونستانس أرملة رايموند دى پواتييه التى روينا طرفا من أخبارها مع خاطبيها استقر قلبها آخر الأمر عند فارس ممن تخلفوا بعد الحملة الصليبية الثانية يسمى رينو دى شاتيون ، فأرسلته الى بولدوين الثالث ، وكان معسكرا عند عسقلان ليستأذنه فى الزواج منها ، فأذن له ، وتم الزواج . ولكن مانويل كومنين لم يرض عنه ، وكأنما كان لا يزال يرجو أن تتزوج الأرملة أحد رجاله ، فتعود أنطاكية اليه .

ولكن الخبر وصله بعد أن كان كل شىء قد تم ، فأراد ألا يفلت الأمر دون أن يغنم منه شيئا ، وبعث يقول انه مستعد للموافقة اذا

قام رينو بحملة على بلاد الأرمن ، ورد ملكهم توروس ، وكان قد أوغل فى أرض أنطاكية حتى بلغ اسكندرونة ، فعجل رينـــو بالقيام بالحملة المطلوبة ، واسترد اسكندرونة من الأرمن ، وسلمها الى فرسان المعبد ، وارتبط معهم من ذلك الحين بصداقة عادت بالوبال عليه وعلى الصليبيين بعد ذلك .

وكان مانويل قد وعد رينو بمال اذا هو رد الأرمن ، فلما قام الرجل بما طلب اليه سأله أن يبعث اليه بالمال فماطل وتعلل ، فما كان من رينـــو الا أن حالف توروس واخـــوته وغزا معهم أرض بيزنطة . وأراد أن يمعن فى عقاب الامبراطور فقرر غزو قبرص ، واحتاج الى المال ، وكان ايمرى بطريرك أنطاكية رجلا موسرا محتجنا للمال ، ولكنه كان فاسدا منحل الخلق ، فطلب اليه رينو أن يقرضه قرضا حسنا ، فرفض ايمرى أن يقدم قرضا حسنا أو غير حسن ، فقبض عليه وأمر به فضرب على رأسه ضربا موجعا ، ثم قيد بالسلاسل وصب عليه العسل وطرح على سقف القلعة فتقاطرت عليه الهوام ، وقضى فى هذه المحنة يوما وليلة ، ولم يطق أكثر من ذلك ، فأعطى المال . وريع بولدوين الثالث للخبر ، فأرسل من أتاه بالبطريق فأكرمه وواساه .

وعجل رينو دى شاتيون فعبر الى صقلية مع حلفائه الأرمن ،

وقهر حاكمها البيزنطى ، ابن عم الامبراطور ، وأسره ، ثم مضى ينهب كل ما صادفه من قرية أو بلد أو بيت أو كنيسة ، حتى ديارات الرهبان دخلها رجاله ونهبوا ما فيها . ثم طلبوا من الحاكم أن يؤدى لهم مالا جسيما ليرحلوا ، ولم يكن قد بقى فى البلد مال، فأخذوه وقائد الحامية والقساوسة وسروات البلد والرهبان،وعادوا بهم أسرى الى أنطاكية ، واحتفظوا بهم حتى يدفع الفداء .

وكان المرض قد اشتد اذ ذاك بنور الدين ، فانتهز بولدوين الثالث الفرصة وخرج ليغزو شيزر على ما قلناه ، وكان البلد قد تهدم فلم يستطع المقاومة ، ولكن رينو كان قد أسرع للاشتراك فى الحملة ، فلما ظهرت طلائع النصر اختلف مع بولدوين ، فقد كان هذا يريد أن ينشىء فيها امارة تابعة لبيت المقدس يولى عليها تيبرى دى فلاندر ، وطمع فيها رينو بحجة أن بنى منقذ كانوا أتباعا لأنطاكية ، واشتد الخلاف ، فانسحب بولدوين الى بيت المقدس ، وفى طريق العودة استولى على حارم ، فتشبث بها رينو ، فولى عليها بولدوين الثالث أحد فرسان تيبرى وأذن له فى أن يكون تابعا لرينو ، وعاد الى بيت المقدس وهو يفكر فى وسيلة ينتقم بها من ذلك الشرير رينو دى شاتيون الذى لا تقف رعونته عند حد .

ورأى بولدوين أن أقصر الطرق وأوفاها على الغاية

المقصودة هى محالفة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين على هذا العاصى ، فخطب ابنة أخته وتزوجها ، وكانت أميرة جميلة فى الثلاثين من عمرها فرح بها بولدوين وأقطعها ناحية عكا بائنة لها ، ويبدو أنهما اتفقا على محاربة نور الدين ، ورينو دى شاتيون معا ، لأن بولدوين أسرع بالايغال فى أراضى نور الدين حاسبا أنه ما زال فى فراش المرض ، فما راعه الا وخصمه العنيد فى انتظاره عند البطيحة ، فأحجم عن اللقاء ، وكان نور الدين لا يزال ناقها لا تمكنه قواه من خوض معارك طويلة ، فاتفق الاثنان على أن يتهادنا ، وأمنت حدود نور الدين الجنوبية لبضع سنوات ، واتسع الوقت أمامه للنظر فى أمور الشمال (سنة ١١٥٨/٥٥٣) .

وكان الامبراطور مانويل قد عجل بالمسير نحو توروس ملك الأرمن فى خريف ذلك العام ، فوصل طرسوس وفجأها ، فجمع توروس أهله وأمواله وهرب الى الجبال . ثم تأهب للمسير نحو أنطاكية ، فرعب رينو دى شاتيون للخبر ، وأحس أن ساعة القصاص قد دنت ، فأسرع — على عادة أولئك الناس من الذلة أمام القوة — وعرض أن يدع حامية الامبراطور تحتل قلعة أنطاكية فى مقابل تركه أميرا لها . ولكن الامبراطور رفض ، فقد كان يريد أن يذهب فى اذلاله الى أبعد مدى ، فما كان من ذلك المتجبر الطاغى رينو

الا أن أسرع بلبس ملابس التوبة ، وهى خرقة صوف ، ووقف حافيا على باب معسكر الامبراطور عند المصيصة يلتمس العفو !

ومال نور الدين الى تأييد الامبراطور ، فقد كانت الامبراطورية جارا قديما للمسلمين ، عرفوها وعرفتهم واستقرت الأحوال بينهما على نحو لا يهدد سلامة دار الاسلام مهما بلغت العداوة بين الجانبين . ثم ان المسلمين عرفوا دائما كيف يردون الامبراطور عن بلادهم ، وكان تقدمهم فى آسية الصغرى متصلا منذ استقر فيها سلاجقة الروم ، فلم ير بأسا بترك الامبراطور يستعيد سلطانه على أنطاكية وينزع عنها الصليبيين أو يضعف قبضتهم عليها على الأقل . وقد حمد له الامبراطور هذا الموقف ، وبعث اليه بهدايا من الديباج والجوهر والخيول وتعهد بألا يمس أرض المسلمين .

وترك الامبراطور رينو واقفا ببابه حافى القدمين حاسر الرأس بعض الوقت ، فلما أدرك أنه بلغ الغاية من اذلاله أذن له فى الدخول ، ثم تركه واقفا خاشعا بين يديه بضع دقائق تشاغل أثناءها بالحديث مع غيره ، ثم « تفضل » وعفا عنه ورضى أن يبقيه أميرا على أنطاكية على ثلاثة شروط : الأول أن تحتل حامية بيزنطية قلعة أنطاكية ، والثانى أن يقدم رينو فرقة من جنده لجيش الامبراطور ، والثالث أن يحل بطريق أرثوذكسى محل الكاثوليكى فى الرياسة

الدينية للبلد . وقبل رينو ذلك ، وأقسم على أن يبر بعهده وانصرف عائدا الى أنطاكية .

وكان بولدوين الثالث لا يحسب أن اذلال أمير أنطاكية يبلغ الى درجة التضحية بالبطرقية الكاثوليكية ، فأسرع ولقى حليفه البيزنطى ، ولم يزل يحاوره حتى وافق على أن يؤجل تنفيذ هذا الشرط ، وعاد ايمرى الى بطرقية أنطاكية وتصالح مع رينو .

ثم دخل مانويل أنطاكية دخول الظافر ، وفصل عنها عائدا الى بلاده . وكان الصليبيون قد رجوا أن يحمل على حلب ، ولكن مانويل لم يكن الغر الذى حسبوه ، فما كان ليفكر فى مهاجمة عرين الأسد ، بل خيب ظنونهم والتقى مع سفارة من نور الدين واتفق مع رجالها على هدنة طويلة . وقد غضب الصليبيون لذلك، وزعم نفر من المؤرخين الأوروبيين المحدثين — وبخاصة الفرنسيين — أن مانويل خان النصرانية بذلك ، وما هى الا أوهام الحقد على الاسلام وأهله توارثها هذا النفر من الغربيين جيلا عن جيل .

وما كان مانويل ليجرؤ على النظر الى أرض نور الدين ، الا اذا كان غبيا كهذا رينو دى شاتيون ، الذى ستدفعه الغفلة بعد قليل الى ركوب هذا المركب الوعر ، ليجد نفسه أسيرا فى يد الزعيم المسلم العظيم . وكان نور الدين قد وافق على أن يطلق نفرا من أسرى الصليبيين لديه ، ولم يكن له بهم حاجة ، فقد كان معظمهم

من ألمان الحملة الصليبية الثانية ، وليس منهم من كبار الصليبيين الا برتران دى بلانكفور رئيس الداوية ، وبرتران دى تولوز ، فأطلق سراحهم . وكانت صحتهم جميعا قد تضعضعت بطول السجن ، ولم يعودوا يصلحون لشىء .

وكان نور الدين يرجو من وراء ذلك أن يصيب هدنة من المشاغل المتلاحقة ، لينظر فى أمر خطوته التالية بعد دمشق ، وهى ضم مصر واراحة الفاطميين من آلام النزع الطويل . فسكن بضعة شهور ، ولكن قلج ارسلان سلطان سلاجقة آسية الصغرى أصر على أن يحدث المتاعب ، فهاجم أراضى الدولة البيزنطية ، ثم انهزم واضطر الى أن يعقد اتفاقا خاسرا مع مانويل كومنين ، ولم ير نور الدين أن يشغل نفسه بأمور آسية الصغرى ونظره متجه نحو الجنوب ، فترك الأمور هناك تجرى على علاتها .

وكأنما حسب رينو دى شاتيون أن ذلك ضعف من نور الدين ، فنهض فى خريف ١١٦٠/٥٥٥ وانقض على قطعان من الماشية والجمال لنفر من المسلمين كانت ترعى آمنة فيما يجاور حلب ، واستاقها وأخذ الطريق نحو أنطاكية ، كأى لص من لصوص المواشى الذين نقرأ عنهم فى الأقاصيص . فاذا هو فى بعض الطريق ، وقد أمن وامتلأت نفسه رضا عما فعل ، اذ بكمين قد خبأه له

مجد الدين بن الداية — نائب نور الدين على دمشق — يخرج عليه ويأخذه أسيرا كأنه رأس من رءوس الماشية التى استاقها . وأرسله مجد الدين الى حلب مقيدا محمولا على جمل ، وهناك ألقى به فى سجن ظل فيه ستة عشر عاما .

وهكذا عادت كونستانس الى ما كانت عليه قبل زواجها بذلك المغامر ، فقررت ألا تجرب حظها مرة أخرى فى الزواج ، وأقامت نفسها أميرة وصية على ابنها الصبى بوهيموند الثالث المنبوز بالثقيل اللسان . وزادت نفسها رضا بعد قليل ، اذ تزوجت ابنتها مارية من الامبراطور مانويل كومنين ، بعد وفاة زوجه الامبراطورة ايرينى ، وكانت ألمانية من أميرات سالتسباخ .

وفى أوائل سنة ١١٦٢/٥٥٧ نزل المرض ببلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، وكان كما رأينا رجلا عفيا نشيطا لا تخمد له حركة ، وكان اذ ذاك شابا فى الثالثة والثلاثين ، ولكن الدوسنتاريا كانت قد تمكنت من كبده وأمعائه ، فألم ببيروت ليتمرض فيها ، وعجل رايموند الثالث صاحب طرابلس ، فأرسل اليه طبيبا سريانيا ، فلم يكد المريض يتناول دواء الطبيب حتى انهدت قواه ، وأسلم الروح فى ٢٣ صفر سنة ٥٥٧/١٠ من فبراير سنة ١١٦٢ ، وقد عجب الناس من أمر هذا الموت المفاجىء ، وشكوا — وربما كانوا على حق — فى دواء الطبيب السريانى .

وتولى أمر مملكة بيت المقدس أخوه أماريك (أمورى) صاحب يافا ، وكانت مواهبه أقل بكثير من مواهب أخيه . كان شابا فى الخامسة والعشرين لم يعرف الى ذلك الوقت بفضيلة أو خلق متين ، وكانت زوجه آجنس دى كورتنيه — ابنة جوسلين الثانى صاحب تل باشر فيما مضى — على شاكلته ، تلوك الألسن اسمها ، فطلقها ليصل الى العرش . ولم يكن يتمتع باحترام من رجاله ، فقد كان سوقى الطبع بعيدا عن الوقار ، ولكنه كان لا يخلو من حزم وجرأة .

ويبدو أنه كان قد عقد العزم على الاتجاه بكليته نحو مصر ، لأنه أسرع بتسوية الأمور فى الشمال ، فجدد الحلف مع الامبراطور البيزنطى . ووافق على أن يتولى بوهيموند الثالث امارة أنطاكية ، وكان قد بلغ سن الرشد وانتزع الأمر من أمه كنستانس بعد خلاف طويل .

أما نور الدين فكان قد خرج الى الحج ، فأدى مناسكه وأوسع على أهل الحجاز ، وكان قلبه معلقا بالخطوة التالية التى كان يتأهب لها نصرة للاسلام والمسلمين ، فدعا ربه متوسلا بصاحب القبر والمقام صلوات الله عليه أن يكتب له التوفيق فيما يطلب من اعزاز كلمة الله ، وعاد الى دمشق وأخذ ينظر مع أمرائه فى الخطة المثلى لتحقيق هذا المشروع الخطير .

— ٨ —

اكتمال الوحدة
مصر فى صفوف المجاهدين

أتهويمة فى ظل أمن وغبطة　　وعيش كنوّار الخميلة ناعم؟
دعوناكم والحرب ترنو ملحة　　إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية　　تطيل عليها الروم عض الأباهم

« أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى »

يبدو فتح مصر على يد نور الدين وكأنه مصادفة طيبة لقيته فى تاريخه ، ذلك لأن مؤرخينا القدامى يروون الحوادث وكأنها قطع منفصل بعضها عن بعض ، دون أن يحاولوا الربط بينها ، ولم يخطر ببال أحد منهم أن يجمع أعمال نور الدين العسكرية على نسق ، ثم ينظر فيها ليستخلص الخطة التى سار عليها فى هذه الأعمال ، وتابعهم فى ذلك المؤرخون المحدثون الذين تعرضوا

لتاريخ نور الدين أو جانب منه ، فبدا نشاط الرجل وكأنه نشاط فارس مغامر يضرب ضربة هنا وضربة هناك ، بل فاتهم أن يتبينوا العامل المحرك لنــور الدين فى نشاطه كله ، وهو ايمانه الدينى العميق واحساسه بأن رسالته فى الوجود هى جمع كلمة المسلمين واخراج الصليبيين من الشام .

ولم يكن ينتظر أن يعلن نور الدين خططه وأهدافه ، فذلك لا يتفق مع حكمة القيادة وأساليب أمثاله من الأعــلام . ولكننا لو نظرنا فى كل ما رويناه من فتوحه ، وتتبعناه خطوة خطوة على الخريطة ، لتبينا أن نشاطه كله كان خطة واحدة مرسومة فى دقة وعن تدبر . وقد سار الرجل فى تنفيذها سير القائد الحكيم المتئد ، الذى لا تصرفه فرصة عابرة عن خطة مدبرة ، ولا يغامر بقواته فى مظاهرة عسكرية قليلة القيمة ،بل لا يتأخر عن الانسحاب وتجنيب جنده الهزيمة اذا أحس أن ما معه من القوات لا يكفى لتحقيق النصر المرموق .

ولا يتضح ذلك فى أجلى معانيه مثلما اتضح فى الخطة التى سار عليها لفتح مصر والقضاء على دولة الفاطميين فيها وضمها الى جبهة الكفاح . ولنمر — قبل أن نوجز الكلام عن هذه الخطوة — على فتوحه الماضية ونشاطه العسكرى خلال عشرين السنة الماضية،

فقد تولى أمور حلب سنة ٥٤٠/١١٤٦ وكان البـدء فى تنفيذ مشروع فتح مصر سنة ٥٦٠/١١٦٥ ، أى وهو فى الثامنة والأربعين من عمره[1] .

ولقد كان من القواعد الرئيسية التى سار عليها نور الدين أن يوجه قواه كلها نحو غاية واحدة فى وقت واحد ، فلا يشغل نفسه بجبهتين فى نفس الوقت ، ويحرص على ألا يجمع على نفسه عدوين فى آن واحد ، فاذا كان فى اشتباك مع بيت المقدس اجتهد فى أن يكون على هدنة مع الدولة البيزنطية ، واذا اتجه نحو هذه لم يسر الى الشمال الا وقد اطمأن الى سكون الجبهة جنـوبى بلاده ، وهكذا .

وقد يتداخل بعض أجزاء خطة فى أخرى ، ولكن ذلك التداخل لم يصرفه قط عن الخطة الرئيسية التى رسمها لنفسه فى وقت معين ، وانما يكون الغرض منه تأمين جبهة للتفرغ لجبهة أو ارهاب عدو ليخلص لعدو ، فقد كان الرجل يقاتل فى جبهات متعددة ، وأعداؤه من حوله كثيرون ، فلا بد له من الالتفات نحو الجبهات كلها فى كل حـين .

(١) على الحساب الهجرى ، أما بالسنوات الميلادية ، فكان عمره اذ ذاك سبعا وأربعين سنة .

وينبغى ألا ننسى أن أعداءه من المسلمين لم يكونوا أقل خطرا عليه وعلى مشاريعه من الصليبين والبيزنطيين ، وقد كلفه أولئك الاخوة الذين لم يوهبوا الايمان الصادق أو البصر الحكيم من العناء والمتاعب أكثر مما كلفه الصليبيون مجتمعين . وزاد فى أذاهم أن الرجل كان مسرفا فى الحلم والرأفة بالعرب والمسلمين ، يتحاشى جهده توجيه قواه نحوهم ، وقد كان من مبادئه أن جيش الاسلام المحرر لا ينبغى أن يوجه نحو بلـد مسلم ، وقد رأينا مطاولته وصبره مع أصحاب الأمر فى دمشق ، وقنوعه فى النزاع الذى شبه عليه أخوه قطب الدين مودود بعد موت أخيه سيف الدين غازى ، ورأينا تساهله معه ، وقد كان قادرا على أن يخرجه من بلاده .

وتتلخص الخطوات التى مشاها نور الدين نحو تحقيق حلمه فى الوحدة فيما يلى :

بدأ نور الدين بتصفية بقية امارة الرها ، ثم اجتهد فى الاستيلاء على كل ما لامارة أنطاكية شرقى نهر العاصى ، فاسترد للاسلام دلوك وروندان وعزاز وبزاعـة وأرتاح وحارم وأرزغان وانب والبارة وأفامية ومعرة النعمـان وكفر طاب ، وبذلك أصبحت بلاده متصلة من شاطىء دجلة الى نهر العاصى ، وأمن أن يهاجمه أحد من الشرق أو الغرب .

ثم التفت نحو الحدود الشمالية فأقر الأمور فيها على نحو يطمئن اليه مع سلاچقة آسية الصغرى وآل دانشمند والأرتقيين أصحاب ماردين . ثم ركز قواه حتى فرغ من مشكلة دمشق وضمها الى بلاده وأصبحت حدوده متاخمـــة لامارة أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس . فبدأ بامارة طرابلس وحصرها فى شريط ضيق يبدأ من صافيتا فى الشمال وينتهى عند جبيل شمالى بيروت.

ثم التفت الى مملكة بيت المقدس ، فاستولى على اقليم حوران، واهتم اهتماما خاصا ببصرى أكبر معاقله ، وثبت حدوده الجنوبية بالاستيلاء على صرخد ، وأصبحت مملكة بيت المقـدس شريطا ساحليا ينتهى عند المجرى الرئيسى لنهر الأردن ويمتد بعض الشيء شرقى البحر الميت .

وحرص فى أثناء ذلك على ألا تكون ســيطرة مملكة بيت المقدس على أراضيها كاملة ، فكان يقوم بغارات سريعة فى بلادها ويرسل قواده فيوغلون حتى الرملة وعسقلان ، ويبعث بجماعات من خيالة التركمان السريعة تخترق البلاد من الشمال الى الجنوب، ومنها ما كان يتخذ معسكرات متنقلة داخل أراضى مملكة بيت المقدس نفسها ، كلما طاردها جند الصليبيين فى ناحية انتقلت الى ناحية أخرى . وكان هدف نور الدين من ذلك أن يستمر الطريق

مفتوحا الى مصر ، وسنرى جيوشه بعد قليل تخترق مملكة بيت المقدس من دمشق الى مصر وكأنها تجوس فى بلادها .

وقد حرص نور الدين أثناء حياته كلها على تجنب أمرين : مجيء حملة صليبية جديدة ، واتحاد مملكة بيت المقدس والدولة البيزنطية عليه . فلكى يتحاشى الأمر الأول حرص على ألا يهاجم مملكة بيت المقدس هجوما عاما يؤدى الى اسراع غرب أوروبا لنجدتها ، ولكى يتلافى الأمر الثانى ترك أنطاكية باقية كأنها الشبح، لأنها — من الناحية الاسمية — كانت تحت سلطان الامبراطور البيزنطى أما من الناحية الفعلية فكانت تدور فى فلك مملكة بيت المقدس ، فهجومه عليها يجمعهما عليه ، فيضطر الى توزيع قواته بين الشمال والجنوب .

وكان واثقا من أن استيلاءه على مصر سيهيىء له من القوة ما يمكنه من مواجهة الدولتين ومن ينضاف اليهما من رجال الحملات الصليبية ، ولكن الأجل لم يمهله بعد مصر الا قليلا ، فانتفع خليفته صلاح الدين بذلك كله ، وواجه الدولتين والحملة الصليبية الثالثة فدحرها كلها ، وقضى على مملكة بيت المقدس ، وأعاد ذلك البلد الطاهر الى أهله العرب .

*

كانت الدولة الفاطمية قد تحولت الى « رجل مريض » من أواخر القرن الخامس الهجرى ، واشتد ضعفها واضطراب أمورها من أوائل القرن السادس الذى تلاه ، فأصبحت « تعيش بالوهم وقلة المطالب » كما يقول ابن خلدون .

ولقد تطورت الدنيا من حول الفاطميين : فاستقر الصليبيون فى الشام ، ونهض رجال الوحدة يلمون الشعث ويضمون الصفوف ، وجرت معارك ووقائع تردد صداها حتى بلغ اسكتلندا والسويد والنرويج ، وخلفاء الفاطميين فى غفلة كأنهم لا يعيشون على وجه هذا الكوكب ، ونهض الغرب الاسلامى وتوحد تحت راية الموحدين ، وأقبلت قواتهم المظفرة نحو تونس وطرابلس ، واضطرب البحر الأبيض كله وساد النشاط حوضه الشرقى : من أساطيل بيزنطية تقاتل أساطيل نورمانية ، وأساطيل ايطالية تحمل أفواج الصليبيين الى سواحل الشام أو تعود ببقاياهم منه ، كل هذا والفاطميون ووزراؤهم فى غفلة تبعث على العجب . وضاعت منهم عسقلان فلم يبعث فيهم ذلك حسرة ولا ألما ، ونهض رجال سواحل مصر الشمالية ينشئون السفن ويخرجون بها فيهاجمون الصليبيين فى غزة وصيدا وعسقلان دون أن يظفروا من الفاطميين بعون أو تأييد .

ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا الحال ، فان مصر أهم من أن تترك خارج صراع الموت الذى نشب من حولها ، وأهلها شعب عربى لا يطيق البقاء مكتوف الأيدى يتفرج على مهازل القصر والوزراء ، ونور الدين ينظر من بعيد ويرتب الأمور لضم هذا الجانب الضخم الى جبهة الكفاح ، والملك أمورى فى بيت المقدس شاب طموح يريد أن يؤيد عرشه بفتح جديد ، فلم يكن هنالك محيص من أن يمتد اللهب الى وادى النيل ، وأن يصبح هذا الوادى مدار الصراع بين الجانبين .

سقطت عسقلان فى أيام الخليفة الظافر أبى منصور اسماعيل ابن الحافظ (٥٤٤/١١٤٩ — ٥٤٩/١١٥٤) ، وكان شابا غافلا لا يصلح الا للعبث ، وكان رجال دولته على مثاله ، أظهرهم الوزير عباس الصنهاجى وابنه نصر ، فجرى نصر هذا مع الخليفة فى مجال لهوه ، ثم قتله على صورة مهينة لم تجر على خليفة قبله أو بعده : خرج « الخليفة » من قصره ليلا وذهب الى دار نصر ليسمر معه ، فقتله هذا وألقى جثته فى بئر فى البيت ، وفى الصباح زعم أبوه أن الخليفة خرج يتنزه فى قارب فى النيل فغرق ! ثم اتهم اثنين من اخوة الظافر ونفرا من خدم القصر بقتل الخليفة فضربت رقابهم فى مجلسه ، ثم دخل دار الحريم وأتى بابن صغير للظافر

يسمى عيسى ، وعاد به الى المجلس فرأى الصبى القتلى ففزع وأصابه اضطراب عصبى لم يشف منه بعد ذلك ، ثم جمع أهل القصر وقال لهم : هذا ولد مولاكم ، وقد قتل عماه مولاكم ، وقد قتلتهما به كما ترون — وأشار الى القتلى — والواجب اخلاص الطاعة لهذا الولد الطفل ، فقالوا كلهم : سمعنا وأطعنا ، وضجوا ضجة واحدة بذلك ، ففزع الطفل ومال على كتف عباس من الفزع . وسموه الفائز ، ثم سيروه الى أمه وقد اختل عقله من تلك الضجة فيما قيل ، فصار يتحرك فى بعض الأوقات ويتصرع . وهذا هو الفائز الذى ورث عرش الفاطميين ، وحكمت مصر باسمه سبع سنين (٥٤٩/١١٥٤ — ٥٥٦/١١٦١) .

وكان لا بد أن يدفع الوزير عباس الصنهاجى وابنه ثمن الجرائم التى ارتكباها ، فخرج عليهما رجل من أصل أرمنى يسمى طلائع ابن رزيك كان واليا على المنيا ، وزعم أنه يطالب بدم الخليفة المقتول ، ودخل القاهرة واستولى على مقاليد الأمور ، ففر عباس وابنه الى الشام ، وفى الطريق لقيهما جماعة من جند بيت المقدس فقتلوا عباسا ثم أرسلوا نصرا الى مصر فى قفص من حديد ، وهناك قتل على صورة بشعة .

ثم كشف طلائع بن رزيك عن وجهه ، فاذا هو طاغية مفسد

شره الى المال ، وأخذ يبيع ولايات النواحى لمن يدفع الثمن الأكبر ، فاذا انقضت ستة شهور باعها مرة أخرى ، فكان المولى يجتهد فى تحصيل أضعاف ما دفع خلال الأشهر الستة ، حتى هلك الناس لكثرة ما دفعوا . وكان مع ذلك متشاعرا يعقد مجالس لأهل الأدب ممن يرضون القدوم على أمثاله ، فينشدهم شعره السخيف ، ويردون عليه بقصائد مدح فى نظم أثقل من ظلالهم وظل مولاهم .

وما زال هذا الرجل — الذى تلقب بالملك الصالح — يثقل على الناس حتى خلصتهم منه احدى عمات الخليفة الصبى ، فوضعت عليه من قتله وجرح ابنه رزيك بن طلائع جرحا بليغا .

وفى هذه الأثناء مات الفائز ، فنصبوا من بعده ابن عمه أبا محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ عبد المجيد ولقبوه بالعاضد ، وهو آخر خلفاء الفاطميين ، وترتيبه فى سلسلتهم الرابع عشر ، وكانت سنه احدى عشرة سنة ، تولى سنة ٥٥٥/١١٦٠ وظل الى أن خلعه صلاح الدين سنة ٥٦٦/١١٧٠ . وكان رزيك بن طلائع قد شفى من جرحه ، وتولى الوزارة مكان أبيه ، وثقلت يده على العاضد ، فبعث هذا مستنجدا برجل كان يتولى الصعيد اسمه شاور بن مجير السعدى ، فأسرع الى القاهرة مع نفر من أصحابه ، وهزم رزيك وتولى مكانه ، واختفى رزيك حتى ظفر به بعد قليل فقتل .

وكان بولدوين الثالث قبل وفاته قد التمس وسيلة يفيد بها من هذه الفوضى التى استبدت بأمور الفاطميين ، فهدد بالسير الى مصر ، فسارع رجال الفاطميين وعرضوا أن يقدموا اليه مائة وستين ألف دينار فى العام اذا هو سكت عنهم . وسكت بولدوين فلم يؤد الفاطميون شيئا ، ثم توفى وجاء أخوه أمورى ، وكان فى حاجة ملحة الى المال ، فتعلل بذلك الاتفاق المنقوض وسار الى مصر فى ذى القعدة سنة ٥٥٨ / سبتمبر ١١٦٣ ، وحاصر الفرما ، وكانت مياه الفيضان تملأ الترع ، فكسر المصريون بعض الجسور فساح الماء وأغرق الأرض وتعذر على أمورى الاسترسال الى ما وراء ذلك فعاد أدراجه .

وكانت عين نور الدين ساهرة لا يغيب عنها مثل هذه الحركة ، وأعجله الأمر عن المسير الى مصر فلجأ الى عمل يرغم به أمورى على الارتداد . فسار فى جيش كثيف واخترق أرض طرابلس ثم حاصر حصن الأكراد (الكرك) الذى يشرف على اقليم البقاع ، وكاد يستولى عليه ، لولا أن رفقة قوية من حجاج النصارى كانت عائدة من بيت المقدس وفيها هيو كونت لوزينان وجود فروا مارتل وهما من أكبر فرسان عصرهما ، فانضما بمن معهما الى قوات رايموند صاحب طرابلس الذى خرج للدفاع عن الكرك ،

واستصرخوا أنطاكية فخف اليهم بوهيموند الثالث وقائد الحامية البيزنطية قسطنطين كولومان برجالهما .

ولم يكن نور الدين يتوقع أن يسير الصليبيون نحوه فى هذه الجموع كلها ، فما راعه ، وجنده آمنون ، الا والصليبيون يدهمون المعسكر ، ففزع الجند وتطايروا بددا ، حتى اقترب المهاجمون من موضع نور الدين ، فأسرع فامتطى صهوة جواده ، ومضى به مسرعا وجنده يتلاحقون به حتى وصل الى قرب حمص ، فنزل ، ووصل جنده أرسالا ، فأعاد ترتيبهم واستعد للقاء اذا تبعه العدو . وخاف بعض رجاله ، فرجاه أن يسرع العودة الى حمص حذرا من ملاحقة الأعداء اياه ، فقال : « اذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولا أبالى بهم ، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأرى وثأر الاسلام » ثم أرسل الى دمشق وحلب يطلب الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل ، فأعطى جنده عوض ما أخذ منهم .

وبلغ الصليبيين أنه لهم بالمرصاد ، فتخوفوا ملاحقته وعادوا الى بلادهم ، وعاد عسكر نور الدين كأن لم تصبه هزيمة . وعوض أهل القتلى بمال جسيم ، وأعطى أولادهم اقطاعاتهم وظل ينفق حتى نفد ما لديه ، فقال له بعض رجاله : « ان لك فى بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ،

فلو استعنت بها فى هذا الوقت لكان أصلح » فغضب من ذلك وقال : « والله انى لا أرجو النصر الا بأولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشى بسهام لا تخطىء ، وأصرفها الى من لا يقاتل عنى الا اذا رآنى بسهام قد تصيب وقد تخطىء ؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال ، كيف يحل لى أن أعطيه غيرهم ؟ » .

*

وكان العاضد فى استغاثته بشاور كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فما كان هذا الا طامعا مفسدا لاذمة له ولا عهد ، كما سنرى . فاستنجد الخليفة عليه بضرغام بن ثعلبة ، ويقال انه كان قد تولى الصعيد مكان شاور ، فأقبل ضرغام وهزم شاور وقتل ولده الأكبر طيىء ، ونجا ابنه الثانى شجاع . فأسرع شاور الى الشام يستنجد بنور الدين ، وعرض عليه أن يكون نائبه على مصر ، وأن يؤدى له ثلث دخل بيت المال الفاطمى كل سنة بعد دفع رواتب الجند .

ولا شك فى أن استنجاد شاور بنور الدين وقع من نفسه موقعا طيبا ، واستقر رأيه من أول الأمر على المبادرة بارسال الجند الى مصر ، ولكنه تمهل — على عهده — حتى يعد للأمر عدته كاملة .

قال أبو شامة انه « كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الافرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الافرنج فيه » ، فلما انتهى من دراسة الموقف ورسم الخطة قرر ارسال جيش الى مصر يقوده أسد الدين شيركوه ، وكان مقداما لا يهاب شيئا ، وقرر أن يقوم هو نفسه بحملة على بانياس ليصرف اهتمام الملك أمورى نحو الشمال .

وتسامع ضرغام قبل موته بقليل بمسير جيش نور الدين الى مصر فعرف العاقبة وجزع جزعا شديدا ، وحمله الجزع وموت الضمير على أن بادر بالاسراع الى بيت المقدس طالبا من أمورى أن يسبق نور الدين الى امتلاك مصر ، ووعده بأن يؤدى اليه جزية سنوية . ولم يكن شىء ليخيف أمورى أكثر من استيلاء نور الدين على مصر ، فمعنى ذلك نهاية مملكة بيت المقدس . فأسرع يجمع فرسانه ، ثم سار هو الآخر نحو مصر . ولكن أسد الدين شيركوه كان قد أسرع السير كأنه السهم المنطلق ، فدخل مصر والتقى بجيش يقوده نصر الدين أخو ضرغام عند تل بسطة قرب الزقازيق وقضى عليه فى جمادى الثانية سنة ٥٥٩/مايو ١١٦٤، ووصل ضرغام الى القاهرة بعد قليل حاسبا أن الجند الصليبى

مقبل لنصره ، وحاول التمهيد لحلفائه باستنهاض نفر من العامة لتأييده ، فخذله الناس ، وقتلوه عند مشهد السيدة نفيسة .

واستقر جيش نور الدين فى القاهرة يقوده أسد الدين شيركوه ويعاونه ابن أخيه صلاح الدين ، وكان شابا مجربا بعيد النظر قربه نور الدين وعهد اليه فى الأعمال ، وكان شيركوه لا يقطع برأى من دونه . وكان وصول هذا الجيش النورى الى القاهرة حادثا له ما بعده ، فهو بداية تنفيذ خطة نور الدين للاستيلاء على مصر ، وأول الصراع على مصيرها بين جبهة الاسلام الموحدة ومملكة بيت المقدس . ثم ان أسد الدين وابن أخيه اتصلا بهذا القطر الكبير اتصالا مباشرا ، واطلعا على ما فيه من أسباب القوة والثروة وتعلق قلباهما بالاستقرار فيه ، وكان شيركوه قد طالت خدمته لنور الدين وأبدى من الاخلاص لسيده ما جعله رأس قواده وأمرائه ، فتاقت نفسه الى أن يكون نائب نور الدين على مصر ، ولم يكن لهذا العمل سواه ، فهو خير من يستطيع تنفيذ الخطة النورية التى كانت ترمى الى حصر مملكة بيت المقدس بين شقى الرحى .

ولكن شاور كان يهيم فى واد آخر ، وأمثال هذا الرجل يبلغ بهم قصر النظر أن يتصوروا أن غيرهم على شاكلتهم ، لا مأرب لهم

الا منصب يسيئون الى الخلق بجاهه ، ومال ييسر لهم الاستمتاع بالحياة . لهذا ثقلت عليه وطأة أسد الدين شيركوه ، وأحس أنه لم تعد له به حاجة ، فقد قتل ضرغام وصفا الجو ، فماذا يخشى بعد ذلك ؟ فبدأ بالتوقف عن الوفاء بما وعد به نور الدين ، ثم طالب شيركوه بالعودة الى الشام وهدده بالحرب .

ولم تكن قدم شيركوه قد استقرت فى مصر بعد ، وما هو الا قائد جيش صغير فى بلد بعيد تفصل بينه وبين الشام جماعات الصليبيين ، ثم انه سمع من أخبار غدرات رجال الفاطميين وسعة حيلتهم فى الاغتيال والأذى ما حفزه على تدبر أمره ، فأرسل يطلب من نور الدين مددا ، وأشار عليه ابن أخيه صلاح الدين بالارتداد الى بلد يتحصن فيه ويسيطر عليه بحيث يأمن الغدرات ، واستقر رأيهما على الانسحاب الى بلبيس ، فانتقل اليها ، ولم تكن بالبلد الحصين ، اذ كان يدور حولها سور ضعيف منخفض ، ولكن شيركوه اجتهد فى تحصينه وتأمين نفسه وجنده فيها .

وعجل شاور الى أمورى يستنجد به على نور الدين ، وألح عليه فى القدوم الى مصر وعرض عليه أن يعطيه سبعة وعشرين ألف دينار ، ألفا عن كل مرحلة من مراحل الطريق ، ووعد فرسان الاسبتارية بمال جزيل اذا هم اشتركوا فى الحملة ، وتعهد الى

جانب ذلك بأن يقدم العلوفة اللازمة للخيل . ولم يكن أمورى فى حاجة الى كل هذا الاغراء ، فقد كان يدرك تماما أن مصير بلده فى الميزان اذا تمكن نور الدين من مصر ، ولكنه عندما رأى هذا الخسيس يستحثه ، مضى يتعلل عليه ، وبلغ من قلة الثقة بينهما أن شاور اعتذر عن دفع المال مقدما ، وأبى أمورى أن يؤجل الدفع الى نهاية الحملة ، فاتفقا على أن تدفع ألف دينار فى آخر كل مرحلة . وسار أمورى فى رمضان سنة ٥٥٩/ أغسطس ١١٦٤ حتى بلغ فاقوس ، ثم لحق به شاور واشتركا فى حصار شيركوه فى بلبيس . وعلى الرغم من ضعف أسوار البلد فان الحليفين لم يستطيعا اقتحام البلد ، وظل شيركوه صامدا حتى انقضت ثلاثة شهور والموقف على ما هو عليه (ذو الحجة سنة ٥٥٩ / أكتوبر سنة ١١٦٤) .

ثم بلغت أمورى أنباء روعته وحفزته على المبادرة بالعودة الى بلاده ، ذلك أن نور الدين اتجه نحو أنطاكية ليغير على أراضيها ليشغل الصليبيين عن جيشه العامل فى مصر ، وكانت تجربة موقعة حصن الأكراد ما تزال ماثلة فى ذهنه ، فقرر أن يأخذ بالثأر الذى حلف يومها ليأخذنه ، فطلب الى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل أن ينضم اليه بقوة من عنده ، فأقبل ومعه جند كثيف من

بلاده ومن امارتي ديار بكر وماردين ، ومضى فى شعبان ٥٥٩/ يوليو ١١٦٤ فحاصر حصن حارم ، ونهض صاحب الحصن رينو دى سان ڤالرى فجمع كل ما لديه من الجند لملاقاة نور الدين ، وخف لعونه بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية ورايموند صاحب طرابلس وتوروس ملك الأرمن وقسطنطين كولومان قائد الحامية البيزنطية فى أنطاكية.

وكان نور الدين قد أحكم خطته ، فلما تسامع بمسير هذا الجحفل الجرار نحوه انسحب عن حارم وضرب معسكره عند أرتاح وعبأ جنده تعبئة كاملة ، وفرق الكمائن فى شعاب الجبال . وأحس رجال الجيش الصليبى بما أعده لهم ، فأحجموا عن اللقاء ، ولكن رينو دى سان ڤالرى أصر على الاشتباك طامعا فى غنيمة كغنيمة يوم حصن الأكراد ، فكر على جيش نور الدين ، فتراجع الجند أمامه شيئا ريثما توسط مواضع الكمائن ، ثم أحاطوا به فأيقن بالهلاك ، ورأى توروس ملك الأرمن وأخوه بوادر الهزيمة فلاذوا بأذيال الفرار ، وأطبق المسلمون على الجيش الصليبى وأعملوا فيهم السيوف والحراب والنبال فلم ينج من الموت الا الأسرى ، وكان فيهم بوهيموند الثالث ورايموند صاحب طرابلس وقسطنطين كولومان وهيودىلوزينان ، فربطوا فى

حبل واحد ، وسيقوا الى حلب . وهكذا أخذ نور الدين ثأره وزيادة .

وألح رجال نور الدين عليه فى التعجيل بالمسير الى أنطاكية والاستيلاء عليها ، فليس فيها من يدفع عنها . ولكنه قدر فى نفسه أن هذا ليس أوان أنطاكية ، فتوقف عن المسير اليها اكتفاء باستيلائه على حارم بعد نصره عندها ، وقد أصاب فى تقديره ، فان استيلاءه على أنطاكية سيدفع الدولة البيزنطية الى تجريد جيش كبير وأسطول لاستعادتها ، ثم لا يلبث أمورى أن يعود من مصر ، فيكون على نور الدين أن يقاتل فى جبهتين واسعتين ، احداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، وهذا ما كان يتحاشاه .

ثم انه لم يشأ أن يوزع جهوده بين أنطاكية ومصر ، وكان الرجل — كما قلنا — اذا وضع لنفسه هدفا رسم خطته للوصول اليه ، ولم ينحرف عنه حتى يحققه . أضف الى ذلك أن امارة أنطاكية — بما هى عليه من الضعف — لم تكن تهدد بلاده ، فاذا أقبل البيزنطيون وملكوها أصبحت خطرا ماثلا قريبا . وذلك كله يفسر لنا تصرفات نور الدين بعد انتصاره ، فقد عجل باطلاق سراح قسطنطين كولومان حتى يسكت عنه البيزنطيون ويعدوها له منة ، فيعينه ذلك على التفرغ لمشروع مصر .

وكانت أعظم نتائج ضربة نور الدين عند أرتاح أن اضطر أمورى الى مبارحة مصر مسرعا . فاتفق مع شـــيركوه على أن يخرجا معا ، وهذا ما كان يريده نور الدين ، فقد تبين له أن مصر لا تملك بهذه القوة التى سيرها مع شيركوه ، واستقر رأيه على اعداد حملة أكبر وأقوى يقودها شيركوه مرة أخرى ، فأذن لقائده بالانسحاب . وسار الجيشان الواحد منهما بازاء الآخر مخترقين شبه جزيرة سينا ، وعلى المراحل كان الجيشان يلتقيان دون حرب، فلما وصلا الى الحدود وتأهب كل من الجانبين للمسير نحو بلاده ، قال لشيركوه أحد فرسان الصليبيين ممن وفدوا على الشام حديثا : « أما تخاف أن يغدر بك هـؤلاء المصريون (يريد الفاطميين) والفرنج ، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا تبقى منكم بقية ؟ » فقال شيركوه : « ياليتهم فعلوا ، حتى كنت ترى ما أفعله ! كنت والله أضع السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهـم رجال ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين ، وقد ضـعفوا وفنى شجعانهم ، فتهلك بلادهم ، ونهلك من بقى ! والله لو أطاعنى هؤلاء (يريد قواده) لخرجت اليكم من أول يوم ، ولكنهم امتنعوا » فصلّب الفارس على وجهه وقال : « كنا نعجب من فرنج هــذه البلاد ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم » .

وأسرع أمورى الى أنطاكية ليتدارك أمرها ، ثم بعث الرسل الى نور الدين يطلب اليه الصلح ، فوجد عنده قبولا ، اذ كان يود أن يقفل هذا الباب ليفرغ للعمل العظيم ، فرضى باطلاق سراح بوهيموند الثالث وتوروس الأرمنى لقاء فدية كبيرة ، ورفض أن يخلى سبيل رايموند صاحب طرابلس أو رينو دى شاتيون ، وكان رأيه فى ذلك أن الأولين تابعان للامبراطور البيزنطى وهو يود أن يكسبه الى جانبه .

وقد أصاب فى تقديره ، لأن الامبراطور تجهم لأمورى واستنكر حضوره الى أنطاكية ، وهى تابعة للامبراطورية اسما . وقد خاف أمورى مما عسى أن يدبره له مانويل ، فأرسل سفارة الى القسطنطينية لتخطب له احدى أميرات البيت الامبراطورى ولتعقد معه حلفا للتآزر فى الاستيلاء على مصر . ووصلت السفارة فلم يحفل لها الامبراطور ، وتركها تنتظر رده عامين متواليين .

فى هذه الأثناء كان نور الدين يعد العدة لارسال شيركوه الى مصر ، فقرر أن يوجه الى الصليبيين فى الشام ضربة ثانية تلقى الروع فى نفوسهم وتشغلهم عما كان يعد العدة له . فعبأ جيشا قويا وزعم أنه متجه نحو طبرية فأسرع الصليبيون وتجمعوا فيها وحولها فتركهم فيها ونزل فجأة عند بانياس ، وكانت مفتاحا هاما من مفاتيح

الطريق الى مصر ، ثم ان صاحبها هونفروا الثانى دى تورون كان قد رافق أمورى فى حملته على مصر . وكانت بانياس حصنا شامخا فظن الصليبيون أنه يصمد طويلا ، ولكنه ما عتم أن استسلم لنور الدين ، فدخله وحصنه وملأه ذخيرة وعتادا ورجالا (المحرم ٥٦٣ / أكتوبر ١١٦٧) .

وقد اعتبر نور الدين فتحه لمصر جهادا دينيا ، وقال انه باستنقاذها وضمها الى جبهة القتال انما يحارب عدوين من أعداء الاسلام : الفاطميين والصليبيين ، وأرسل أسد الدين شيركوه الى بغداد ليستصدر من الخليفة العباسى فتوى بأن عمله هذا جهاد دينى ، وأجابه الخليفة الى ما طلب وجعل له امرة مصر اذا هو فتحها .

وبينما كان القتال يدور حول بانياس كان شيركوه قد بدأ مسيره الثانى نحو مصر ، وفى رفقته ابن أخيه صلاح الدين . وتسامع الناس بالأمر ووصل خبره الى شاور ، فأرسل الى أمورى يستنجده وكان أمورى فى نابلس ينظر فى أمر المعركة الدائرة عند بانياس ، فعقد مجلسا من كبار رجال مملكته ، فقرروا ضرورة المسير الى مصر ، وقالوا ان كل صليبى قادر على الخروج لابد أن يخرج ، فاذا شاء أن يتخلف دفع عشر ايراده السنوى معاونة للملك أمورى . فاذا

هم فى أخذ ورد اذا بالأنباء تصل بأن شيركوه يجتاز صحراء سينا ، فعجل أمورى بالخروج بمن حضره فى ٧ ربيع الثانى ٥٦٢/ ٣٠ يناير ١١٦٧ .

ولم يكن مسير شيركوه بالسهل الذلول ، فقد هبت على جيشه عاصفة رملية كادت تطمره ، ولكنه تمكن من الوصول الى اطفيح على أربعين ميلا جنوب القاهرة ، وهناك عبر النيل ، وسار حتى بلغ الجيزة ، فعسكر فيها قبالة الفسطاط . ووصل أمورى بمن معه ، وخف شاور لاستقباله ، وضرب الملك الصليبى معسكره تحت أسوار القاهرة .

وأخذ أمورى يساوم شاور على ثمن معاونته ، فأجابه هذا الى ما طلب ، وتعهد بأن يدفع له أربعمائة ألف دينار بيزنطى ، نصفها معجل والنصف الآخر مؤجل ، وفى مقابل ذلك ، أقسم أمورى بألا ينسحب من مصر الا اذا غادرها شيركوه . ثم طلب أن يرسل وفدا من رجاله لمقابلة الخليفة الفاطمى ليتأكدوا من الاتفاق ، فما كان يثق بشاور ، وأجيب الى طلبه ، وتألف الوفد من هيو صاحب قيصرية وفارس من الداوية يسمى جوفروا . ودخل الفارسان القصر الفاطمى وقادهما الخدم من بهو لبهو ، ورأيا من مظاهر الثروة والترف مالم يكن يخطر لهما على بال ، وقد

وصفا ما رأياه لوليام الصورى ، مؤرخ مملكة بيت المقدس ، فرواه فى تاريخه على صورة يخيل لقارئها أنه يتحدث عن قصور ألف ليلة وليلة .

وظل الجيشان يرقب أحدهما الآخــر عبر النيل ، ولم يكن شيركوه معجلا فيفكر فى الهجوم ، وكان يعلم أن خصمه لا يحتمل المقام الطويل ، وأنه لا يلبث أن يقلق بسبب معركة بانياس . وقد قلق أمورى ، وتقدم فعبر النيل عند رأس جزيرة وراق الحضر ، وترك حامية تؤمن عسكره يقودها شجاع بن شاور وهيو دى ايلين ، ولم تطق هذه الحامية البقاء فى المعسكر ، فأذن لها شجاع فى دخول البلد ، فاندفع فرسان الصليبيين ومقاتلوهم يجوسون خلاله مما روع الأهلين وزادهم نفورا من شاور وابنه الخسيس شجاع .

وتراجع شيركوه أمام أمورى ، فلما وصل الى الأشمونين تريث واستعد للموقعة عند « البابَين » . وكانت قوات الصليبيين والفاطميين تزيد زيادة ظاهرة على جند شيركوه ، ولكن عــدد الفرسان فيها كان قليلا ، أما شيركوه فكان عماده الخيالة السريعة الوافرة . وقد رسم شيركوه ، خطته على أن يقف صلاح الدين فى القلب ويتقهقر به اذا هجم العدو ، فلما تراجع صلاح الدين حسب أمورى أنها هزيمة دارت على خصمه ، واندفع بمن معه فى أثره ،

وهنا أطبق شيركوه جناحى جيشه عليه وعلى من معه ، ووقع فيهم القتل وأتى السيف على معظمهم ، ولم ينج أمورى الا بشق النفس ، فأسرع ، وفى أعقابه شاور ، متجهين نحو الشمال ، وعبر النيل فى فلول قليلة ، ولم يطمئنا الا عندما وصلا الى الحامية التى خلفاها عند القاهرة . ووقع مئات من فرسان الصليبيين فى الأسر ، وكان فيهم هيو صاحب قيصرية (٢٥ جمادى الثانية سنة ٥٦٢/ ١٨ مارس سنة ١١٦٧) .

ولم يشأ أسد الدين أن يتتبع أمورى وشاور ، فقد كان لا يشك فى أن الملك الصليبى مبادر بالعودة الى بيت المقدس ، وخاصة بعد هذه الكارثة التى حلت به وبجيشه ، أما هو ففى فسحة من الوقت ، وهو مقيم فى مصر لا يبرحها الا اذا عقد زمامها بلواء نور الدين ، فترك المنهزمين فيما هم فيه ، وسار نحو الفيوم ، ومنها اخترق مديرية البحيرة وظهر أمام الاسكندرية . ورحب به أهلها وفتحوا له أبوابها فدخلها ، وظاهر أن هدفه من ذلك كان التحصن فى ذلك البلد الكبير .

وتبين شيركوه أن أعداءه أكثر منه عددا وعدة ، وأن عليه أن يحسن استخدام ما لديه من الجند القليلين أحسن استخدام ، فجمع ضباطه ليدرس الموقف معهم ، فوجد أن معظمهم يرى المبادرة

بالعودة الى الشام ، ولكن جماعة قليلة أيدته فيما طلب من الاستمرار فى القتال ، ثم قال شيركوه : « ان من يخاف القتل والأسر لا يخدم الملوك ، بل يكون فى بيته مع امرأته » ، وأخذ يحضهم على القتال ويخوفهم من عواقب « تسليمهم مصر للصليبيين » فثارت حميتهم وأجمعوا على القتال .

وحسب شيركوه أنه يستطيع أن يؤثر فى شاور ويجذبه الى صفه اذا هو تحدث اليه حديث المسلم الصادق لأخيه ، فبعث اليه يقول : « أنا أحلف لك بالله الذى لا اله الا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أننى لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعاود اليها أبدا ولا أمكن أحدا من التعرض اليها ، ومن عارضك فيها كنت معك البا عليه ، وما أريد منك الا نصر الاسلام فقط ، وهوان العدو ، وقد حصل بهذه البلاد ، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير . وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز فيه هذه الفرصة التى أمكنت والغنيمة التى قد كتبت ، فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته ، وما أظن أنه يعود ويتفق للاسلام مثل هذه الغنيمة أبدا » ، ولكن أين عند رجل مثل شاور عاطفة تستثار أو ضمير يتحرك ؟ لقد كان رد السفيه الجامد القلب الجاحد النفس أن قتل رسول شيركوه ، ومضى الى حلفائه أعداء بلاده فأطلعهم على رسالة شيركوه ، وأكد لهم اخلاصه لهم وتفانيه فى خدمتهم !

وريع بولدوين لما حدث ، وقرر التعجيل بالمسير الى الاسكندرية وهذا ما كان يريده شيركوه ، اذ أنه كان يطاول ويروح ويغدو حتى يخضد شوكة الجيش الصليبي من ناحية ، ويسئم أمورى ويرغمه على الخروج الى بلاده من ناحية أخرى . وكانت قوات الصليبيين والفاطميين لا زالت ، رغم موقعة البابين ، تفوق جيشه عددا . فلما وصل شاور وأمورى أمام الاسكندرية ضربا حولها الحصار ، وطال أمده حتى تعب الجانبان . فقرر أسد الدين أن يعود الى التحرك ، فخرج من البلد بكتلة جيشه ، مخلفا وراءه صلاح الدين فى نحو ألف فارس ، ومضى نحو الصعيد ، فقرر أمورى أن يتبعه ، ولكن شاور أفسد الخطة ، فرد أمورى عن غرضه واستحثه على الاسترسال فى الحصار . وثقل الأمر على صلاح الدين ، وبعث يستنجد عمه . وفى هذه الأثناء رأى الصليبيون من مهارة صلاح الدين وكياسته ما ملأ نفوسهم اعجابا به ، حتى زعم مؤرخوهم أن هونفروا الثاني دى تورون (ابن الهنفرى) رسمه فارسا .

وعاد شيركوه الى الاسكندرية منجدا لابن أخيه صلاح الدين فلما قاربها أخلى سراح أحد أسراه من فرسان الصليبيين ، وكلفه بأن يبلغ أمورى أنه مستعد للانسحاب من مصر اذا وافق الصليبيون

على الخروج . وكان أمورى ينتظر هذا العرض بفارغ الصبر ، فقبله ، وترك حامية صلاح الدين تخرج معززة مكرمة فى شوال سنة ٥٦٢ / أغسطس سنة ١١٦٧ . وقد تعلم أمورى خلال هذه المناورة الطويلة كيف يحترم رجال نور الدين ، ووافق على أن ينقل الجرحى من جيش شيركوه على سفنه الى عكا ، ومنها الى دمشق . وغادر الجانبان مصر فى سبتمبر ، وتبين بعد ذلك أن شاور اتفق مع أمورى سرا على أن يؤدى اليه جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار .

وقد استاء نور الدين لانسحاب شيركوه من مصر ، ولكنه لم يكلمه فى الأمر ثقة منه بأنه بذل جهده ، وكانت ثقته فيه عظيمة . ولا شك فى أن حملة أسد الدين الثانية كانت بعيدة الأثر ، نعم ان شيركوه لم يستول على مصر نهائيا ، ولكنه أفلح فى الايقاع بالصليبيين وكسر شوكتهم واجهادهم اجهادا بالغا سيكون له أثر بعيد فيما يلى من الأحداث . ثم انه لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، فقد كانت أعداد جند الصليبيين والفاطميين أكثر من أعداد جيشه ، وشاور ومن معه يقاتلون عن حياتهم قتال المستيئس ، وكان خير ما يستطيع شيركوه عمله هو الانسحاب ثم العودة بالقوة الكافية لتوجيه الضربة الحاسمة بعد قليل .

ولم يكن هناك شك فى أن الجولة الثالثة سيكتب الفوز فيها للقوات النورية ، فان نشاط نور الدين ورجاله المتصل قد استأصل زهرة فرسان الامارات الصليبية ، فلم يعد لديها الا ما تمسك به ما بيدها من الحصون . ولم تعد هناك من قوة يعتمد عليها غير هيئتى الداوية والاسبتارية ، وكانت أعداد أفرادهما فى زيادة متصلة ، اذ أن جماعات من الفرسان كانت تفد فى تيار متصل من الغرب الأوروبى للانضمام اليهما ، حتى كثرت أعداد الفرسان فيهما وأصبحت كل منهما تضم بضعة آلاف من خيرة المقاتلين الذين لا تخلو قلوبهم من الحمية لدينهم . فأخذ أمورى يسلم اليهم الحصون شيئا فشيئا ، حتى صار لهم معظم نواحى امارة طرابلس ، فملك الداوية أكبر الحصون الواقعة فى شماليها ، وأخذ الاسبتارية حصون البقاع ، وأعظمها حصن الأكراد الذى سمى كرك الفرسان (كراك دى شيڤالييه) نسبة اليهم .

أما فى مملكة بيت المقدس نفسها فقد اختص الداوية بغزة ، ثم أعطيت لهم صفد ، وأخذ الاسبتارية حصنا يسمى بلڤوار كان الصليبيون قد شيدوه فى موقع حصين يشرف على وادى الأردن وبحيرة طبرية . وأصابت الهيئتان حصونا وبلادا مماثلة فى أنطاكية بحيث يمكن القول بأن أمر الدفاع عن ممتلكات الصليبيين فى الشام

كان من جوالى سنة ٥٥٥/١١٦٠ بيد فرسان هاتين الجماعتين ، ولولا ما كان بين رجالهما من تحاسد وتنافس على السلطان لأصاب المسلمين منهم أذى شديد .

وبينما كان هذا السباق يجرى على أرض مصر ، كان نور الدين حركة دائبة فى الشام : استولى على حصن صافيثا والعريمة وفتح الطريق الى بيروت ، فمضى نحوها مسرعا ، ولكن خلافا شب بين جند عسكره ، فاضطر الى الرجوع عنها ، وكان معه فى هـذه الغزوة أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل ، فكافأه بالنزول له عن مدينة الرقة على الفرات (٥٦٣/١١٦٧) .

وفى العام التالى أتيحت لنور الدين فرصة الخلاص من آخر امارة بقيت مستقلة داخل بلاده ، وهى قلعة جعبر ، وكان يتولاها قبيل من العرب يعرفون بالعقيليين منذ أيام السلطان السلجوقى ملكشاه ، وكان العقيليون — كمعاصريهم المنقـذيين أصحاب شيزر وبنى عمار أصحاب طرابلس — يجرون على سياسة المصانعة والمداورة ، ولا ينطوون على اخلاص لقضية الوحدة التى تصدى لها نور الدين ، وكان هذا يمهلهم الى يومهم ولم ينس أن أباه زنكى مات على حصارها .

فلما كانت سـنة ٥٦٤/١١٦٧ — ١١٦٨ وقع صـاحبها

شهاب الدين مالك بن على بن مالك العقيلى فى أسر نفر من أعدائه من بنى كلاب ، فحملوه الى نور الدين ، فاعتقله على تكرمة واحسان ، وعرض عليه النزول عن بلده فى مقابل اقطاع يمنحه اياه ، فرفض الرجل ، ولو كان يعلم أن نور الدين فظ غليظ القلب لطلب السلامة وقبل، ولكنه كان يعرف أن نفس نور الدين لن تسمح بأذاه ، فجعل يتعلل ويتشدد كأنه مالك أمره ، فما زال به نور الدين حتى أرضاه بمال كثير واقطاع عظيم تزيد غلته على غلة قلعة جعبر ونواحيها ، ولكن نور الدين نظر الى الأهمية العسكرية للقلعة ، فقد كانت تطل على الضفة الشرقية للفرات وتتحكم فى معبر له أهميته ، أما الاقطاع الذى أعطاه اياه فقد كان أرضا واسعة غنية لا حصون فيها ، وكان نور الدين حريصا على الحصون والقلاع زاهدا فيما عداها .

ومن أوائل سنة ٥٦٤ / أواخر سنة ١١٦٨ بدأ نور الدين يعد حملته الثالثة على مصر ، وكانت الحملة الثانية قد أكسبت شيركوه وجنده خبرة بأحوال البلاد ومعرفة بأرضها ، وقد تعلق بمصر قلبه فمضى منذ انسحابه منها يستحث مولاه على ضرورة العودة اليها ، ولكن نور الدين آثر انتظار الفرصة المواتية حتى سنحت له . ذلك أن شاور كان قد اتفق مع أمورى سرا على أن

يحتفظ بحامية صليبية يستعين بها على حكم بلاده ، وأصر أمورى على أن تكون أبواب البلد بيد هذه الحامية ، فتسلموا الأبواب ، وصاروا بهذا أصحاب اليد العليا فى عاصمة الفاطميين ، فركبوا أهلها بالأذى حتى ثقلت وطأتهم على شاور ومن معه ، وبدأ الناس يتحركون للوثوب عليهم ، فعجل قائد الحامية وبعث الى أمورى يطلب اليه الاسراع ليسلمه البلد وما فيه . وزاده الحاحا فى ذلك ما ترامى الى سمعه من أن شجاع بن شاور يراسل نور الدين ويستدعيه للاسراع الى مصر على أن يكون نائبه فيها ، وكان شجاع عندما رأى أن أمره وأمر أبيه الى زوال طمع فى أن ينجو بنفسه ويفوز بشىء ، فجعل يراسل نور الدين ، وكان هـذا يعرف أمثال هذا الشاب معرفة طيبة ، فلم يلق الى رسائله بالا .

وجمع أمورى مجلس مملكته ليبحث الأمر ، واشـترك فى المجلس فارس فرنسى وصل فلسطين فى تلك الآونة هو جيوم الرابع كونت نيڤير ومعه قطعة طيبة من الفرسان ، وقد تحمس هذا الفارس ومن معه لفكرة المسير الى مصر وأيدهم جيلبير دى أسيبى رئيس هيئة الاسبتارية ، وانبرى الداوية يعارضون ، وكان هذا دأبهم مع الاسبتارية أبدا ، أما أمورى فقد تردد ، فقد كانت التجربة الماضية فى مصر درسا لا يسهل نسيانه ، وكان بعد عودته

من مصر قد تقرب من الامبراطور البيزنطى وأصهر اليه وتحالفا على أن يسيرا الى مصر معا ويتقاسما الغنيمة ، ففضل انتظار المعاونة من القسطنطينية ، وكره رجاله ذلك خوفا من أن يشركهم البيزنطيون فى غنائمهم ، فحملوا أمورى على الاسراع بالمسير .

وكان نور الدين قد اضطر الى المسير نحو الشمال لتسوية نزاع أثاره قلج أرسلان الثانى سلطان سلاجقة آسية الصغرى ، فبينما هو فى الشمال اذ أتاه نبأ مسير أمورى الى مصر فى ١٦ محرم سنة ٥٦٤/٢٠ من أكتوبر سنة ١١٦٨ . وكان أمورى قد أراد تضليل نور الدين فأوهم أنه خارج الى حمص ، وبالفعل مضى نور الدين بجموعه نحو هذا البلد ، ثم انكشف الأمر ، فعجل بارسال أسد الدين شيركوه وصلاح الدين فى أعقاب الجيش الصليبى (ربيع الأول سنة ٥٦٤ / ديسمبر ١١٦٨) .

وصل أمورى الى بلبيس واستولى عليها بمعونة نفر من أعداء شاور ، وريع هذا لذلك الهجوم المباغت ، فما كان يظن أن حلفاءه الصليبيين يغدرون به ، فكان حاله معهم كحال معين الدين أنر ، عندما أمن للصليبيين ، فلم يمهلوه الا ريثما تهيأت لهم فرصة القضاء عليه فساروا نحوه . وأخذ شاور يرسل الرسل الى أمورى ليذكروه بعهده وليردوه عن مصر ، فطلب مليونين من الدنانير ثمنا لانصرافه .

واستولى أمورى على بلبيس فى ١ صفر سنة ٥٦٤/٤ نوفمبر سنة ١١٦٨ بعد مقاومة يسيرة ، فقتل الصليبيون كل من وجدوه فيها على صورة مروعة . وفى نفس الوقت نزلت جماعة من الصليبيين بساحل مصر الشمالى عند بحيرة المنزلة ، واستولت على تنيس ، وذبحت كل من وجدته فيها ، مسلمين وأقباطا ، وقد كان لهاتين المذبحتين دوى بعيد ، فنهض أهل مصر جميعا للدفاع عن ديارهم ، وصار المسلمون والأقباط صفا واحدا أمام الصليبيين .

ثم وصل أمورى أمام الفسطاط فى ١٠ صفر سنة ٥٦٤/ ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ ، ولم يجد الخسيس شاور ما يفعله الا أن يحرق الفسطاط ، فاشتعلت النيران فيها أربعة وخمسين يوما حتى صارت أطلالا ، ولا زالت آثار الحريق بادية على ما بقى من خرائبها الى اليوم . وأرسل شاور رسولا الى أمورى يهدد باحراق القاهرة هى الأخرى اذا لم يرتد أمورى ورجاله ، وكان هذا ينتظر الحملة التى هبطت عند بحيرة المنزلة وأخذت تنيس ، ولكن المصريين تجمعوا عليها وأحرقوا الكثير من سفنها ، ووضعوا الحوائل فى طريق الباقى ، فظل من بقى من رجالها فى الشمال لا يستطيع حراكا . وأدرك أمورى أن أمله فى الاستيلاء على مصر قد تبدد ، لا بسبب شجاعة شاور بل لما رأى من قيام المصريين

عليه وهجوم جماعاتهم على معسكره وتخطفهم رجاله ، ومنعهم قواته التى نزلت بالشمال ، فبدأ يساوم شاور على مال يأخذه لقاء انسحابه من مصر ، فعرض شاور مائة ألف دينار معجلة ، واشتد الأمر على أمورى فانسحب بجيشه الى موضع المطرية ، وضرب خيـــامه .

ووصلته الأخبار وهو فى معسكره بأن شيركوه فى الطريق الى مصر ، وكان الخليفة العاضد — عندما تحقق من الهلاك ورأى عبث شاور — قد بعث يستصرخ نور الدين ويستحثه لنجدته ، وبعث مع الرسالة شيئا من شعر نسائه ، اسرافا منه فى حفز همة نور الدين ، ولم يكن هذا فى حاجة الى ذلك التذلل كله ، فقد كان قد عول على ارسال النجدة . ولم ينتظر المصريون حتى ينتهى شاور من مناوراته ، بل أسرعوا وكتبوا الى نور الدين يعرضون عليه أن يكون البلد فى طاعته ، يقيم عليه نائبا عنه فيه ، وتعهدوا بأن يؤدوا له ثلث خراج البلاد . هذا بينما كان شاور قد دفع لأمورى مائة ألف واشتد على الناس فى جمع مال آخر ، فلم يتحصل له الا خمسة آلاف دينار .

وقد احتفل نور الدين بتجهيز عسكر شيركوه هـــذه المرة احتفالا رجا به أن يضمن النصر ، فجعل له ثمانية آلاف فارس ،

وأعطاه مائتى ألف دينار لنفقات الحملة ، وأعطى كل فارس عشرين دينارا معونة غير محسوبة فى راتبه ، وضم الى شيركوه ابن أخيه صلاح الدين ونفرا من خيرة جنده ومماليكه ، مثل عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين يرغش وقطب الدين اينال ابن حسان المنبجى ، وخرج نور الدين لوداع العسكر ، فسار معهم من دمشق الى رأس الماء (ربيـع الأول سـنة ٥٦٤ / ديسمبر سنة ١١٦٨) .

وكان أمورى قد قرر الاسراع بالنجاة بنفسه قبل أن يدركه أسد الدين شيركوه ، فأخذ فى التراجع فى ربيع الثانى سنة ٥٦٤/ يناير سنة ١١٦٩ وأمر أسطوله المعلق فى الشمال بالابحار الى عكا .

*

ووصل أسد الدين شيركوه ليجد أبواب مصر مفتحة أمامه ، فدخل القاهرة من ناحية باب اللوق . ثم توجه الى قصر الخلافة ولقى العاضد فرحب به وقدم له المال ، وتعهد بمئونة جيشه ، وحضر المقابلة شاور ، وتظاهر بالسرور لمجىء شيركوه على قدر ما سمح به نفاقه .

وقد فرح أهل مصر بشيركوه وجنده ، وأظهروا من آيات البشر ما قوى نفسه وقطع آمال شاور وأمثاله ، وبلغت البشرى

نور الدين فطابت نفسه ، وبعث رسله ينشرونها فى كل مكان ، واعتبر دخول قائده القاهرة فتحا أكرمه الله به خدمة للاسلام ، وأيقن أن ساعة القضاء على الصليبيين قد أقبلت .

أما شاور فقد كظم الغيظ ، ومضى يتردد على أسـد الدين شيركوه محاولا خداعه ، وكان شيركوه رجلا طيب القلب كمولاه نور الدين ، فتركه يروح ويغدو ، حتى طمع هذا الثعلب ، فدبر فى نفسه أن يدعو أسد الدين وكبار جنده الى وليمة ثم يغدر بهم ويقتلهم جملة . وأطلع ابنه شجاع على ما دبره فراعه الأمر ، وقرر أن يحول بين أبيه وما أراد ، لأنه كان لا يزال يمنى نفسه بأن يعهد اليه نور الدين أو قائده فى شىء ، فقال له أبوه : « والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا » فقال شجاع : « صدقت ، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبـلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فانه ليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون البلاد » . وهذا القول من شجاع يصور لنا موقف العقلاء من أصحاب شاور بعد انتصار شيركوه ، نقول « العقـلاء » فحسب ، لأن أحدا منهم لم يكن مخلصا ، وشجاع هذا هو الذى اشترك مع حامية أمورى التى عسكرت الى

جوار القاهرة أثناء الحملة الماضية ، وهو الذى سلمها مفاتيح البلد وترك رجالها يدخلونه ويعيثون فيه على ما رويناه .

وأحس الشبان من رجال شيركوه بالخطر الذى يتهددهم من شاور ، فقرر صلاح الدين وعز الدين جرديك ومن معهما التخلص منه ، فهجموا عليه قرب ضريح الامام الشافعى ، وطرحوه ثم أسروه ، وأبلغوا أسد الدين شيركوه . ولم يكد العاضد يسمع بذلك حتى طلب رأسه ، وألح فى ذلك ، حتى وافق أسد الدين على قتله ، فقتل فى أوائل ربيع الثانى سنة ٥٦٤ / فبراير سنة ١١٦٩ ثم هجم الناس على دوره فنهبوها ، وتوارى شجاع ونفر من أصحابه ، ثم لجأ الى القصر يعتصم به ، ولم يسمع أحد به بعد ذلك ، والأغلب أن رجال القصر قتلوه . وهكذا انتهت قصة هذا البيت الذى لم ير المصريون منه الا شرا .

وأقام العاضدُ أسدَ الدين شيركوه وزيرا له مكان شاور ، وصارت مقاليد الأمور اليه . وبهذا أصبحت مصر جزءا من دولة نور الدين ، وامتدت جبهة الاسلام المتحدة حتى شملت وادى النيل . وتمت الوحدة التى دعا اليها شرف الدين مودود ومن جاء بعده ، حتى توجها شيركوه بهذا الفتح العظيم .

ولم يمتد الأجل بشيركوه لينعم بخيرات الفتح الذى طالما

جاهد فى سبيله ، فقد توفى بعد شهرين وبضعة أيام من توليه الوزارة (السبت ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤/٢٣ مارس سنة ١١٦٩) وبهذا اختفى من الميدان رجل يعد فى الطليعة من قادة المسلمين قدرة واقداما واخلاصا . ولسنا نعلم سنه يوم توفى ، لأن أحدا من المؤرخين لم يذكر سنة ميلاده على وجه التحديد . ظهر شيركوه على مسرح الحوادث حوالى سنة ٥٢٠/١١٢٦ ، فقد كان هو وأخوه الأكبر نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) فى خدمة مجاهد الدين بهروز رئيس الشرطة فى بغداد ، وآنس مجاهد الدين فى نجم الدين أيوب عقلا وكفاية ، فأقامه حافظا لقلعة تكريت. وكان أبوهما شادى من كبار الأكراد الروادية ، ويقال انهم أشراف الأكراد . وعمل أسد الدين شيركوه مع أخيه فى قلعة تكريت .

وفى سنة ٥٢٦/١١٣١ — ١١٣٢ أتيحت لهما فرصة الاتصال بعماد الدين زنكى ، فقد أقبل هذا الى تكريت منهزما فى احدى مواقعه مع منافسيه فى العراق ، فقدما له العون وكسبا ثقته . ثم حدث أن وقعت ملاحاة بين أسد الدين ورجل من أهل تكريت أدت الى شجار ، فضرب شيركوه الرجل فقتله ، فأخرجه مجاهد الدين وأخاه من تكريت . فمضيا الى زنكى ودخلا فى خدمته ، وتولى نجم الدين قلعة بعلبك . فلما قتل عماد الدين زنكى سار معين الدين

أنر الى بعلبك واستنزل نجم الدين أيوب وعوضه باقطاع واسع فانتقل الى دمشق وأصبح من كبار رجال أنر . أما شيركوه فقد دخل فى خدمة نور الدين ، فوجد عنده من الاقدام والمهارة والاخلاص ما جعله يرقى به الى مراتب الأمراء . وكان نور الدين يفضل عليه مجد الدين بن الداية ، وكان أخاه فى الرضاع ، ولكن مواهب أسد الدين ما لبثت أن قدمته ، فصار ساعد نور الدين الأيمن .

وفى أثناء حصار نور الدين الأخير لدمشق تجلت مواهب شيركوه كقائد يعرف كيف يرسم الخطط ويخوض المعارك غير هياب ، وبعد استيلاء أسد الدين شيركوه على دمشق أصبح رجل الدولة النورية دون منازع . فقد وجد عنده ذلك المجاهد العظيم كل ما يرجوه عند قائد من قواده : اخلاصا وبعد نظر وايمانا بالوحدة الاسلامية واقداما على ركوب المخاطر ، فادخره للخطوة الكبرى التى كان يمهد لها وهى ضم مصر ، فعهد اليه فى القيام بالحملة الأولى .

ومن ذلك الحين تعلق قلب شيركوه بمصر وأصبح يرى ضرورة ضمها الى الدولة النورية ويلح على نور الدين فى ذلك حتى ليذهب بعض المؤرخين الى أنه كان يطمع فيها لنفسه . ولكن سيرة شيركوه تدل

على أنه لم يكن من أصحاب المطامع ، وانما هو رجل مجاهد آمن بفكرة ومضى لتحقيقها ، وهو هنا يختلف عن أخيه الأكبر نجم الدين أيوب ، ولهذا لم يصل هذا الأخير الى ما وصل اليه شيركوه من الرياسة وبعد المنزلة . وكان عليه أن ينتظر حتى تجلى نبوغ ابنه صلاح الدين فاجتهد فى أن يعوض عن طريق ابنه ما فاته .

كان أسد الدين شيركوه قصير القامة يميل الى السمن ، نتيجة لاقباله الشديد على الطعام الدسم ، وكان الاجهاد المتواصل والاسراف فى الطعام قد أصاباه بضغط الدم من زمن مبكر ، فكان وجهه يبدو أكثر الأوقات محتقنا مما حدا بالمؤرخين الى القول بأنه كان أحمر الوجه . وكان قد فقد احدى عينيه فى المعارك ، ولكنه كان جنديا مفطورا على القيادة يخالط حب الميادين دمه ، فمنذ ظهوره على مسرح الحوادث لا نراه الا فى الميدان ، كأنما قد فارق البيوت والمضاجع الى غير رجعة . وكان كريما على جنده لا يكاد يصيب من مغانم المعارك شيئا ، بل يؤثر بها جنده ، ثم انه كان صارما يعرف كيف يقر النظام فى معسكره ، فهابه جنده وأحبوه ، وركبوا معه المخاطر فى حملات هى أقرب الى المغامرات ، ولقد قطع الرجل الشام بجيوشه من شمال لجنوب ومن شرق لغرب عدة مرات ، واخترق صحراء سينا مقتحما المصاعب

وعواصف الرمال ثلاث مرات ، ووصلت جيوشه الصعيد والفيوم والاسكندرية ، وحج فى نفر من أصحابه ، وذهب الى بغداد أكثر من مرة ، وكانت حياته كلها جهادا وحربا ، لا يسكن الى الراحة يوما ، وكان ما عاش رعب الصليبيين فى الشام ، وأمنا للاسلام والمسلمين من الشام الى أطراف مصر .

وكان أسد الدين بطبعه عميق الايمان ، ولكن عمله مع نور الدين زاد ايمانه عمقا وأضفى عليه شمولا فى النظرة والاحساس ، بحيث أصبح يشاركه فيما آمن به ودعا اليه من وحدة الاسلام وسلامة المسلمين وضرورة اخراج الصليبيين من ديارهم ، وقد لمحنا جانبا من فهمه السليم لهذه الناحية خلال ما رويناه من تاريخه . ولقد عاجله الموت عن أن يوطد أركان الملك الذى أعان على تشييده بيديه ، وكان من حسن الطالع أن صاحبه ورفيقه المقرب اليه كان ابن أخيه صلاح الدين ، فقبس من ايمانه وتدرب على يديه ثم نهض لاكمال الرسالة الكبرى .

وانه لمن المصادفات السعيدة فى تاريخ الاسلام أن تمتد سلسلة المجاهدين نحو القرن ، وكلما غاب من الميدان زعيم نهض من بعده زعيم ، وكل خلف يزيد على السلف فى المواهب والملكات ، حتى انتهت الراية آخر الأمر الى قمة النبوغ السياسى العسكرى

الاسلامى فى ذلك العصر عند صلاح الدين ، فقد قبس ايمان نور الدين وسياسته وبعد نظره واتجاهاته فى العمل ، وأخذ عن عمه الجرأة والاقدام وفن الحرب ، وأضفى على ذلك كله من مواهبه الشخصية وخلاله التى تفرد بها ما جعله أعظم شخصيات العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء .

*

وقد كان لدخول مصر فى دولة نور الدين دوى بعيد لا فى مملكة بيت المقدس وحدها بل فى الغرب الأوروبى كله . فأما أمورى فقد زلزلت الأرض من تحت أقدامه ، فجعل يلوم من نصحه من رجاله بالعودة من مصر ، واشتد عليهم حتى اضطر رئيس الاسبتارية الى مغادرة فلسطين والعودة الى بلاده . ثم اتجه أمورى نحو أوروبا يطلب من ممالكها أن تجرد لعونه حملة صليبية جديدة ، فأرسل سفارة ضخمة يقودها بطريق بيت المقدس وأسقف قيصرية ، وزودها بخطابات الى لويس السابع ملك فرنسا وفردريك امبراطور ألمانيا وهنرى الثـانى ملك انجلترا ومرجريت الوصية على عرش صقلية والى نفر من كبار الشخصيات مثل آكنات فلاندر وبلوا وتروا ، ولكن السفينة صـادفت عاصفة فى البحر فارتدت الى عكا . فأرسل أمورى سفارة أخرى لقيت البابا اسكندر الثالث فزودها بتوصيات للملوك .

فأما لويس السابع فقد سوف فى الرد حتى انقضت سنتان على السفراء فى باريس مات خلالهما واحد منهم ، ثم ذهبت بقيتهم الى انجلترا فاعتذر لهم هنرى الثانى بمتاعبه مع خصومه ، ولم تستطع السفارة زيارة ألمانيا بسبب الخصومة بين البابا والامبراطور ، وعادت الى بيت المقدس دون نتيجة .

فعاد أمورى واتجه ببصره نحو القسطنطينية ، وكان مانويل كومنين قد أدرك النتائج التى ترتبت على اتساع نفوذ نور الدين ودخول مصر فى طاعته ، فوعد بارسال أسطول يهاجم مصر ، وشجعه على ذلك اشتغال نور الدين بمتاعب جديدة سببها له أمير ديار بكر ، ثم مرض أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل مرض الموت ، فحرص نور الدين على أن يكون قريبا من الموصل لينظر فى مصير امارته اذا مات ، وسنورد تفصيل ذلك فى الفصل التالى . ويهمنا هنا أن نذكر أن الامبراطور البيزنطى تشجع عندما علم بوفاة أسد الدين شيركوه ، وحسب أن صلاح الدين شاب صغير لا يملك شيئا أمامه ، ثم أتته رسائل من الخليفة العاضد تستحثه على المسير الى مصر ، وتعده بالمعاونة للخلاص من جند نور الدين جملة .

وكان صلاح الدين قد أبدى من يوم توفى عمه من المهارة

ما دل على أنه خير خلف لخير سلف ، فعرف كيف يستخلص الوزارة لنفسه ويقوم مقام شيركوه فى كل شيء . ويذهب المؤرخون الى أن رأى العاضد استقر على اسناد الوزارة اليه لأنه كان أضعف أمراء شيركوه وأصغرهم سنا ، فظن أنه اذا ولاه تمكن رجال القصر الفاطمى من استعادة سلطانهم . وليس شيء أبعد عن الصواب من مثل ذلك القول ، وانما هو قصص يرسله مؤرخونا القدامى على سبيل الطرافة أو للدلالة على قدرة الله أن يسوق الملك الى من يشاء .

والحقيقة أن صلاح الدين كان الساعد الأيمن لشيركوه ، وكان أقدر رجاله وأبعدهم نظرا رغم صغر سنه ، فهو صاحب فكرة الانسحاب الى بلبيس ، وهى فكرة أنقذت جيش شيركوه أثناء الحملة الأولى ، وهو الذى حمى الاسكندرية ودافع عنها وأرغم الصليبيين على احترامه . أما بقية من كانوا معه من القواد فلم يندبهم نور الدين الا على سبيل المساعدة ، وكانوا فى مجموعهم ضباطا أو مماليك لنور الدين يبعثهم فى المهمات ويعهد اليهم فى الأمور ، ولكنه لا يعهد اليهم فى قيادة ذات خطر .

وقد رأينا صلاح الدين الى الآن أكثر من مرة ، وشهدنا حسن منابه فى الأمور ، ولكننا لم نسمع قبل ذلك عن عين الدولة الياروقى

وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى وشهاب الدين محمود الحارمى ومن اليهم من رجال جيش شيركوه الذين يزعم المؤرخون أنهم كانوا أظهر من صلاح الدين وأقوى ، وأن العاضد اختاره لأنه أقلهم جميعا . لم يكن فى الواقع فى جيش شيركوه أهم من صلاح الدين يوسف ولا أقوى ، واذا أراد العاضد أن يعهد بالوزارة لأحد بعد شيركوه فليس هناك الا صلاح الدين .

ثم اننا نشك فى أن العاضد فعل هذا من تلقاء نفسه ، فان الرأى فى الموضوع لم يكن له بل لنور الدين ، فهو أمير البلاد والرئيس الأعلى ، ولم يبلغ به الأمر أن يترك العاضد ورجال قصره يختارون له نائبه على مصر . أقول ان هذا كان رأى نور الدين وان لم يؤكد لنا المؤرخون ذلك ، وأبسط الدلائل على ذلك أن نور الدين تلقى نبأ قيام صلاح الدين بالأمر وكأنه أمر مقرر معروف لديه ، وأفاض عليه من الاكرام والرضى ما دل على أنه رجله المختار لا رجل العاضد .

وكان صلاح الدين بعد ولايته قد فرض رقابة شديدة على الخليفة الفاطمى ، فلم تلبث أن وقعت فى يده رسائل رجال القصر الى الامبراطور البيزنطى . ويذهب المؤرخون — استرسالا منهم فيما يستحبونه من القصص — الى أن احدى الرسائل وقعت

فى يده على سبيل المصادفة ، ويحكون أن حاملها دسها فى نعله ، فلقيه تركمانى فأعجبه النعل فسلب صاحبه اياه ، ثم وجد الرسالة فيه فمضى بها الى صلاح الدين . وأقرب الى المنطق أن يقال ان صلاح الدين كان يراقب الداخلين الى القصر والخارجين منه ، فكان من المعقول أن تقع فى يده هذه الرسالة ، ومصداق ذلك أنه تظاهر بعد ذلك بأنه لم يعرف شيئا ، ومضى يراقب ثعالب القصر وعلى رأسهم خصى أسود يسمى مؤتمن الخلافة ، وما زال يراقبه حتى تأكدت شبهته فيه ، فانتظر حتى خرج الرجل الى ضيعة له ، فأمر به فقتل ، ثم قبض على بقية خدم القصر ، وولى رجالا من عنده على رأسهم بهاء الدين قرقوش ، وعندما علم السودان بما جرى على مؤتمن الخلافة وأصحابه ثاروا فأطفأ جمرتهم ، وكانوا خمسة آلاف ، وقضى على هذه الشرذمة من جند الخلافة الفاطمية التى طال عبثها بأمن البلاد .

ولم يدر أحد من الصليبيين والبيزنطيين بما حدث ، فخرج الأسطول البيزنطى من البوسفور فى ذى القعدة سنة ٥٦٤/يوليو سنة ١١٦٩ يقوده قبطان فخم الاسم يسمى أندرونيكوس كونتوستيفانوس ، ووصل الى قبرص ثم ألم بعكا حاملا معونة من مال لأمورى ، وانتظر الأسطول البيزنطى أن يقبل جنود مملكة

بيت المقدس وفرسانها ، ولكن أمورى لم يكن لديه فرسان يبعث بهم ، فقد غضب الداوية وخاصموه ، وكانت حملة مصر الأخيرة قد أصابت الاسبتارية بخسائر ثقيلة . ولبث الأسطول فى عكا الى صفر سنة ٥٦٥/أكتوبر سنة ١١٦٩ ريثما يتيسر لبعض فرسان بيت المقدس مرافقته .

وضجر مانويل كومنين من ذلك التلكؤ ، فقد كان أرسل أسطوله فى هذه المهمة حاسبا أنها تتم فى ثلاثة شهور ، وانقضت هذه الشهور وأسطوله بعدُ راس فى عكا ، واحتاج رجاله للمئونة وعدموها فى عكا وقبرص . وفى هذه الأثناء كان صلاح الدين قد تخلص من مؤتمن الخلافة ورجال القصر وقضى على جند السودان ، وأعقب ذلك بالقضاء على الفرقة الأرمنية التى كان القصر الفاطمى يعتز بها ، فوقعت رهبته فى النفوس ، فقد كانت هذه الفرقة قد اعتصمت بمعسكراتها ، حاسبةأن صلاح الدين سيسرع الى طلب مرضاتها ، فما راعها الا وهو يشعل النار فى المعسكرات على رجالها ، فهلكوا أجمعين .

وبينما اتجه الأسطول البيزنطى نحو دمياط ، دخلت قوات أمورى أرض مصر وتجمعت عند الفرما (پيلوزيوم) وحسب صلاح الدين أنها تسير فى البر فحصن بلبيس ، ولكن الجيش

الصليبى ركب سفن الأسطول البيزنطى مفضلا الانتقال فى البحر . وفوجىء صلاح الدين بهجوم أعدائه على دمياط ، ولم ير من الحكمة أن يترك القاهرة ، فأرسل الجند نحو دمياط ، وبعث يطلب الأمداد من نور الدين ، فأتته فرق الجند أرسالا ، مما يدلنا على تنبه نور الدين وحسن ادارته . وعجل أهل دمياط فمـدوا سلسلة ضخمة عبر النيل تحول دون وصول السفن الى البلد ، فانصرف الصليبيون والبيزنطيون الى النهب والغارة فيما حول دمياط .

واختلف الحليفان ، فأما أندرونيكوس فأشار بالهجوم على دمياط برا ، وأما أمورى فرأى الانتظار حتى ينشىء أبراجا خشبية تمكنه من مهاجمة الأسوار العالية ، وطال الأخذ والرد ، وتوالى وصول الجند من صلاح الدين ونور الدين ، وعدم بحارة الأسطول البيزنطى القوت شيئا فشيئا ، ورفض الصليبيون أن يعينوهم ببعض ما لديهم من الأزواد وكانت وافرة فى معسكرهم . ثم وقع سوء الظن بين الجانبين ، وتهامس رجال الجيش الصليبى بأن القبطان البيزنطى لا يريد الا أن يحوز دمياط لسيده الامبراطور . وبدا فشل الحملة واضحا ، وأقبل أهل دمياط يقذفون الأسطول البيزنطى بكرات القطن المشتعلة ، فشبت النار فى سفن الأسطول

وزاد أمره حرجا ،ثم هبط المطر مدرارا ، ووجد الصليبيون أنفسهم فى سيل من الماء وقد تحولت الأرض تحت أقدامهم الى أوحال ، فلم يبق من الرحيل مناص .

ثم بلغت أمورى أنباء غارات عنيفة قام بها نور الدين فى أراضى مملكة بيت المقدس ، فعجل بالرحيل ، وأمر باحراق ما كان قد أنشىء من آلات الحصار ورحل عن مصر فوصل عسقلان فى ربيع الثانى سنة ٥٦٥/ديسمبر سنة ١١٦٩ . أما الأسطول البيزنطى فقد هبت عليه أثناء العودة رياح زعزع حطمت معظم سفنه وأغرقتها ، وحملت الأمواج جثث الغرقى الى شواطىء مصر والشام ونجا أندرونيكوس كونتوستيفانوس فى مركب صغير وصل به الى ساحل قليقية فى آسية الصغرى ، ومن ثم مضى بطريق البر حاملا نبأ الخيبة الى الامبراطور .

هكذا فشلت تلك المؤامرة التى دبرها الامبراطور وحليفه أمورى ، وعلم كلاهما أن مصر قد صارت بيد رجل يحسب له ألف حساب ، واذا كانت هذه الحملة قد انجلت عن شىء واضح فهذا الشىء هو أن أقدام صلاح الدين قد استقرت فى مصر ، وأصبح سيد البلاد دون منازع . ومن الخطأ أن نذهب الى ما يذهب اليه المؤرخون من أنه بدأ يمهد الأمر لنفسه من ذلك الحين ، فقد

كان الرجل أقوم خلقا وأوفى أمانة من أن يفكر فى أمر كهذا مع نور الدين ، وانما كان رجله ونائبه ، يحكم البلاد باســـمه قولا وعملا ، وسنعرض لهذا الموضوع فى الفصل التالى ·

ويهمنا الآن أن نقف عند هذه النتيجة : لقد ضم نور الدين مصر الى جبهة الكفاح ، وحقق الحلقة الأخيرة من حلقات التوحيد تمهيدا للضربة القاضية ، حققها كما حقق غيرها بالاخلاص والاقدام وبعد الهمة والكياسة والخلق الكريم ·



— ٩ —

الراية تنتقل ...
من بطل الى بطل

رحلوا ، وفى القلب المعنى بعدهم   وجد على مر الزمان مخيم
رحلوا ، وقد لاح الصباح ، وإنما   تسرى إذا جن الظلام الأنجم

« المهذب بن على الغسانى الأسوانى »

كان نور الدين فى الثالثة والخمسين من عمره عندما تحقق حلمه الكبير بفتح مصر ومد جبهة الاسلام المتحدة الى برقة غربا والى النوبة جنوبا ، وكانت قد مضت له أربع وعشرون سنة فى ميادين الجهاد فى سبيل الوحدة ، وأدرك أن قد آن الأوان ليخطو الخطوة الأخيرة . وتطلع ببصره نحو الغاية المجيدة التى رجا الله أن يكرمه بادراكها : القضاء على أولئك الدخلاء واسترداد بيت المقدس ، وتعفية آثار هذا العدوان الدموى الظالم الذى شنته بلاد غرب أوروبا على العرب والمسلمين دون ذنب جنوه أو جريرة.

ولو رجل آخر مكانه لأحس فى هذه السن أن أوان الراحة قد آن ، فقد أفنى أيامه على صهوة جواده تحت ظلال السيوف ، حتى لقد تعب رجاله وقعد بالكثيرين منهم الاجهاد الطويل عن الخروج بالجيوش ، وأكلت السيوف معظم البقية أو أدركتهم الحتوف . وخلف هذا الجيل من أتراب نور الدين جيل جديد من الشبان نشأوا وكبروا فى رعايته واعتمد عليهم فى جهاده بعد مرضه الأول الذى ذكرناه ، وحتى هذا الجيل أدرك الكثيرين من أفراده التعب أو تخطفهم الموت ، والرجل باق فى مكانه كالطود الشامخ يروح ويغدو ويغزو كأنه قد من حديد ، وما قد من حـديد وانما هو الايمان الذى ملأ قلبه كان يقيمه على قدميه ويدفعه . وكان كلما تقدمت به السن واتسع ملكه تزايدت مشاغله وتراكمت أمامه المهام ، ولكن ذلك كله لم يصرفه عن الغاية العليا .

وتصوّر لنا حاله خلال السنوات الخمس الباقيـة من عمره عبارة رواها جمال الدين أبو المحاسن بن تغـرى بردى عن ابن خلكان بعد أخبار مسير الأسطول البيزنطى للتعاون مع الصليبيين على الاستيلاء على دمياط ، قال : « ولما سمع فرنج الشام ذلك اشتد أمرهم ، فسرقوا حصن عكا من المسلمين ، وأسروا صاحبها ، وكان مملوكا لنور الدين يقال له حظلج العلم — دار (أى حامل

الراية) وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين (وخمسمائة)
ولما رأى نور الدين نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم ، فنزل
على الكرك فحاصرها فى شعبان من السنة المذكورة ، فقصده فرنج
الساحل فرحل عنها ، وقصد لقاءهم فلم يقووا له . ثم بلغه وفاة
مجد الدين بن الداية ، وكانت وفاته بحلب فى شهر رمضان سنة
خمس وستين ، فاشتغل قلبه ، فانه كان صاحب أمره ، وعاد يطلب
الشام ، فبلغه أمر الزلازل بحلب التى أخربت البلاد ، وكانت فى
ثانى عشر شوال ، فسار يطلب حلب ، فبلغه موت أخيه قطب الدين
مودود بالموصل ، وبلغه خبر موته وهو بتل باشر ، فسار من ليلته
طالبا لبلاد الموصل . ودام صلاح الدين فى قتال الفرنج بدمياط ،
الى أن رحلوا عنها خائبين » .

وهذه العبارة تصور لنا ثقل العبء الذى اضطلع به هـذا
الرجل ، ومن العجيب حقا أنه استطاع أن ينهض به كله وأن يعطى
كل مشكلة حقها من العناية كما سنرى .

وقد فات ابن تغرى بردى أن يذكر ما قام به نور الدين فى ذلك
الحين لمعاونة صلاح الدين ، ومواصلته ارسال الجند الى دمياط
جماعة بعد جماعة .

والظاهرة التى نلاحظها من الآن فصاعدا هى حاجة نور الدين

الى الرجال الذين يستطيعون معاونته فى حمل هذا العبء الباهظ ، فعلاوة على ما ذكرناه من موت الظاهرين من رجاله أو قعودهم عن الحركة ، أرسل نور الدين مع صلاح الدين جماعة من خيرة من بقى له من الرجال ، وبقى هو وحده تقريبا ، يحاول أن ينهض بالمسئولية الكبرى منفردا على قدر ما استطاع .

ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين لم يكد يستقر فى مصر حتى فكر فى الاستقلال بها وأخذ يمهد للخروج على نور الدين ، وليس ذلك بصحيح ، بل ليس صحيحا على اطلاقه ما يقال من أن النفرة وقعت بين الرجلين ، وما زالت تشتد حتى قرر نور الدين المسير الى مصر لرد تابعه الى الطاعة . ذلك كله مستبعد ، وان كان من المعقول أن يقع بين الرجلين خلاف فى الرأى حول خطة تتبع أو غاية تستهدف ، وهذا الخلاف طبيعى خاصة وكل من الرجلين فى الذروة عقلا وكفاية وايمانا ، ولكن الخلاف فى الرأى شىء ، والخصومة والعداوة شىء آخر . وسنرى فيما يلى أن الاتفاق بين الرجلين كان تاما فى الأهداف والغايات ، وقد ظلا الى آخر أيام نور الدين على أصفى ما يكون من الود والاخاء ، وعندما مات نور الدين نهض صلاح الدين وحمل الراية ليتم ما بدأه أستاذه نور الدين .

ولكن المؤرخين القدامى يغلب عليهم سوء الظن فى طبائع

البشر ، ولا يكادون يستبعدون على أحد خيانة ، وربما كانوا معذورين ، فقد عاشوا فى أعصر اضطربت فيها الأحوال وقل الأمان وندرت الثقة بين الناس . وأبو شامة نفسه ، مؤرخ نور الدين وصلاح الدين ، كان أبعد ما يكون عن تقـدير الرجلين قدرهما الصحيح ، ولم يتفطن الا الى جوانب التقى والعدالة عند نور الدين خاصة . وابن شداد ، مؤرخ صلاح الدين ومصاحبه فى غدواته وروحاته سنوات بعد سنوات ، لا يزال يتعجب مما كان يسمع من آراء صلاح الدين وما يرى من أعماله ، وكأن صحبته لهذا الرجل لم تعنه على فهم اتجاهات فاتح بيت المقدس وادراك سياساته .

وقد نظر نور الدين من أول الأمر الى صلاح الدين نظرته الى تابع مخلص وصديق معين ، وأفاض عليه من الحب والثقة ما مكن له الأمر وهيأه للعمل العظيم . فلم تكد أقدام صلاح الدين تستقر بمصر حتى بعث الى نور الدين يطلب اليه أن يبعث اليه بأبيـه وأهله ، فبادر نور الدين بالاستجابة لهذا الطلب ، وقد كان نجم الدين أيوب من كبار رجاله ، وكان فى حاجة اليه ، ولكنه ضن على نفسه به وضمه الى ابنه ليعينه برأيه وتجربته ، ولم يكتف بذلك بل أشفق على نجم الدين أيوب ومن معه أن يتعرض لهم الصليبيون وهم يجتازون أراضيهم ، فقرر القيام بحملة على ناحية بعيدة حتى

يشتغل الصليبيون عن قافلة نجم الدين ، فسار فى عساكره الى حصن الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المنجنيقات ، فتجمع الصليبيون للسير نحوه يقودهم هونفروا الثانى (ابن الهنفرى) ، فخف اليهم ، وتراجعوا أمامه ، فمضى بجيشه يضرب شمالا ويمينا عساهم يتحركون للقـائه ، ولكنهم هابوا اللقاء ، ثم بلغـه أن نجم الدين ومن معه قد دخلوا أرض مصر سالمين ، فعاد أدراجه . وقد انتهز أصحاب طرابلس فرصة اشتغاله بحصار الكرك واستولوا على حصن عكر وضموه الى عَرْقة ، ومنحهما أمورى للاسبتارية (جمادى الآخرة ٥٦٥ / أبريل ١١٧٠) .

وأعقبت ذلك زلازل عنيفة شـبيهة بتلك التى وقعت منـذ سنوات ، فتهدم الكثير من بلاد المسلمين والصليبيين وحصونهم على السواء ، وعظم وقع النازلة فى شيزر وحماه وحمص وحصن الأكراد (كراك دى شيڤالييه) وطرابلس وأنطاكية . ومن الغريب أن الصليبيين طربوا لما أصاب أنطاكية — وهى فى أيديهم — لأن كنيسة الرسول بطرس انهدمت على أثناسيوس بطريق الأرثوذكس وقساوسته وهم يقيمون القداس ، فهلكوا ، وأسرع بوهيموند الثالث فاستدعى الأسقف الكاثوليكى الأسبق ايمرى وجعله بطريقا على البلد ، واعتبر ذلك نعمة من الله وفألا حسنا .

ولم يستطع الامبراطور البيزنطى معارضة هذا الاعتداء على ما كان يعتبره حقا له على أنطاكية ، لأن أمورا وقعت فى قليقية ثم شغلت باله . ذلك أن توروس ملك الأرمن مات سنة ١١٦٨/٥٦٣ وأوصى من بعده لابن صغير يسمى روبن الثانى تحت وصاية فارس فرنجى يسمى توماس ، فغضب مليح أخو توروس وعول على أن يحوز العرش لنفسه . وكان مليح رجلا قلقا لا يثبت على حال ، فقد انضم قبل ذلك الى الداوية وأقسم على أن يكون منهم ، ثم فر الى نور الدين وأعلن الرغبة فى دخول الاسلام ، فقبل نور الدين اسلامه ، وأمده بجند تمكن من أن يستولى على المثلث بسنواعدهم، ثم استرسل فغزا أراضى الدولة البيزنطية وأخذ المصيصة ، ثم هاجم حصن بغراس ، وكان بيد الداوية . فاستغاث بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية بأمورى ، فأقبل منجدا له وطرد مليح ، وأعاد سلطة الامبراطور على قليقية ، فكان فى ذلك ترضية له عما خسره من السلطان الدينى على أنطاكية ، ولكن مليح لم يسكن ، فعاد يغزو قليقية .

وقد شغل نور الدين عن متابعة هذه السياسة حيال الدولة البيزنطية ، لأن أخاه قطب الدين مودود صاحب الموصل توفى فى ذى الحجة سنة ٥٦٥ / سبتمبر سنة ١١٧١ وبدأت مشكلة من

يخلفه . وهى مشكلة خالدة فى التاريخ الاسلامى : ما توفى ملك أو خليفة أو أمير الا ثار النزاع بين الورثة بعضهم وبعض ، وبينهم جملة وبين من يرى أنه أصلح منهم ، اذ لم يكن هناك عرف ولا قانون يتبع فى هذه الحالة ، والأمر لمن غلب أو أحسن الحيلة أو اتفق مع الخدم ونساء القصر ، وما الى ذلك من المآسى التى حفل بها تاريخنا من أوله الى آخره . ولم يلتفت المشرعون والفقهاء الى هذه الناحية ، وتركوها على أهميتها دون رأى ، وكل ما فتح الله عليهم به أن يقولوا : « الأمر للأصلح ..» ، وهى عبارة مبهمة لا تنفع فى شىء ، اذ مَن مِن المطالبين بمثلك لا يرى أنه الأصلح ؟

وقد اجتهد الفقهاء فوضعوا القواعد فى وراثة البيت والدكان والحقل والمال ، وأسرفوا فى ذلك اسرافا جاوز المطلوب ، أما وراثة العرش — وهى أهم من ذلك كله — فلم تلق عناية من أحد ، فحفل تاريخنا كله بالفواجع والدماء ؛ وقد رأيت ما وقع عندما مات عماد الدين زنكى ، ولولا ما أوتيه نور الدين وسيف الدين غازى من الحكمة لضاع الأمر بددا .

وستتكرر المأساة بعد موت نور الدين ، لولا أن تدارك الله المسلمين بوجود صلاح الدين ، وعندما يموت هذا تقع المأساة حقا ويفترق المسلمون أحزابا يقاتل بعضها بعضا ، فينشىء الصليبيون

مملكة عكا لتحل محل مملكة بيت المقـدس ، ويتأخر اخراج الصليبيين من أرض الشام ما يزيد على القرن من الزمان .

وكان قطب الدين مودود قد عدل عن التوصية لابنه الأكبر عماد الدين زنكى الثانى وأوصى لابنه الأصغر سيف الدين غازى ، لا لشيء الا لأن وزير سوء يسمى فخر الدين عبد المسيح كان يكره عماد الدين لما يعلم من ايمانه وقوته بسبب ملازمته لنور الدين وحضور المواقع معه ، وكان عماد الدين الى هذا صهر نور الدين : تزوج ابنته . وكان نور الدين لا يحب فخر الدين هـذا لفساد ضميره ، وكان طبيعيا أن ينفر لنصرة عماد الدين الثانى .

فلما سار الى الموصل فى أوائل سنة ٥٦٦ / سبتمبر سنة ١١٧٠ لجأ فخر الدين عبد المسيح الى أتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وبلاد الجبل وآذربيجان وأصفهان يستنصره على نور الدين فأرسل هذا يحذر نور الدين من التدخل فى شئون الموصل ، فقال نور الدين للرسول : « قل لصاحبك : أنا أصلح لأولاد أخى منك، فلم تدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان ! فانك قد ملكت هـذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا — ولى ربع بلادك — بالفرنج ، وهم أشجع العالم ، فأخذت معظم

بلادهم وأسرت ملوكهم .ولا يحل لى السكوت عنك ، فانه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وازالة الظلم عن المسلمين » .

وقد كانت هذه المقالة من نور الدين كافية لرد هذا الغافل الى رشده ، فدخل نور الدين الموصل ، ورتب أمورها ، فجعل الموصل لسيف الدين غازى الثانى ، وسنجار لعماد الدين زنكى الثانى . وقد ذهب نور الدين مع التسامح الى مداه عندما أقر سيف الدين غازى على الموصل ، ولم يرض القاضى كمال الدين الشهرزورى عن هذه القسمة ، وتوقع أن تكون سببا فى المتاعب فيما بعد ، وقد صدق ، فبعد موت نور الدين بعام واحد (سنة ٥٧٠ / ١١٧٤) استولى سيف الدين غازى على البلاد كلها بحد السيف ، ثم طمع فى حلب أيام صلاح الدين ولقى منه هذا عناء عظيما .

أما فخر الدين عبد المسيح فقد عفا عنه نور الدين — على عهده مع المغلوبين من أعدائه — واستصحبه معه وأقطعه اقطاعا واسعا ، وغير اسمه الى فخر الدين عبد الله . ولم تثمر العارفة عند هذا الخبيث ، فما كاد نور الدين يتوفى حتى أسرع الى سيف الدين غازى يحرضه على خيانة العهد وغزو بلاد أخيه ، بل أطمعه فى حلب ، ولكن سيف الدين أهمله ، فعاش بقية أيامه تابعا ذليلا وخسر اقطاعه الواسع فى الشام .

ولم يشأ نور الدين أن يترك الموصل دون مكرمة ، فأمر بعمارة مسجدها الذى سمى بعد ذلك بالجامع النورى ، واختار شيخا صالحا يسمى عمر الملا فدفع اليه ستين ألف دينار ليشترى الحوانيت والمساكن المجاورة ويضم أرضها الى الجامع ، ويقوم بعمارته وبنائه ، فتم بناؤه فى ثلاث سنين ، ودخل نور الدين المسجد بعد تمام بنائه وصلى فيه ، ثم خرج فوقف على شاطىء دجلة ، وأقبل الشيخ الملا اليه وبيده الأوراق ليطلعه على حسابه ما أنفق فقال نور الدين : « ياشيخ ، نحن عملنا هذا لله تعالى . دع الحساب ليوم الحساب » ثم رمى بالأوراق فى ماء دجلة ..

وكان أمورى قد أراد أن يزداد تقربا من مانويل كومنين ليتقوى به على نور الدين ، فزار القسطنطينية فى رمضان سنة ٥٦٦ / ربيع سنة ١١٧١ ، وعقد معه اتفاقا لا تعرف نصوصه على وجه التحقيق ، ولكن مؤرخى مملكة بيت المقدس يقولون انهما اتفقا على أن يعترف بمانويل كومنين رئيسا أعلى للمسيحيين الأصلاء من أهل البلاد التى بيد الصليبيين ، وأن يقوم الاثنان بحملة على مصر ، وأن يعملا معا فى القضاء على مليح الأرمنى ؛ وحصل مانويل على بعض الحقوق على قبر السيد المسيح فى بيت لحم .

وعاد أمورى الى بلاده راضى النفس عما لقى من التوفيق فى

القسطنطينية ، ولكنه تبين أن ابنه ووريثه بولدوين — وكانت سنه تسع سنين — مصاب بشلل فى ذراعه ، وأن هذا الشلل مظهر لمرض آخر عضال يحول دونه والعرش ، فقال الناس ان ذلك عقاب من الله ، لأن أم الغلام آجنس كانت لا تحل لأمورى وقد تزوجها على غير ارادة الكنيسة ، وطلقها ليرقى العرش كما قلناه . فمضى أمورى يبحث عن زوج لابنته سيبيلا يصلح للوصاية على العرش بعد موته والقيام بشئون المملكة اذا حاج الأمر الى ذلك ، وقد طال بحثه دون جدوى .

وكانت هذه السنوات الأربع التى انقضت بين فتح نور الدين لمصر ونهاية حكمه هى الفرصة التى كان ينبغى أن يضرب المسلمون ضربتهم فيها للقضاء على مملكة بيت المقدس قضاء مبرما . فقد كان أمرها قد وهن وقل رجالها حتى لم يعد يحميها الا الاسبتارية، وكان ملوك أوروبا فى شغل عن الشام وأهله ، ولم تكن الدولة البيزنطية على حال تمكنها من التدخل ، فقد كان مانويل كومنين قد علت سنه وتوالت عليه الهزائم ، وانتقض عليه الأرمن وكاد يفقد السلطان على طرابلس ، ولكن الفرصة أفلتت بسبب اختلاف السياسة ووجهة النظر بين نور الدين وصلاح الدين .

ذلك أن نور الدين كان يرى أن فتح مصر ما هو الا تمهيد

لتوجيه الضربة القاضية ، وهو لم يجتهد فى ضمها الى جبهة الكفاح الا لهذه الغاية ، فلم يكن اتساع الملك فى ذاته ليعنيه فى شىء ، وله ملاحظة تدل على ذلك بأجلى بيان ، فقد أرسل اليه صلاح الدين شيئا من الذخائر التى حازها بعد استيلائه على قصور الفاطميين ، فلما حضرت بين يديه قال : « والله ما كان لى حاجة الى هذا . ما وصل الينا عشر معشار ما أنفقناه على العساكر التى جهزناها الى مصر ، وما قصدنا بفتحها الا فتح الساحل وقلع الكفار منه » ، وقد بدأ يستعد للخطوة الحاسمة فعلا .

أما صلاح الدين فقد أهمه أمر ترتيب مصر أولا ، وصرف فى هذا همه خلال السنوات الباقية من حكم نور الدين ، فلم يتعاون معه فى هذه الغاية التعاون الكامل ، مما ساء نور الدين وأغضبه . ثم مضت أيام وانتهى هو من ترتيب شئون مصر ، ونهض ليواصل الحرب المقدسة ، فلاقى فى ذلك عناء عظيما ، اذ كان عليه أولا أن يقضى على منافسيه والراغبين فى الانفصال عن الكتلة الموحدة ، وخاض فى ذلك السبيل حروبا طويلة ضاعت فيها سنون كثيرة .

وتغيرت الأحوال فى أوروبا فى أثناء ذلك ، اذ تولى أمورها فى فرنسا وانجلترا رجال ذوو نشاط وحمية ورغبة فى الخروج الى الشرق ، فلم يكد صلاح الدين يستولى على بيت المقدس حتى

نهضت أوروبا لعون الصليبيين ، وأقبلت الحملة الصليبية الثالثة ، واضطر صلاح الدين الى التنازل عن بلاد الساحل التى كان استولى عليها ، وضاعت منه عكا بعد مأساة طويلة ، بل قام بنفسه بهدم أسوار غزة وعسقلان قبل اسلامهما لرجال الحملة الصليبية الثالثة تنفيذا لصلح الرملة ، ولم يتسع به الأجل لتدارك ما فات ، ومات والصليبيون يملكون بلاد ساحل الشام كله ، فأنشأوا مملكة عكا لتحل محل مملكة بيت المقدس ، وتأخر اخراج الصليبيين من أرض الشام نهائيا الى أيام الأشرف خليل .

وقد كان كلا الرجلين مخلصا فيما رأى ، ولكن رأى نور الدين كان أصوب ، ولو أعانه صلاح الدين لأنهى بيده مأساة العدوان الصليبى على بلادنا ، ولوجد صلاح الدين فسحة من الوقت لترتيب شئون الشام والعراق ومصر جميعا ، لا مصر وحدها .

وليس هناك ما يدل على أن صلاح الدين كان يتحاشى لقاء نور الدين ، وان كان معظم المؤرخين يقررون ذلك ، فان صلاح الدين كان يعرف أن نور الدين ليس بالرجل الذى يغدر به أو يسىء اليه ، وكان يعرف كريم صنعه حتى مع مخالفيه وخصومه ، وقد رأينا اكرامه لمجير الدين آبق وصبره الطويل عليه ، ووفاءه لمعين الدين أنر مع ما كان عليه هذا من سوء النية وفساد الضمير ،

ورأينا احسانه الى سيف الدين غازى الثانى واقراره على بلاده رغم مصارحته اياه بالعداء ، ورفقه بفخر الدين عبد المسيح رغم اجرامه فى حقه ، فهل يعقل أن صلاح الدين — وهو من الذكاء والفهم بأعلى مكان — يخشى أن يؤذيه نور الدين أو يعزله عن مصر ؟

الحق أن صلاح الدين لم يستطع لقاء نور الدين فى المرتين اللتين خرج نور الدين فيهما بجيوشه للالتقاء به والتعاون معه ، لأنه — أى صلاح الدين — كان فى هذه الحقبة من تاريخه أكثر اهتماما بشئون مصر منه بأمور الحرب فى الشام ، فكان يكتفى بالغارات السريعة والضربات العابرة ثم يعود الى مصر ، وقد ساء ذلك نور الدين وأغضبه ، حتى فكر فى المسير الى مصر بنفسه لصرف صلاح الدين عن هذا الاهتمام الشديد بأموره الداخلية ، لا لكى يعاقبه . ولو كان فى نيته عقابه لكتب الى صلاح الدين ولو معاتبا ثم منذرا ، ولكن النصوص التى بين أيدينا تخلو من أى اشارة الى ذلك ، بل كان نور الدين شديد الحرص على توقير صلاح الدين ، فكان لا يخاطبه الا بالأمير الاسفهسلار (أى الأمير القائد) وكان يستحى أن يكتب اسمه فى رأس الخطاب كما جرت عادة الملوك أمثاله ، فكان يكتفى بوضع علامته فى أعلى الخطاب .

وليس صحيحا ما يقال من أن صلاح الدين فكر فى الخروج على نور الدين ، فقد قال لأمين سره ومؤرخه بهاء الدين بن شداد بعد موت نور الدين بزمان : « كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشفه ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف ترده اذا تحقق قصده ، وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شىء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا (أى بين صلاح الدين ورجاله) الى أن وصل الخبر بوفاته » .

وقد بدا الخلاف بين السياستين بصورة واضحة فى مسألة انهاء الخلافة الفاطمية والخطبة للعباسيين بمصر ، فقد رأى نور الدين أن ذلك نتيجة طبيعية لفتح مصر ، وأنه ينبغى أن يتم فى أقرب وقت ، ولكن صلاح الدين كان يراعى الظروف وينتظر الوقت المناسب ، فقد كان رجال الفاطميين فى مصر كثيرين ، وكان يرى القضاء عليهم رويدا رويدا قبل أن يقوم بذلك الانقلاب ، فتوالت رسائل نور الدين اليه تستحثه وهو يتمهل ، حتى اذا لم يجد محيصا عن ذلك التغيير أقدم عليه وهو متهيب ، فما راعه الا والأمر يتم فى سهولة دون أن يعترض معترض . فكأن نور الدين — على البعد — كان أدرى بالموقف من صلاح الدين ، وكان

يعرف أن أهــل مصر جميعا مؤيدون له فى انهاء هــذه البدعة الطويلة التى تسمى الدعوة الفاطمية .

ومن غريب الأمر أن كبار الفقهاء تهيبوا الخطبة للخليفة العباسى، فلم يقدم واحد منهم على صعود المنبر واعلان الدعوة العباسية ، حتى قام بها شيخ جرىء غريب عن مصر ، قال ابن الأثير : « وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمى يعرف بالأمير العالم ، رأيته أنا بالموصل ، فلما رأى ما هم فيه من الاحجام ، وأن أحدا لا يتجاسر على أن يخطب للعباسى قال : أنا أبتدىء بالخطبة له ، فلما كان أول جمعة من المحرم (سنة ٥٦٧) صعد المنبر قبل الخطيب ، ودعا للمستضىء ففعلوا ذلك ، فلم ينتطح فيها عنزان » وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ، وهكذا انتهت خلافة الفاطميين على مصر دون أن يتحرك أحد من المصريين للدفاع عنها .

نعم ان نفرا من المستفيدين من فوضى الحكم الفاطمى حاول تجديد الدعوة بعد ذلك ، ولكنهم كانوا أجانب كهذا المغامر الأفاق عمارة اليمنى ، ولكن صلاح الدين قضى على دعوتهم بأهون سبيل، وقتلهم جميعا . وكان خبر نهاية الدولة الفاطمية بشرى طرب لها العالم الاسلامى كله ، « وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه » كما يقول ابن الأثير ، وقد اعتبر نور الدين ذلك من نعم الله عليه ،

وأى نعمة تكتب لرجل أحسن من أن يتم على يديه توحيد قلوب الناس ، وضمهم الى لواء واحد ؟

وفى صيف سنة ١١٧١/٥٦٧ أراد نور الدين أن يغزو أرض الجليل ، ولكنه لم يجد عنده من المال والجند ما يكفى ، فسكن حتى الخريف ، ثم بلغه أن الصليبيين استولوا على سفينتين مصريتين كانتا تمران قريبا من اللاذقية ، فقام بغارتين واسعتى المدى على أرض أنطاكية وطرابلس معا ، وخرب حصن العريمة وصافيثا ، حتى اضطر الصليبيون الى أن يؤدوا اليه مالا جسيما لكى يرتد عنهما .

وفى العام التالى (١١٧٢/٥٦٨) قرر أن يهاجم أنطاكية ، وكتب الى عز الدين قلج أرسلان سلطان سلاچقة آسية الصغرى يطلب اليه التعاون معه ، فوجد منه تراخيا ، فأوغل فى بلاده وملك من بلاده مرعش وبِهِسنا ومرزبان وسيواس ، فخاف قلج أرسلان وأرسل اليه يستعطفه ويسأله الصلح ، فتوقف نور الدين آملا فى صلاح حاله ، ثم بلغه أن الصليبيين يستعدون لانتهاز الفرصة والاغارة على بلاده ، فرضى بمصالحته وقبل أن يرد اليه ما فتح من بلاده الا سيواس ، فقد رأى أن ترد الى ذى النون بن دانشمند حليف نور الدين على أن يقيم فيها نائبا عنه ، واشترط على قلج

أرسلان أن ينجده بعساكر للغزاة ، وقال له : « أنت مجاور للروم ولا تغزوهم ؟ وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام ، ولابد من الغزاة معى » ، فأجابه الى ذلك . ولكن الظروف لم تسمح بالوفاء بالوعد ، فقد توفى نور الدين بعد ذلك بقليل ، وما دام نور الدين قد مضى فلا جهاد ولا قتال .

وقد كان لموقف نور الدين من عز الدين قلج أرسلان صدى مباشر عند صلاح الدين ، فقد أدرك أن نور الدين لا يقدم على الجهاد شيئا ، وأنه ينبغى أن يدع كل شىء ويتجرد للتعاون معه فى القضاء على تلك الدويلة التى تقوم كالشجى فى حلق المسلمين وتحول دون اتصال مصر المباشر ببقية الجبهة الاسلامية المتحدة . وكانت الأخبار قد بلغت صلاح الدين بأن نور الدين غاضب فعلا بسبب تراجعه المرة الماضية قبل أن يأذن له نور الدين فى ذلك ، فكتب يعتذر اليه ويعد بالاشتراك فى خطة واحدة للهجوم على مملكة بيت المقدس ، واتفقا على أن يكون تلاقيهما عند حصن الكرك جنوب شرقى البحر الميت .

وقد رضيت نفس نور الدين بهذا ، وانتهز فرصة خروج أمورى الى قليقية لحرب مليح الأرمنى واستعد للخروج من دمشق ، وأرسل الى صلاح الدين الاشارة للخروج ، فخرج فى شوال

سنة ٥٦٩/مايو ١١٧٣ ووصل الكرك ، وأسرع نور الدين للقائه حتى وصل الرقيم ، ولم يبق على لقائهما غير يوم . وهنا يتغير الموقف على نحو أضاع على المسلمين هذه الفرصة النادرة ، ذلك أن نفرا من قواد صلاح الدين خافوا لقاء نور الدين ، وكانت قد بدرت منهم عبارات فى حقه تدل على خسة ونكران للجميل وتستوجب العقاب فخافوا لقاءه ، بل ذهب بعضهم الى حد تحريض صلاح الدين على الخروج على نور الدين .

ثم ان أقارب صلاح الدين كانوا كثيرين حوله ، وكانوا جماعة من الطامعين لا ينظرون الا الى الافادة من هذه الفرصة التى أتيحت لهم من غير جهد بذلوه أو جدارة يستحقون عليها شيئا ، وقد شقى بهم صلاح الدين فى حياته وشقى المسلمون بهم بعد مماته، أقول ان هؤلاء الأذناب حفزهم الخوف على أنفسهم وعلى ما فى أيديهم على الاسراع بالعودة الى مصر تجنبا للقاء نور الدين .

ووجد صلاح الدين نفسه فى حرج شديد ، فاذا هو فى ذلك اذ بلغه نبأ مرض أبيه مرض الموت ، فتعلل به وبعث يقول ان أباه نائبه فى القاهرة وأنه يخاف « أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم » ، وأرسل الى نور الدين « من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف » ، وما كان نور الدين صاحب تحف أو ألطاف ، فتأثر

لما حدث ، ولكنه طوى نفسه على ما فيها ، ولم يظهر تأثرا ، والأغلب أنه قدر ظرف صلاح الدين وعذره وقال لرسوله : « حفظ مصر أهم عندنا من غيرها » وعاد الى دمشق وقد أفلتت من يده فرصة كان يرجو من ورائها خيرا كثيرا للاسلام والمسلمين .وعاد صلاح الدين الى مصر ليجد أباه قد توفى على اثر سقطة من على حصانه (ذو الحجة سنة ٥٦٨ / يوليو سنة ١١٦٨) .

*

وتنفس أمورى ومن معه الصعداء ، بافلاتهم من ذلك الخطر الذى تهددهم ، وتجدد فى نفوسهم الأمل على اثر ما تسامعوا به من وقوع الخلاف بين القائدين المسلمين العظيمين ، وأتيحت لهم فرصة الاتصال بالباطنية فى الشام ، وكانوا مثلهم يرون فى نور الدين عدوهم الأكبر ، فهو الذى قضى على الفوضى ، الماء العكر الذى يصيدون فيه ، وهو الذى أنهى الخلافة الفاطمية ، وكان رجالها أعوانا لهم على ما يطلبون من أذى المسلمين والقضاء على وحدتهم ، فمضوا يحومون حوله يحاولون اغتياله ، وقد كان نور الدين قد تجرد لقطع دابرهم فيما دخل تحت سلطانه من البلاد. ذلك أنهم كانوا قد انتهزوا فرصة التفرق والفوضى فى الشام قبل ظهور عماد الدين زنكى ، واعتمدوا على وزير مفسد يسمى

المزدقانى فتمكنوا من قلعة بانياس واتخذوها مركزا لنشاطهم ، وكثر أتباعهم فى دمشق حتى تركوا التخفى وخرجوا علانيـة وأصبحوا قوة مرهوبة فى ذلك البلد ، ونشروا الرعب فيه بما كانوا يدبرونه من اغتيالات .

وقد زعم نفر من المستشرقين أن أولئك الباطنية كانوا جماعة تدعو الى الاصلاح الاجتماعى وتأخذ بيد الفلاحين وتنصفهم من الحكام وأوساط الناس من التجار والصناع من أهل المدن ، وليس فى مبادئهم أو أعمالهم ما يدل على ذلك ، وانما هى عادة المستشرقين: لا يجدون حركة مخربة أو بدعة هدامة أو رأيا مناهضا للاسلام الحنيف الا أكبوا عليها يدرسون ويبحثون ثم يقولون ان الحركة المخربة هى ثورة جماعة مظلومة طفح بها كيل الشقاء ، وأن البدعة الهدامة فلسفة وتفكير سليم ، والرأى المناهض حرية فكر ، وهذه كتاباتهم بين أيدينا عن المذاهب الضالة التى أنزلت بالاسلام وأهله أبلغ الضرر فى عصره الأول وعن ثورة الزنج وحركة الباطنية وما اليهما ، كلها مدح واستحسان .

وكأنما سرهم أن الباطنية اغتالوا شرف الدولة مودود وآق سنقر البرسقى ونفرا من أعلام الوحدة الاسلامية فمضوا يمدحونهم ويقولون انهم أصحاب حركة زراع ضد أهل المدن ، وأنهم كانوا

ينادون بالاصلاح ، وأبسط الدلائل على فساد هذا الرأى هو أن الباطنية ملكوا فى فارس والشام بلادا شتى أزمانا متطاولة ، فأين الاصلاح الذى أدخلوه ؟

أما موضع الاعجاب بهم فهو الأذى الذى ألحقوه بالجماعة الاسلامية وتصديهم للقضاء على الوحدة ، وأهم من ذلك عند أولئك المستشرقين ميل أولئك المفسدين الى الصليبيين وتعاونهم معهم على المسلمين ، وتلك فى نظر المستشرقين فضيلة تستأهل الحمد ، وما وجدت مستشرقا منصرفا الى دراسة هذه المبادىء — من ڤان فلوتن الى برنارد لويس وايڤانوف — الا تبين لى أنه من ألد أعداء الاسلام والمسلمين ، وأن انصرافه الى هذه الناحية ان هو الا مظهر لما يحرق قلبه من كراهة العرب والمسلمين .

ولقد تجرد المسلمون لحرب الباطنية ما استطاعوا ، ولكن رجالهم وجدوا عونا من مفسدى الحكام مثل تاج الملك بورى وسيف الدين طغتكين حتى استشرى شرهم ، فلما توفى شيخهم المزدقانى فى ذى القعدة سنة ٥٢٣ / سبتمبر ١١٢٩ قام عليهم أهل دمشق وأوقعوا بهم مذبحة كبرى ، ودخل نور الدين دمشق بعد ذلك بسنوات وقد عول على القضاء عليهم ، فكان أول ما فعله هو الاجتماع بالتجار والمياسير والصناع والتحدث اليهم لاشعارهم

بأنه من ورائهم ، فقويت نفوسهم وزال عنهم الروع ، ونهضوا للقضاء على بقايا الباطنية فى بلدهم . ثم استولى نور الدين على بانياس وعفى على آثارهم فيها ، فطلب الباقون منهم بطن الأرض وباتوا يتلمسون فرصة النيل من المسلمين .

فلما قضى نور الدين على الخلافة الفاطمية فى مصر أسرع رئيسهم المعتصم فى قلعة ألـمـُوت فى فارس فأرسل شيخا خبيثا من شيوخهم ليوحد صفوفهم المتفرقة فى جبال النصيرية ، وأقبل الشيخ — واسمه رشيد الدين سنان البصرى — الى الشام سنة ٥٦٤ / ١١٦٩ وقلبه حافل بالحقد ونية الخيانة ، فاتصل بأمورى وطلب اليه التعاون معه للقضاء على نور الدين ، بل قال انه وقومه لا يرون بأسا فى الارتداد عن الاسلام ودخول النصرانية ، وطلب الى أمورى أن يرفع عن بعض قرى الباطنية فى الجبال اتاوة قررها عليهم الداويون .

وعاد وفد الباطنية من بيت المقدس راضيا عما فعل ، فلما كانوا بمقربة من طرابلس أرسل رئيس الداوية فارسا من فرسانه يسمى والتر دى مسنيل فانقض عليهم وقتلهم جميعا ، حتى لا يتحقق ما اتفقوا عليه مع أمورى من الاعفاء من الجزية ؛ وهكذا أفسد رئيس الداوية تدبير الشيخ سنان وأمورى . وقد غضب هذا

غضبا بالغا ، فقبض على دى مسنيل وألقى به فى السجن ، ثم بعث الى البابا يستأذنه فى حل جماعة الداوية جملة ، وأرسل يسترضى صاحبه سنانا ، وتأهب لتحقيق حلمه البعيد فى مهاجمة أرض المسلمين .

وكانت الظروف مواتية له ، فان نور الدين كان قد استقر رأيه على تسوية المسائل مع صلاح الدين ، وعقد العزم على المسير الى مصر فى الربيع .

والمتأمل للعلاقات بين الرجلين فى هذه السنوات يلاحظ أنها تشبه ما كان بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص بعد فتح مصر : فقد طالت المكاتبات بينهما ، فعنف الخليفة فى كلامه الى ابن العاص واجتهد هذا فى أن يطلعه على الأسباب التى تحول بينه وبين الاسراع بارسال الأموال والأمداد ، ومات عمر والأخذ والرد جار بين الاثنين . وكذلك نور الدين : ساءه احجام صلاح الدين عن الخروج الى الشام فى قوته كلها للتعاون معه على القضاء على مملكة بيت المقدس ، بل بلغ الأمر أن أرسل نور الدين رجلا من عنده ليحاسب صلاح الدين على ما بيده من أموال مصر ، وقد ساء ذلك صلاح الدين ، وقال : أالى هذا الحد وصلنا ؟ .. ولكنه بادر فبسط كل شيء أمام رسول نور الدين. وقد كان صلاح الدين

أبعـد ما يكون عن التفكير في المخاصمة أو الخروج ، اذ كان لنور الدين في نفسه من المكانة والهيبة ما ظل ملازما له حياته كلها ، وما ذكره مرة الا فاضت بالدمع عيناه .

ولكن آل صلاح الدين ورجاله خافوا على أنفسهم ، وألحوا عليه في أن يعينهم على البحث عن بلد يطمئنون فيه . فبعث أخاه الأكبر شمس الدولة توران شاه في جيش الى النوبة ، فحارب أهلها واستقر فيها ، ولكنه رأى أنها لا تصلح لهم وطنا ومعاشا . فعاد الى القاهرة ، وهناك زين له المغامر عمـارة بن أبي الحسن اليمنى غزو اليمن ، فخرج من مصر نحو الحجاز ، فأقام الخطبة لنور الدين في مكة والمدينة ثم اتجه الى اليمن في سنة ١١٧٣/٥٦٩ واستولى على زبيد وأسر صاحبها واستولى على أمواله ، وقبض كذلك على امرأة محسنة تسمى السيدة الحرة كانت وثيقة الايمان بالدعوة الفاطمية ، تبذل في سبيلها الأموال الكثيرة ، واستخرج منها مالا جليلا ، ثم استولى على عدن وأقام فيها وفي اليمن دولة أيوبية طال عمرها (أواخر سنة ١١٧٤/٥٦٩) .

والمهم عندنا أن اشتغال صلاح الدين بذلك كان فرصة طيبة انتفع بها أمورى ، فبعث الى القسطنطينية يقترح الاشتراك في حملة على الاسكندرية تشغل صلاح الدين ليفرغ هو للهجوم على نور الدين .

وكان نور الدين قد أخذ فى التأهب للسير الى مصر ، فبعث يطلب العساكر من الموصل والجزيرة الفراتية وديار بكر . ولكن الأجل كان له بالمرصاد ، وقد وافاه فى وقت كان أبعد ما يكون فيه عن مظنة الموت ، وكان على رأس السنة التاسعة والخمسين من عمره يبدو أنشط ما يكون وأكثر انصرافا الى الجهاد مما كان عليه أيام شبابه ، وقد حنكته السنون وصهرته التجارب وعلت هيبته وامتد سلطانه حتى خطب له فى الموصل والجزيرة واربل وخلاط (شرقى آسية الصغرى) وبلاد سلاچقة آسية الصغرى وديار مصر والحرمين الشريفين واليمن وعدن ، وأصبح بذلك أوسع رجال زمانه سلطانا فى الشرق والغرب ، وكان قاب قوسين أو أدنى من القضاء على ما بقى للصليبيين فى الشام .

وقد أهل عليه عيد الفطر من عام ٥٦٩/٤ مايو سنة ١١٧٤ وهو فى تمام العافية ، فاحتفل بختان ولده وولى عهده اسماعيل الملقب بالملك الصالح ، وعاد من صلاة العيد وقد شعر بضيق فى صدره وألم فى حلقه وحنجرته ، فاعتكف قليلا .

ولكنه كان يكره الاعتكاف ولا يطمئن له جنب على فراش ، فخرج فى اليوم التالى (٢ شوال سنة ٥٦٩ / ٥ مايو سنة ١١٧٤) يتريض مع نفر من أصحابه ، فبينا هم يتجاذبون أطراف الحديث

قال أحد الأمراء : « سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا » فقال نور الدين : « لا تقل هكذا ، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا .. » فكأنما كان يتنبأ بما سيجرى عليه . وعاد الى قلعة دمشق فأحس أن الألم يشتد به فرقد على رغمه ، وتزايدت به العلة . فأشاروا عليه بالفصد ، فرفض اذ كان لا يؤمن بكلام المتطببين ، ولم يستطع أحد مراجعته .

وما زال التهاب لوزتيه يتزايد حتى علت به الحمى وأخذ يتصبب عرقا ، ثم اختنق نفسه شيئا فشيئا حتى أسلم الروح لباريها يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٩ / ١٥ مايو سنة ١١٧٤ . روى ابن الأثير أن طبيبا ماهرا ممن كانوا يخدمون نور الدين قال : استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت منه الخوانيق وقارب الهلاك ، فلا يكاد يسمع صوته . وكان يخلو فيه للتعبد ، فابتدأ به المرض ، فلم ينتقل عنه (أى عن البيت) ، فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له : كان ينبغى ألا تؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض ، الآن ينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضىء ، فله أثره على هذا المرض. وشرعنا فى علاجه ، وأشرنا بالفصد ، فقال ابن ستين : لا يفتصد ،

وامتنع منه ، فعالجناه بغيره ، فلم ينجع فيه الدواء ومات رحمه الله ورضى عنه .

*

وقد كان لموت نور الدين رجة عنيفة فى عالم الاسلام كله ، فوجم أهل الشام والجزيرة ومصر جميعا وجوم الذاهلين ، وخرج النساء والرجال فى دمشق يشيعون جثمان البطل العظيم والبلد يضج بالنحيب ، فقد كانت أمة العرب والاسلام تعرف أى رزء أصيبت به بموت ذلك العظيم الذى جمع رفق الأب الحانى ومهارة الادارى القادر واقدام البطل الذى لا يهاب الموت وايمان الأتقياء الصالحين .

أما الرؤساء والولاة ، وكلهم صنائعه وولائد كرمه وأفضاله ، فقد تسارعوا الى انتهاب الغنيمة ، وبدلا من أن يجتمعوا يدا واحدة ليدرسوا الموقف وينظروا فى أمر هذه الدولة التى شادها هذا الرجل ومن سبقوه بالجهد الطويل والتضحيات المتوالية ، ويحفظوا حق الصبى اسماعيل بن نور الدين ، تهافتوا كالذئاب ولا أرب لكل منهم الا الفوز بأكبر جانب من الغنيمة .

وكان كبير رجال نور الدين — وهو صلاح الدين — بمصر ، وكلهم يعلمون كفايته وحسن منابه ، فكان ينبغى أن يرجعوا اليه ،

فيقر كل واحد منهم على ما بيده وتظل الوحدة تحت لوائه وينهضوا جميعا للعمل العظيم ، ولكنهم تناسوا وتسارعوا يتخطفون الغنيمة قبل أن يتحرك ، فكانت النتيجة أن نهض اليهم وقضى عليهم أجمعين بعد حروب طويلة ما كان أغنانا عنها ، ولكن هكذا قدر فكان ..

نهض شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، وكان نائبا لنور الدين فى دمشق ، فنصب نفسه وصيا على الملك الصالح اسماعيل . كأنه يحسب أن نور الدين بنى هـذا الملك ليستمتع به وحده ، وما كان الا رجلا قليل العقل والكفاية ، جمع طائفة من الأمراء والقواد فحلفوا له ، وضرب السكة وأقام الخطبة لنفسه ، وزعم أنه يتولى تربية الملك الصالح اسماعيل .

ونهض سيف الدين على بن الداية نائب حلب يطلب الأمر لنفسه ، وزعم أنه أكبر أمراء نور الدين وأولى بالوصاية على ابنه ، وبعث يطلب الغلام من دمشق .

أما سيف الدين غازى الثانى ابن أخى نور الدين ، وكان صاحب الموصل ، فلم ينظر الى وصاية ولم يحرص حتى على شكليات المطامع ، فمضى بجيوشه يغزو الشام ، وتراجع أمامه الوصيان الدعيان ، وكاد أمر الغلام اليتيم يضيع ، ولو كان فى واحد من هذين الطامعين كفاية لأوقف سيف الدين ، ولكن الناس

تحركهم المطامع وتعميهم عن أنفسهم ، فلا ينظر واحد منهم الى ما يستحق أو الى ما يستطيع ، وانما تحركه الأنانية وحـدها ، فلا يرى غير نفسه فى الميدان .

وكان صلاح الدين يرقب ذلك كله بعين القلق ، ولم يوجد فى دمشق أو حلب من يرد أولئك الطامعين الى الرشاد الا رجال قلائل كالقاضى كمال الدين الشهرزورى ، فقد نبههم الى ضرورة انتظار رأى صلاح الدين ، فضربوا برأيه عرض الحائط ، ومضى سيف الدين غازى يغزو حتى ملك الموصل والجزيرة الفراتية ، وأسرع اليه صاحبه القديم فخـر الدين عبد المسـيح ، وقد نسى اكرام نور الدين اياه ، وجعل يحرضه على غزو الشام ، ولكنه تريث .

وكتب صلاح الدين الى أولئك المتناحرين يذكرهم بواجبهم نحو نور الدين وما ينبغى عليهم من الحفاظ على وحدة دولتـه وحرمة ولده ، فلم يستمع اليه أحد منهم واسترسلوا فيما كانوا فيه . وكان من الطبيعى أن ينتهز أمورى هـذه الفرصة الذهبية التى أتاحها له أولئك الغافلون ، فتقدم فى أوائل صيف سـنة ٥٦٩/١١٧٤ وهاجم بانياس وحاصرها ، فاضطرب المتنازعون على تراث نور الدين ، وعلى رأسهم شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم صاحب السلطان على دمشق ، فسار نحو بانياس وأخذ

يهدد أمورى بأنه سيستنجد بسيف الدين غازى صاحب الموصل وصلاح الدين صاحب مصر . وكان أمورى يعلم أنه غير صادق فيما قال ، فان حرصه على جاهه فى دمشق يمسكه عن الاستنجاد بأيهما ، وكان أمورى قد رغب فى العودة الى بلاده اذ ألم به المرض الذى مات منه ، فطلب مالا جسيما فى مقابل ارتداده ، وأصر على أن يطلق سراح جميع أسرى الصليبيين فى دمشق ، فأجابه شمس الدين بن المقدم الى ذلك ، ثم عقد معه هدنة طويلة ، ويضيف وليام الصورى أن شمس الدين اتفق معه على حرب صلاح الدين .

وهكذا ، وبعد موت نور الدين بأسابيع قليلة ، بدأت كفة خلفائه تشيل ، وبدا منهم الفشل والهزيمة ، فريع صلاح الدين للأنباء ، وكتب يلوم أمراء الشام على سوء ما فعلوا . ثم قرر المسير الى الشام لتدارك الحال ، وبالفعل سار ودخل دمشق فى أوائل سنة ٥٧٠ / أغسطس ١١٧٤ بعد مناوشة يسيرة واستقر فى قلعتها ، وانسحب ابن المقدم ومعه الملك الصالح اسماعيل الى حلب . وبدأ صلاح الدين يرسم الخطة لاعادة الوحدة التى زلزلت للسير بركب الاسلام المظفر فى الطريق الذى رسمه نور الدين ، وبدأت صفحة أخرى زاهرة من صفحات تاريخنا ، صفحة الناصر صلاح الدين ..

ولم تمهل الأيام أمورى ليواصل عدوانه ، فقد أصابته الهيضة

(الدوسنطاريا) وهو بعد عند بانياس ، فعاد الى بيت المقدس ، واستقدم نفرا من الأطباء السريانيين فطلب اليهم أن يفعلوا ما أشار به بعض أطباء نور الدين : الفصـد ! وطلب أن يعطى مسهلا ، فرفضوا ، اذ وجدوه أضعف من أن يحتمل . فأتى بطبيب فرنجى ففصده وأعطاه المسهل ، فانتعش قليلا ، ثم هبطت قواه دفعـة واحدة بعد يومين ، وتوفى فى أواخر عام ٥٦٩ / يوليو سنة ١١٧٤ بعد نور الدين بشهرين وأربعة أيام !

كان أمورى آخر الكبار من ملوك بيت المقدس الصليبيين ، فقد ترك من بعده صبيا صغيرا سموه بولدوين الرابع ، وتولى الأمر من دونه ميل دى بلانسى صاحب شرق الأردن دون أن يعين وصيا . وطالب بالوصاية رايموند صاحب طرابلس ، ونظر الى العرش اذ كان ابنـا لهوديرنا عمـة أمورى ، وكان قد تزوج أميرة موسرة تملك ناحية الجليل هى استشيفا دى بور وأيده هونفروا (ابن الهنفرى) ونفر من كبار النبلاء ، فأقاموه وصيا ، ولم يلبث ميل دى بلانسى أن اغتيل بليل فى شوارع عكا .

وكان رايموند قد طالت به السنون فى أسر نور الدين ، ولم يطلقه الا قبل موته بقليل ، وقد تعلم العربية فى محبسه ، وأكسبته تجـاربه خبرة طويلة ، ولكن رجال الدولة انقسموا معـه الى

قسمين : قسم يضم فرسان الصليبيين المحليين يؤيدهم الاسبتاريون، وكانوا يميلون الى الموادعة ، وقسم معظمه من القادمين الجدد ، يؤيدهم الداوية .

وهؤلاء هم الخصوم الذين سيلقاهم صلاح الدين فى الميدان .

— ١٠ —

صورة مجاهد

تدارك ملة العربي نصرا ... إلى أن عده منه معد
ثنى يده عن الدنيا عفافاً ... ومال بها عن الأموال زهد

« القيسرانى »

أعجلنا الايجاز فى الفصول الماضية عن تفصيل الكلام عن شخص نور الدين ودراسة خلاله وخصاله ، والوقوف عند آرائه فى السياسة واتجاهاته فى الاصلاح الاجتماعى ، ونحب الآن أن نمر بذلك كله سراعا فيما يلى من الصفحات . ولن نستطيع أن نفى كلا من نواحيه حقها من العناية والتفصيل ، لأن الشخصية النورية متعددة النواحى بعيدة المطارح ، كتب عنها المعاصرون له ومن أتى بعدهم فأطالوا ، وروت كتب التراجم من أخباره تفاريق لو جمعت وحدها لصارت كتابا ، وليس أمامنا والحالة هذه الا أن نكتفى بدراسة المعالم الواضحة والاتجاهات الرئيسية ، وأن نفتح الباب لمن يطلب المزيد .

أظهر ما فى خصائص نور الدين هو ايمانه الاسلامى العميق ، فقد تمثل الرجل العقيدة الاسلامية تمثلا يدعو الى العجب والاعجاب ، وأدرك من طبيعة الدين الحنيف وخصائصه ومزاياه ما لم يدركه الفقهاء والأصوليون ، ومرد ذلك الى أن فطرة الرجل كانت سليمة صافية ، فاستقرت فيها قواعد دين الفطرة على نحو لم يتيسر للكثيرين غيره . وقد كان عصره حافلا بالعلماء والفقهاء والقضاة ذوى العلم الغزير ، ولكنهم كانوا جميعا يدهشون مما يبديه من الفهم لمسائل طال اختلافهم فيها ومناقشاتهم حولها . ولم يكن ذلك ليصدر عنه عن درس طويل أو اسراف فى بحث وتحصيل، وانما هى طبيعة سليمة واعية ، وهو احساس صادق وذكاء لماح ونية حسنة ، وهذه كلها هى التى أعانته على الوصول الى هذه المرتبة ومكنت له من أن يحل من مشاكل العصر ما عجز عنه قبله فحول وأساطين .

وقد سبق أن أشرنا الى أن حماية الدين وتوحيد البلاد الاسلامية هما المحوران اللذان دار عليهما تاريخ السلاچقة كله وما تفرع عنهم من الدول ، وقد ظهر ذلك بصورة واضحة عند أبطال البعث الاسلامى منذ أيام شرف الدولة مودود ، ولكنه أخذ صورة محددة عند عماد الدين زنكى والد نور الدين محمود .

وقد ورث نور الدين عن أبيه النصف الأصغر من ممتلكاته : أخذ امارة حلب وتوابعها ، وكانت عندما تولى أمرها نور الدين فى ربيع الثانى سنة ٥٤١ / سبتمبر سنة ١١٤٦ أصغر الوحدات السياسية فى الشرقين الأوسط والأدنى جميعا ، بل هى لا تقاس من حيث امتداد الرقعة وسعة الموارد بامارة دمشق أو مملكة بيت المقدس . حتى امارة أنطاكية كانت أقوى منها ، اذ كانت تسند ظهرها الى الدولة البيزنطية وتعتز بجاهها وتعتمد على عونها فى كل حين . ولكن ذلك لم يقعد بنور الدين عن أن يتصدى وحده لمواجهة المشكلة الصليبية كاملة ، والتمهيد لمنازلة قوى الصليبيين بتوحيد الجبهة الاسلامية فى الشام أولا ثم خارجه ثانيا . وقد نهض للعملين معا فى أول يوم تولى فيه أمور حلب ، مما يدل على أن الفكرة كانت تملأ نفسه من قبل أن يصل الى الامارة .

ومرد ذلك الى أن الرجل كان مؤمنا بالاسلام وجلاله ايمانا مكن له من أن يحقق ما عجز عنه غيره ممن كانت بلادهم وثرواتهم تزيد أضعافا على ما كان له ، واذا كان لعظمة كل عظيم سر فان سر نور الدين كله فى ايمانه ، فقد امتلأت نفسه بالاسلام وتمثل روحه على نحو لا نكاد نجد له شبيها الا عند الأوائل من أعلام صدر الاسلام . وهذا الايمان هو الذى حوله من أمير الى

مجاهد ، ومن رجل من رجال الحكم والسياسة الى زاهد ، وهو الذى أعانه على مواجهة مشكلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية أيضا ، والتغلب عليها رغم قلة الموارد .

ومهما أطلنا فى دراسة نور الدين فاننا ننتهى الى حقيقة رئيسية ، هى أن الاسلام — بطبيعته السمحة البسيطة — صادف عند نور الدين نفسا سمحة مثله ، فكان ذلك الاتحاد الوثيق بين الدين والدنيا عند نور الدين ، وكانت تلك القوة الدافعة التى تخيل للانسان أنها تصدر عن بلد واسع عريض ذى ثروات وموارد ، وما هى فى الواقع بصادرة الا عن عزم وايمان .

وقد كان من المتوقع أن يكون ايمان نور الدين ايمان تعصب وتشدد ، كما نرى عند من تغلب النوازع الدينية على مزاجهم من منشئى الدول الاسلامية التى قامت فى ظروف تشبه ظروف نور الدين . كان من المنتظر أن يكون نور الدين على مثال يوسف ابن تاشفين أو محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن على ومن اليهم ، ولكن ايمان نور الدين اتخذ سبيلا سمحا بسيطا لا تعصب فيه ولا عنف ، فقد كانت المذاهب السنية جميعا فى نظره سواء ، وكان أصحابه من الفقهاء والقضاة يمثلون كل مذهب ، حتى أصحاب الاتجاهات الفلسفية التى لا تتعارض مع أصول الاسلام كان يودهم ويكرمهم ويعهد اليهم فى المناصب .

روى صقر بن يحيى بن صقر المعدل أن فقهاء حلب اختلفوا مرة فى اختيار شيخ لمدرسة ، فمال نفر الى اختيار شيخ محافظ هو شرف الدين بن أبى عصرون ، وكان بالموصل ، ومال نفر الى شيخ من أهل النظر والخلاف وهو قطب الدين النيسابورى ؛ وطال النزاع بين الفريقين ، وبلغ نور الدين ، فكتب الى نائبه بحلب مجد الدين بن الداية بأن يستدعى الفريقين ويقول لهم : « نحن ما أردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة واظهار الدين ، وهذا الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يليق » ، ثم أبلغهم أن رأى نور الدين قد استقر على أن يتولى شرف الدين بن أبى عصرون المدرسة المنسوبة اليه ويتولى قطب الدين النيسابورى « مدرسة النّفرى » .

ولم يكن نور الدين يحارب الصليبيين على أنهم نصارى ، بل على أنهم أجانب عن بلاد العرب والمسلمين اعتدوا على الوطن العربى ومقدساته ، ومن هنا فانه لم يمس النصارى من أهل البلاد بسوء ، بل كانوا عنده مواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ، فلم يهدم فى حياته كنيسة ولا آذى قسا أو راهبا ، وقد كان الصليبيون اذا دخلوا بلدا قتلوا أهله المسلمين جميعا ، ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له فى ذلك عذر ، ولكنه كان

انسانا عظيما لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساءوا حتى الى نصارى البلاد ، فظلت الكنائس فى بلاده عامرة بأهلها ، بل ان الصليبيين كانوا اذا دخلوا بلدا ضيقوا على النصارى الأرثوذكسيين من أهله ، فحرموا على كنائسهم ضرب النواقيس ، وآذوا القسس وحطوا منزلتهم ، فاذا عاد البـلد الى نور الدين تنفس نصاراه الصعداء وأمنوا الى عدله وانصافه .

ولقد كسب له ايمانه هذا احترام خصومه من الصليبيين ، فكانوا — على عداوتهم له — يوقرونه ويعترفون له بالامتياز عليهم ، فكان الصليبيون فى بيت المقدس يقولون : « ابن القسيم (أى نور الدين) له مع الله سر .. فانه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وانما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فانه يصلى بالليل ويرفع يده الى الله ويدعو ، والله (سبحانه وتعالى) يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله ، وما يرد يده خائبة ، فيظهر علينا » . حتى وليام الصورى مؤرخ مملكة بيت المقدس ، وكتابه فياض بالحقد على الاسلام وأهله ، لم يستطع الا أن يعترف بفضل نور الدين وعدله وصدق ايمانه .

وقد ذهب نور الدين مع الايمان الى مدى لا يصل اليه الزهاد المنقطعون للعبادة ، فكان حريصا على الصلوات فى أوقاتها « بتمام

شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها » كما يقول المؤرخون ، وكانت له الى ذلك أوراد وتسابيح بالليل والنهار ، حتى كان لا ينام الا منتصف الليل ، ثم ينهض فيتوضأ ويقبل على الصلاة والدعاء والأوراد حتى يقبل الصباح فيصليه ، ثم يأخذ فى شئون دولته . فاذا أهل شهر رمضان استقدم رجــلا صالحا كان يتبرك به هو: الشيخ عمر الملا شيخ جامع الموصل ، فيقوم هذا الشيخ باعداد افطار نور الدين — وهو لا يخرج عن الثريد والرقاق — ويفطر معه كل يوم ، بل كان اذا نزل الموصل لم يأكل الا من طعام هذا الشـــيخ

وكان يكثر من الاجتماع بالزهاد والمتصوفة ويبادلهم الحديث والرأى ، حتى كاد هو نفسه أن يصبح زاهدا متصوفا ، فحكى أنه كان يلبس مسوحا ويقوم يصلى قطعة من الليل ، ويرفع يديه الى السماء ويبكى ويتضرع ويقول : « ارحم العَشّار المَكّاس » ؛ وأخباره فى الزهد كثيرة ، فلم يكن له بيت يسكنه ، وانما كان مقامه فى غرفة فى قلعة البلد الذى يحل فيه ، ولم يتزوج — فيما علمت — الا امرأة واحدة ، هى بنت معين الدين أنر ، وقد تزوجها بعده صلاح الدين ، ولم تكن له جارية ولا سرية . ولم يكن له راتب يتقاضاه ، وانما كان يأكل ويلبس وينفق على نفسه من

ملك له كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين : أحضر نفرا من الفقهاء واستفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ، ولم يتعدّه الى غيره قط .

وتتوارد فى تواريخ عصره حكاية تصور وجهة نظره فى هذه الناحية أصدق تصوير : حكى رجل من المشتغلين بخدمته أن زوجه لم يكفها ما كان قرره لها من النفقة ، قال : « فأرسلتنى اليه أطلب منه زيادة فى وظيفتها ، فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم فى هواها ! ان كانت تظن أن الذى بيدى من الأموال هو لى فبئس الظن ، انما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لعتق — ان كان — من عدو الاسلام ، وأنا خازنهم عليها ، فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا ، وقد وهبتها اياها ، فلتأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل »

*

ومن هذا الايمان الدينى والشعور بالمسئولية أمام الله والناس نبعت سياسته الانشائية التى جاوزت كل حد مألوف ، ذلك أنه كان يعتقد أن المدارس والمساجد هى « قاعدة الدين » فمضى ينشئها فى كل بلد دخل تحت سلطانه ، حتى بلغت مدارســه ومساجده

المثات ، وكان اذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة فى بنائها واجتهد فى اختيار شيوخها وأوقف عليها الأوقاف الواسعة . ومن الواضح أن نور الدين سار فى هذا الأمر فى الاتجاه الذى سار فيه ملكشاه عندما شجع نظام الملك على انشاء المدرسة النظامية ، فقد أصبح انشاء المدارس تقليدا مرعيا عند السلاجقة ، ولكن نور الدين لم يكن ينشىء المدارس على اعتبار أن ذلك عمل من أعمال الثواب فحسب ، أو طلبا لحسن الأحدوثة كما كان الحال قبلا ، بل على أنه ضرورة للناس وواجب على أولى الأمر ، لأن انشاءها « اظهار لشعائر الاسلام وتأسيس لقاعدة الدين » والدين هو مسئولية الحاكم الكبرى فى نظر نور الدين .

وبينما كانت العناية الحقيقية فى المدارس التى أنشأها نظام الملك موجهة نحو المذهب الشافعى ، نجد مدارس نور الدين تهتم أولا بأصول الدين ، وخاصة القرآن والحديث . وكان نور الدين يحفظ القرآن ويرتله ولا يزال يتمثل بآيه الكريم فى المناسبات تمثلا يشهد بفهم صادق ، وكان شغفه بالحديث النبوى عظيما ، سمعه من نفر من جلة المحدثين وأجازوا له التحديث ، وأسمعه طلبا للأجر ، فرواه عنه نفر من العلماء مثل أبى الفضل أحمد وأبى البركات الحسن ، وأبى منصور عبد الرحمن وأبى عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعى .

وقد أصبح التوسع فى انشاء المدارس على الأسلوب الذى سار عليه نور الدين تقليدا اتبعه من أتى بعده ، وأولهم صلاح الدين يوسف . بل انصرف الأمراء ورجال الدولة الى انشائها من أيام نور الدين ، فكان الكثيرون منهم حريصين على انشاء مدارس تنسب اليهم يوقفون عليها الأوقاف الواسعة . فأما النتيجة الطبيعية لهذه الحركة التعليمية ، وهى انتشار العلم ، فلا تحتاج الى بيان ، ولكننا نشير هنا الى النتائج الاجتماعية التى نشأت عن ذلك ، فان المدارس هى المهاد التى تتربى فيها الطبقة الوسطى وتنمو ، وهى الطريق الذى يلجأ اليه الفقراء لكى يفيدوا من مواهبهم ويحسنوا مستواهم وينتقلوا الى الطبقة الوسطى ، وربما أصبح الأذكياء منهم من المياسير أو الأغنياء أو أصحاب الوظائف والجاه ، وبالفعل كانت لهذه المدارس وظيفة اجتماعية كبرى وأثر مباشر فى تكوين مجتمع المدن فى الشام أولا ثم فى مصر على أيام الأيوبيين .

وقد كان سبيل الناس الى العلم قبل ذلك هو التفرغ له وملازمة الشيوخ ، فكان لا يستطيع ذلك الا من كانت له مواهب حقيقية ظاهرة يشعر معها أن هذه الدراسة ستجعل منه شيئا ، أو من كانت لديه موارد مالية وافية تغنيه عن طلب العيش وتمكنه من التفرغ للدرس ، فكان طلب العلم — على هذا — لونا من

الأرستقراطية الذهنية أو المالية . ولهـذا فقد كان الناس اما أن يكونوا علماء أو جهلاء ، أما من نسميهم نحن بالمتعلمين فلم يكن لهم وجود تقـريبا ، فلما انتشرت المدارس كثروا حتى أصبحوا يكونون جزءا هاما من الطبقة الوسطى ، بل الجزء الأقوى منها ، وكان لهذا كله أثره فى رفع المستوى الاجتماعى العام .

وربما كان هذا بعض ما قصد اليه نور الدين ، فقد كان شديد الاهتمام بالأوساط والمياسير ، يعتقد أنهم عماد الدولة والمجتمع ؛ وقد روى المؤرخ الدمشقى أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى أن نور الدين عندما دخل دمشق فى المحرم سنة ٥٤٩/مارس سنة١١٤٥ « أحضر غد ذلك اليوم (أى غد اليوم الذى دخل فيـه) أماثل الرعية من القضاة والفقهاء والتجار ، وخوطبوا بما زاد فى ايناسهم وسرور نفوسهم ، وحسن النظر لهم بمـا يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم ، فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم اليه . ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار ، وأنشىء بذلك المنشور ، وقرىء على المنبر بعد صلاة الجمعة » ، أى أن نور الدين لم يقدم شيئا على الاجتماع بأهل البلد « من القضاة والفقهاء والتجار » أى ممثلى الأوساط والمياسير ، وتحدث اليهم بما بعث الطمأنينة فى نفوسهم ، ثم ألغى

الضرائب التى كانت مقررة على تجار الفاكهة والخضر ، وألغى كذلك احتكار توزيع الماء للرى والشرب ، وهذه كلها اجراءات تدل على اهتمام واع بشئون التجار والزراع وأوساط النــاس ونظر لما فيه خيرهم .

وقد كانت دمشق — عندما دخلها نور الدين — ترزح تحت وطأة جماعة الباطنية الذين كانوا يعادون التجار والمياسير طمعا فى أموالهم حتى أفقروهم ، وأكملوا ما نشطت فيه حكومة طغتكين ومعين الدين أنر ومجير الدين آبق من الالحاح عليهم بالضرائب والمغارم والمصادرات . فجــاء تصرف نور الدين انقــاذا لهم ، فانتعشت أحوالهم ، وعاد تجار دمشق وصناعها الى مزاولة نشاطهم الذى اشتهروا به على مر العصور ، وفى ظل الأمان الذى نشره نور الدين ثم صلاح الدين ثم الملك الكامل أخوه أزهرت مدائن الشام والجزيرة الفراتية ومصر جميعا ، وتيسرت أحوال الناس وثبتت أسس المجتمع فى هذه البلاد بعد طول تقلقل واضطراب .

وقد اجتهد نور الدين فى كل ما يمكن أن يشعر الناس بالأمان، ويخفف عنهم متاعب الحياة . وينبغى ألا ننسى أننا تؤرخ لعصر كان الناس لا يطالبون الحاكم فيه الا بأن يعتدل فيما يقرر عليهم من ضرائب ، ثم يقوم بحمايتهم من الأعداء الخارجيين ، فتفكير

نور الدين فى تقديم خدمات اجتماعية للناس يعد سبقا للعصر وبعدا فى النظر وعمقا فى الفهم ، وهذه كلها تضع الرجل فى الصف الأول من عظماء الاسلام .

وقد رأينا اجتهاده فى انشاء المدارس والمساجد ، ونضيف هنا البيمارستانات ، وهى المستشفيات . ولقد سبقه الناس الى انشائها فى بلاد الاسلام ، ولكن نور الدين توسع فيها حتى لم يخل بلد من بلاده من مستشفى ، ثم أدخل على مستشفياته نظاما يدل على أنه لم يكن فى هذه الناحية مجرد سائر على الدرب ، بل مصلحا اجتماعيا له هدف واضح من وراء ما يفعله ، فقد قرر أن المستشفى العام للفقراء ومن لا تمكنهم أسبابهم من الاستعانة بالاطباء أو الحصول على الدواء ، واستثنى من ذلك الدواء النادر أو الذى يحتاج تحضيره الى عناية وضمير ، فقد أباح للأغنياء الحصول عليه من المستشفى ، وتلك لمحة انسانية لا تصدر الا عن قلب كبير .

ويتصل بهذه الناحية كذلك عنايته بحفظ الطرق ، فقد بنى الخانات على مراحلها ، لينزل المسافرون بها للراحة أو للمبيت ، وأقام فيها من يحرسها ويحرس أموال الناس ، فأمنوا وحفظت أموالهم ولجأوا اليها من المطر والبرد أو الحر الشديد ، فاذا كان الطريق مخوفا أو بمقربة من أرض الأعداء أقام على مراحله الأبراج

العالية المنيعة ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الحمام الهوادى أى الحمام الزاجل ، فاذا تهدد البرج خطر أو اقترب العدو من الطريق أطلقت الطيور بالخبر فأخذ الناس حذرهم وأسرع أولو الأمر بارسال النجدات . وأقام على الحدود الربط للمجاهدين والمتطوعين والصوفية ، وتلك كلها منشآت ذات قيمة عسكرية ولكن وظيفتها الاجتماعية أظهر من أن نطيل الكلام فيها ، فان الأمان أساس استقرار المجتمع ، وهو أقصى ما يطلبه الناس .

*

وننتقل الى الناحية العسكرية عند نور الدين ، فنقرر أولا أنه كان جنديا حسن التكوين والتدريب ، طالت به الأيام منذ شبابه الباكر فى الميادين ، وقد تجمعت له خبرة جعلته خير مثال للعسكرى الثابت الخبير ، وقد أوتى فى القيادة ورسم الخطط ونظام المعارك وأساليب الحصار مواهب جعلته أعظم قواد زمانه ، ومكنت له — وهو أمير حلب فقط — من أن يجعل جيشه الصغير أعظم القوى العسكرية في الشرقين الأدنى والأوسط .

فأما تكوينه العسكرى ، فقد كان يجيد ركوب الخيل ويحسن الحرب على صهواتها كأحسن ما يستطيعه فرسان ذلك العصر (وهو عصر الفروسية) . كان اذا ركب جواده خيل الى الناس

أنه « خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل » ، وكان يحسن الرمى بالقوس حتى كان يحضر المواقع ومعه قوسان وجعبتان للسهام ، وكانت له مهارة تستوقف النظر فى الكر فى الميدان والسيف بيده ، اذ أنه كان يخوض المعركة مع جنوده ويتعرض للخطر طلبا للشهادة. وكان بطبعه رياضيا شديد الولع بلعبة الكرة التى تعرف اليوم بالپولو ، وكانت تلك هى تسليته الوحيـــدة ، وكان يلعبها مع أصحابه ، ومن بينهم صلاح الدين ، وكانت له فيها مهارة قل أن جاراه فيها أحد ، وكان الناس يلعبونها بكرة من خشب يضربونها وهم على الخيل بمضرب معقوف الآخر يسمى الجوكان . قال ابن الأثير فى تاريخ الأتابكة : « وكان من أحسن الناس لعبا بالكرة وأقدرهم عليها ، لم يُرَ جوكانه يعلو رأسه ، وكان ربما ضرب الكرة ويجرى الفرس ويتناولها بيده من الهواء ، ويرميها الى آخر الميدان . وكانت يده لا ترى والجوكان فيها ، بل يكون فى كم قبائه استهانة باللعب » .

ومن الطريف أنه رأى فى ذلك أيضا شيئا معينا على الجهاد ، فقد لامه رجل من الزهاد على اقباله على لعب الكرة ، فكتب اليه نور الدين يقول : « والله ما يحملنى على اللعب بالكرة اللهـــو والبطر ، انما نحن فى ثغر ، العدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس

اذ يقع صوت فنركب فى الطلب ، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا ، اذ لابد من الراحة للجند . ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جِمَاما لاقدرة لها على ادمان السير فى الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف فى الكر والفر فى المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب ، فهذا والله ما بعثنى على اللعب بالكرة » .

وربما كان ذلك صحيحا ، ولكن المؤكد أنه كان مشغوفا بهذه الرياضة لذاتها ، دائم الممارسة لها ، وقد أعانه ذلك على الجهاد دون أن يقصد الى ذلك ، فقد جدد قواه وبعث فى كيانه هــذا النشاط الذى اتصل حتى أواخر أيامه . وقد كان له أثر فى خلقه ، فقد خاض معاركه الكثيرة بخلق الرياضى الذى يقبل الهزيمة بنفس الابتسامة التى يتلقى بها الظفر ، وعامل أعداءه بتسامح ونبل جعلا ألدهم خصومة له يستأمنون له ويطمئنون الى عدله اذا غلبهم فى الميدان ، وقد قبس عنه هذا الخلق الرفيع صلاح الدين واشتهر به وطار صيته بكرم أفعاله مع أعدائه .

ولقد وقع قواد الصليبيين فى يد نور الدين واحدا بعد واحد ، فلم يجدوا فى أسره غير الرفق والاكرام ، مما حير أذهانهم وعقد

ألسنة مؤرخيهم عند الكلام عنه ، فقد كان خلق الفروسية فى الغرب الأوروبى خلال ذلك العصر مجرد كلام يقسمون على العمل به قبل أن يرفعوا الى مراتب الفرسان ، أما خلقهم الحقيقى ، فلم يكن يختلف فى شيء عن خلق المتلصصة والقتلة السفاحين ، وقد رأينا خسيس فعلهم فيما دخلوه من بلادنا ، وأشرنا الى أن ذلك كان دأبهم فى حروبهم بين بعضهم وبعض ، دون نظر الى دين أو عقيدة أو حرمة ، ومر بنا فى هذه الصفحات من أفاعيلهم فى بلاد الدولة البيزنطية — وهى نصرانية — ما يغنى عن كل مقال .

ولقد أنكر مؤرخو الغرب دعوانا عندما قلنا ان الفروسية عربية ، ومضوا يثبتون فى محاوراتهم معنا أنهم ركبوا الخيل قبل أن يعرفونا ، وأتقنوا المبارزةوصناعة دروع الحديدقبل أن يلقونا، ولم يكن هذا ما قصدنا اليه ، فان الفروسية ليست ركوب خيل ولا طعنا بالسيف ولا درعا من حديد يكسو الفارس ، وانما هى خلق ، خلق شهامة ومروءة وفضيلة انسانية ، وفى هذا المجال نحن سابقون عليهم ولا ريب ، وقد اعترفوا لنور الدين وصلاح الدين بأنهما كانا رمزا على خلق الفروسية فى أجمل صوره ، وهـذا حسبنا ، لأن تاريخهم ليس فيه — قبل أن يلتقوا معنا فى الميادين — من يسمو الى شيء يشبه ما كان عند أيهما ، فكيف وهذا الخلق

فينا من أيام الجاهليين ؟ وأمامك لامية العرب للشنفرى تجد فيها وصف الفارس على صورة لم تسم اليها حتى أخيلة قصاص الغرب فيما ابتكروا من قصص فروسية تأنقوا فى صياغته ما شاء لهم التصور والادعاء ..

وكان نور الدين يتبع فى خططه العسكرية أساليب العرب التقليدية فى ترتيب الجيش ميمنة وميسرة وقلبا ، ووضع الكمائن فى مواضع يختارها لتكر على جانبى جيش العدو وقت الحاجة ، وأضاف الى ذلك ما استحسنه من أساليب الأتراك مثل وضع الجناحين متقدمين عن القلب قليلا ، بحيث تبدو هيئة الجيش كالهلال ، فاذا دفع العدو على القلب تراجع قليلا ، ثم يسرع الجناحان بالانضمام على قلب جيش العدو فيحصر حصرا شديدا ، وقد ظل هذا هو « التكتيك » التقليدى للأتراك حتى أيام سليم الأول وسليمان القانونى . وكان الجناحان دائما من خيرة الفرسان رماة أو مقاتلين بالسيف ، وأضاف نور الدين الى الجيش فرقا من مهرة رماة الفرسان ، يقفون خلف الجناحين وخلف الصفوف الأولى من القلب ، فيمطرون العدو بالسهام غطاء للفرسان أو المشاة المتقدمين .

وكان فرسان الجناحين والرماة يختارون عادة من التركمان ،

وكانت لهم مهارة لا تدانى فى ركوب الخيل والكر بها فى سرعة ومرونة حيرت الصليبيين ولم يصلوا الى اتقانها الى آخر أيام وجودهم بالشام ، لأن فرسانهم كانوا لايدخلون المعركة الا مدرعين بالحديد من الرأس الى القدم ، وكانت لهم دروع يغطون بها رأس الفرس وصدره وكتفيه ، فكانوا ثقالا فى المعارك ، يصعب ضربهم فى مقتل ولكن يسهل ازعاج الخيل من تحتهم فتنشب على خوافيها فيختل توازن الفارس ويقع على الأرض فتسهل اصابته فى مقاتله .

وكان يبلغ من ثقل درع الفارس الصليبى أن يعجز عن امتطاء صهوة جواده بنفسه ، فيرفع بالحبال ويوضع على ظهر الحصان وضعا ، أما فرسان المسلمين فكانوا يكتفون بشىء يشبه الصدار من الزرد — أى حلق الحديد — يسمى الكزاغند يغطى الصدر والرقبة ، ويضعون على رءوسهم غطاء من الحديد الرفيع يسمى البيضة ، قد يمتد منها الى الكتفين غطاء من الزرد يغطى الأذنين وجانبى الوجه ، ويسمى المغفر ، فكانوا لهذا خفافا يجرون بالخيل فى سرعة ويعطفونها فى مهارة .

وجرت العادة كذلك بأن يفرد نور الدين جماعات من تلك الخيالة ، لكى تكر على جانبى الجيش الصليبى ثم تفر وتعود مرة أخرى وهكذا حتى ينتثر نظامه ، وكانت هذه القطع الطيارة من

الخيالة تتكون غالبا من متطوعة التركمان ، وكانوا آلافا كثيرة يخوضون المعارك طلبا للثواب والغنيمة ، وكان لهم دور حاسم فى تاريخ الحروب الصليبية ، وقد رأينا كيف أهلكوا جيوش الحملة الصليبية الثانية وكسروا أنيابها قبل أن تنزل الشام .

وكان الفرسان النظاميون اذا استحرت الموقعة ودخلت دورها الحاسم ترجلوا لتكون أقدامهم أثبت ، ودفعوا بالحراب الطويلة فى صدور فرسان الصليبيين ، فاما أصابوا فرجــة فى الدروع كفتحات العيون أو ما بين غطاء الوجه والصدر ، أو ألقوابالفارس على الأرض فأجهز عليه المشاة بالسيوف أو أسروه امساكا باليد . ولم تكن أعداد الجيوش الرسمية بالكبيرة ، فقلما زاد عددها فى المواقع الحاسمة على عشرة آلاف ، نصفهم — أو أقل قليلا — من الفرسان . ولكن أعداد المتطوعين والمقاتلين حسبة من أهل المدن والأرياف كانت كثيرة جدا ، وهم يســـمون فى النصوص « بالأحداث » ، وكانت فيهم قوة معنــوية هائلة تعوض نقص التدريب ، فكانوا يشدون على العدو فى حماس وقوة طلبا لاحدى الحسنيين : الظفر أو الشهادة ، وكانت هذه الجماعات تتقدم الجيش يقودها عدد قليل من طلائع الفرسان يسمون اليَزَك وتقف بقيتها وراء الفرسان ، فى القلب . فاذا زعزع الفرسان نظام العــدو

وأحدثوا فيه ثغرات ، انصبوا منها سيلا جارفا يكتسح مشاة العدو أو يعقر خيل الفرسان فتقع ويسقط راكبوها الى الأرض . وكان أكثر سلاح هؤلاء الأحداث السيوف أو الخناجر أو السكاكين وربما الهراوات ، فاذا لم يجدوا شيئا من ذلك ضربوا بالحجارة ، وفى كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ صور من ذلك كله .

وقد اتبع نور الدين مع جنده سياسة أخذ بعضها عن أبيه عماد الدين زنكى وابتكر بعضها الآخر ، وقد كانت سياسة الجند من معضلات التاريخ الاسلامى كله . ذلك أن الخلفاء ورجال الدول استعانوا من أوائل الدولة العباسية بالجند المرتزق ما بين خراسانية وفرس وترك وديلم وما الى ذلك ، والمرتزقون يحاربون للمال فحسب ، فكانت مطالبهم من المال فى زيادة متصلة ، ثم انهم كانوا لا يفرقون بين أعداء الدولة وأهلها ، وما من مدينة نزلوها الا نهبوها ، سواء أكانت فى دار السلام أو فى دار الحرب ، حتى كبار السلاطين من أمثال طغرل بك وألب أرسلان كانوا يعجزون عن رد عادية جنودهم عن الأهلين .

أما عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين بعده فقد اعتمدوا على عدد قليل من الجند المخلص قرروا لهم المرتبات الوافية ، وكان نور الدين يخرج لهم من عنده عطاء خاصا فوق

المرتبات فى الحملات الهامة . وكانت العادة قبل نور الدين أن يعتبر قائد كل جماعة من الفرسان أو الجند مسئولا عنهم ، فيعطى أرزاقهم وسلاحهم أو النفقات اللازمة للسلاح ، فكان القائد يحوز لنفسه أكبر جانب من ذلك المال ويهمل عدة الفرسان أو المحاربين . أما نور الدين فقد حرص على أن يتثبت بنفسه من سلاح المقاتلين، قال ابن الأثير : « وكان أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير فى ديوانه وسلاحهم ، خوفا من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العـــدد ، ويقول — أى نور الدين — : نحن كل وقت فى النفير ، فاذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملى العَدد والعُدد دخل الوهن على الاسلام » .

وكانت العادة أن يعطى كبار القواد والظاهرون من صغارهم وفرسانهم اقطاعات الى جانب المرتب الجارى . والاقطاع هنا لا يراد به الناحية بما فيها من أرض وبيوت وناس ، بل صـــافى خراجها فقط ، فلا علاقة للمقطع بالأرض أو الناس . فاذا قيل ان نور الدين مثلا أقطع فلانا مدينة حمص فليس معناه أنه جعله صاحبها ، بل المراد أنه خوله الحق فى أن يأخذ لنفسه صافى ايرادها بعد نفقات المنافع العامة ومرتبات الموظفين ، عسكريين ومدنيين . وقد يقيم المقطع فى اقطاعه أو لا يقيم ، لأن ادارته كانت بيد رجال السلطان،

وكذلك كان الدفاع عنه بيد الحامية التى يرصدها السلطان فى البلد ، حتى قلعة البلد ، كانت بيد رجل من رجاله يسمى مستحفظ القلعة أى حافظها ، أى أن الاقطاع — على هذا — كان نوعا من المكافأة المالية الى جانب الراتب . وكانت العادة أن يسقط الاقطاع بوفاة صاحبه ، فثبته نور الدين للابن الأكبر أو الذى يليه اذا مات، فاذا كان الابن صغيرا أقيم عليه وصى حتى يكبر ويتولى اقطاعه . فأصبحت الاقطاعات وكأنها موارد ثابتة ، واعتبرها القواد أملاكا، فكان الأجناد يقولون : « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عنها » ، وكان ذلك سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب ، لأن القائد كان يعرف أنهاذا ضاعت الجهة ضاع أيضا ايراده منها .

وقد بدأ بهذه السياسة عماد الدين زنكى ، وكان الجنود والقواد قبل ذلك يشترون بما يتحصل لهم من مال أملاكا : أرضا أو مبانى ، فاذا صار للواحد منهم عقار اطمأن الى عيشه وتراخى فى القتال . فحمل عماد الدين رجاله على أن ينصرفوا عن اقتناء الأملاك وعوضهم عنها بالاقطاعات ، فملك بذلك زمامهم وزاد حميتهم فى القتال ، ثم جاء نور الدين فزاد قواعد أبيه ثباتا .

وقد طبق نور الدين هذه السياسة على المتطوعة من خيالة

التركمان فأقطع كبارهم الاقطاعات ، ولما كانت عادة المقطع أن يعتبر الجهة التى فيها اقطاعه وطنه ومسكنه ، فقد استقر كل قائد منهم بجماعته فى ناحية وثبتوا بعد أن كانوا ظعنا متنقلين يعيشون فى الخيام بصفة دائمة ، وقد بدأوا نتيجة لذلك يتحولون من بدو الى حضر ، وأصبحوا من جند الدولة المدون على نحو ما .

وكانت قبائل العرب الضاربة فى نواحى الأردن وشمال الجزيرة العربية الى الحجاز لا تملك موردا ثابتا للعيش ، فكانت تغير على قوافل الحجاج وتنزل بها الأذى ، فأقطع نور الدين شيوخها الاقطاعات فى نواحيها أو فى الشام ، فانقطع الأذى واستقرت هذه الجماعات وأمن طريق الحجاج . فكانت نتيجة ذلك أن اتجه ذوو الهمة من أفراد القبائل الى الانضمام الى جيش الدولة والاسهام فى الجهاد . وفى نفس الوقت حرص نور الدين على أن يضم الى الدولة الامارات العربية التى كانت شبه مستقلة فى بعض نواحى الشام والجزيرة الفراتية ، وعوض رجالها عن ذلك بالاقطاعات الواسعة ذات الادرار الوفير ، فانضموا الى جيش الدولة وغنيت صفوفه بمقاتلتهم ، وكان لهم فيما بعد أثر محمود فى المعركة الطويلة بين المسلمين والصليبيين .

وكان عماد الدفاع فى ذلك العصر على القلاع والحصون ،

وقد اجتهد نور الدين فى هذه الناحية اجتهادا يستوقف النظر ، فبنى الأسوار حول بلاد الشام جميعا من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ، وأقام على أركان الأسوار الأبراج العالية التى لا ترام ، وكذلك بنى قلاع المدن . وكانت العادة أن يحاط البلد بسور وتقوم داخله قلعة فى موضع حصين ، وهذه القلعة هى مركز الحكم من ناحية ، ومستقر الادارة العسكرية من ناحية ثانية ، وملجأ أهل البلد اذا اقتحم الأعداء أسوارها من ناحية ثالثة . وكانت القلعة تسمى فى بعض الأحيان بالقصبة ، ومن هنا جاء قولنا : « قصبة الديار المصرية » بمعنى عاصمتها . وقد أنفق نور الدين فى بناء هذه الأسوار والقلاع أموالا طائلة ، وحرص على أن يشرف بنفسه على سلامتها ، فكان اذا أتى بلدا دار بسوره وفحص أجزاءه ورم الضعيف منها ، وفحص كذلك الأبراج وبناء القلعة ، فظلت على أيامه على حال من المنعة أفادت أعظم الفائدة فى تلك المعمعة الدائرة .

واهتم كذلك بالحصون التى تقام فى المواضع الهامة ، فابتنى منها بضع مئات ، وكذلك أقام الأبراج للمراقبة على مسافات من الحصون ، وشك ذلك كله بالجند الكثير ، وكان يحرص على أن يكون فى القلعة أو الحصن ذخيرة وافرة ومؤن مدخرة يعتمد عليها

المدافعون وأهل البلد أثناء الحصار ، وكان يوالى ذلك كله بالعناية والفحص بنفسه ، لا يعتمد فى ذلك على أحد .

وعندما اتسعت دولته واحتاج الى الوقوف على الأخبار أولا بأول ، وضع نظاما محكما لنقل الأخبار بواسطة حمام الزاجل ، فجعل أعدادا منه فى قلاع المدن وأبراج الحصون وأبراج الحراسة ومعها رجال موكلون بها ، فاذا بدا خطر أو وقع حادث أسرع الرجال بتطيير الرسائل بواسطة الحمام ، فتصل نور الدين فيسرع بالاستعداد والخروج ويبعث برأيه وأوامره . وقد استعمل حمام الزاجل قبل ذلك لمثل هذا الغرض ، ولكن نور الدين جعله نظاما مقرر القواعد ، وكان له أحسن الأثر فى سير الحروب بعد ذلك .

وكان نور الدين يعتمد على نفر من كبار القـادة ، أحبوه وأخلصوا له فكان لهم أعظم الأثر فيما وفق اليه من انتصارات ، وأعلاهم مرتبة هم الأمراء ، أى أمراء الجيوش ، وكان الواحد منهم يسمى أولا بالسلار ، ومعناه الأمير ، ويليهم المقدمون ، وربما زاد نور الدين فى تكرمة بعضهم فسماه بالاسفهسلار ، أى الأمـير الكبير ، كما فعل مع صلاح الدين . وقد كان معظم أولئك الأمراء والمقدمين يعملون مع أبيه عماد الدين زنكى ، وكان خبيرا بالرجال يعرف كيف يتخير أحاسنهم ، وكان زنكى — رغم شـدته —

« قليل التلون والتنقل بطىء الملل والتغير ، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك الى أن قتل الا بذنب يوجب التغير . والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا بقوا له أخيرا ، من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له » ، وكذلك كان نور الدين .

وأعظم أمراء نور الدين جميعا أسد الدين شيركوه ، وهو صاحب فضل كبير فى استقراره فى حلب وانفراده بها أول الأمر ، ثم كان له الفضل بعد ذلك فى ضم دمشق وفتح مصر ، ويليه مجد الدين بن الداية ، وكان له الأثر البعيد فى رد الصليبيين عن دمشق، فلما صارت دمشق لنور الدين أنابه عنه فى حلب ، ثم سيف الدين سوار — أو أسوار — وكان جنديا قادرا قاد الحملات على أرمينية وأنطاكية ، واعتمد نور الدين كذلك على أخيه الأصغر نصرة الدين الملقب بأمير أميران .

أما نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، فليس لدينا ما يدل على أنه كان من كبار قادة نور الدين ، وان كان المؤرخون قد نسبوا اليه بعد ذلك ما لم يعمل ، وذهبوا الى أنه كان أكبر رجال نور الدين ، وذلك اكراما لصلاح الدين ، والغالب أنه كان عنده من أصحاب الرأى لا أصحاب الرايات .

ولم يثبت معه من كبار قواده الى النهاية الا أســد الدين شيركوه ، اذ توفى بعضهم وأدرك التعب بعضهم الآخــر ، فصار اعتماد نور الدين بعد ذلك على من يليهم ، وأكبر رجال هذه الطبقة الثانية صلاح الدين بن نجم الدين أيوب ، فقد توسم فيه النجابة ، وولاه شِحنَكِيةِ دمشق ، أى جعله حاكمها الادارى ، ثم أصحبه عمه شيركوه فى حملاته على مصر .

والمتصفح لسيرة نور الدين يلاحظ أنه كان دائم التنقل بين بلاده ، لا يستقر فى بلد أياما حتى ينتقل الى آخر ، ولم تكن تلك الحركة الدائمة لمجرد مطالب الجهاد ، بل هى سياسة منه اتبعها طول حياته حتى يكون على اتصال دائم مباشر بالبلاد وجنــدها وموظفيها وأهلها . والى هذا التجوال الدائم يرجع الفضــل فى استقرار أمور بلاده وضبط أمورها الادارية ، فلم يحدث قط أن خرج عليه قائد أو عامل ، لأنه لم يكن يترك لهم فرصة التدبير بله التفكير فى الوثوب ، وكيف وهو مقبل اليهم أو ذاهب عنهم أبدا ؟ وكان اذا دخل البلد جلس للناس يسمع الظلامات ، فكان رجاله يخشون الخطأ أو التراخى ويحرصون على أن يكونوا عند حسن ظنــه .

وكانت تلك أيضا سياسته مع قواده : كان لا يدع لهم فرصة

الراحة أبدا ، فما يعود الواحد منهم من بعث حتى يرسله فى آخر ، ذلك أن خطته فى تأمين بلاده كانت مبادأة الأعداء بالهجوم أبدا ، والاسراع الى الجهة المهددة بمجرد أن يأتيه الخبر . وكان جنوده دائما على الأهبة ، فيخرج من ساعته بمن حضره ، ثم يتلاحق القواد بجنودهم بعد ذلك . ولهذا السبب لم تتح لواحد من قواده فرصة الاستمتاع بمـــال أو دار ، وانتهى الأمر بأن زهـــدوا فى ذلك ، وشملتهم روح الجهاد فمضوا معه فى مشاهده وحروبه بالليـــل والنهار ، لا يفكر أحد منهم الا فى أن يكون عند مرضاته ، وليس أدل على ذلك من أن أسد الدين شيركوه أكبر قواده لم يخلف بعد موته الا دنانير قليلة . وكان نور الدين لا يستعظم اصابة أو خسارة فى سبيل الله : حدث أن أخاه نصرة الدين أصيب فى عينه فى احدى المواقع ، فجعل يشكو فقال له نور الدين : لو علمت بما ادخره الله لك فى الدار الآخرة لتمنيت فقد الثانية !

وكان يحرص أشد الحرص على هيبته أمام قواده وجنده ، فلم ير مبتسما الا نادرا ، لا عن جفوة فى الطبع بل عن تمسك بالهيبة والوقار . ولم أقرأ أنه ضحك الا مرة واحدة ، فقد روى أسامة بن منقذ فى كتاب « الاعتبار » أن نور الدين ضحك عندما رأى كلبة تجرى وراء ثعلب فعضها الثعلب فعادت تعوى . وكان على مؤاخاته

لجنده وقضائه معظم أوقاته معهم لا يأذن لأحـد من قواده فى التماجن أو التضاحك فى مجلسه ، وقد قرأ فى بعض ما اطلع عليه من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن مجلسه كان جادا وقورا لا يجرى فيه لغو الكلام فأخذ نفسه بذلك .

وقد روى الحافظ أبو القاسم بن عساكر أنه « حضر مجلس صلاح الدين يوسف — لما ملك دمشق — فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حد له . فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول ، لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم ، فقام . وبقى مدة لا يحضر المجلس الصلاحى . وتكرر من صلاح الدين الطلب له ، فحضر ، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه فقال : نزهت نفسى عن مجلسك ، فانى رأيته كبعض مجالس السوقة : لا يستمع الى قائل، ولا يرد جواب متكلم . وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا — كماقيل — كأن على رءوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار، فاذا تكلم أنصتنا ، واذا تكلمنا استمع لنا . فتقدم صلاح الدين الى أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ » .

ويبدو أن نور الدين أنشأ « دار العدل » لغرض تهذيب كبار قواده وردهم عن أذى الناس ، ودار العدل هى محكمة عليا يرأسها

نور الدين نفسه ، ومع أن بابها كان مفتوحا للناس جميعا ، الا أن اختصاصها كان فى الغالب النظر فى شكاوى الناس من كبار القواد ، ممن لا يجرؤ الناس على مقاضاتهم أمام القضاة العاديين ، وقد أنشئت بعد استقرار نور الدين فى دمشق . فقد لجأ الأمراء والقواد الى شراء الدور والعقار واستخدموا جاههم فى الحصـول عليها بالأثمان التى يريدونها ، وكان أسد الدين شيركوه من أكثر الناس اسرافا فى ذلك . فلما نمى ذلك الى نور الدين أمر بانشاء دار العدل، وأعلن أنه سيجلس فيها للفصل فى القضايا يومين فى الأسبوع . فخاف أسد الدين وأمر رجاله بأن يفضوا ما بينهم وبين الناس من منازعات ، وأن يرضوا من أخذوا منهم عقارا بأى ثمن ، فقالوا له : « ان الناس اذا علموا ذلك اشتطوا فى الطلب ، فقال : خروج أملاكى عن يدى أسهل علىّ من أن يرانى نور الدين بعين أنى ظالم » ، فأسرع رجاله بارضاء الناس ، فلما تم بناء دار العدل وجلس فيها نور الدين لم يتقدم أحد بشكوى من أسد الدين ، فسأل عن الأمر، فقص عليه القاضى كمال الدين الشـهرزورى ما جـرى ، فقال نور الدين : « الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا » . وثبتت لنور الدين أهمية هذه الدار ، فعممها فى غير دمشق ، وزاد اقباله على الحضور فيها ، حتى كان

يجلس أربعة أيام فى الأسبوع ، وكان يعطى هذه المحكمة حقها فيزيل الحجاب والبوابين حتى يصل اليه من يريد دون مشقة ، فاذا تقدم أحد بشكوى استفهم منه « بأبلغ نظام » كما يقول ابن الأثير، ولا يزال يسأل حتى يتضح له وجه الحق ، وكان يحضر الى جانبه كمال الدين الشهرزورى فيستشيره فى الحكم قبل اصداره .

*

وقد أظهر نور الدين مهارة فى شئون الادارة والمال قل أن نجدها حتى عند أحزم الاداريين ورجال المال على طول تاريخنا الماضى وعرضه . وكان له فى شئون المال خاصة رأى كان الناس يحسبون أن دولة من الدول لا تصلح به : وهو الوقوف عند حد الشرع فى الضرائب والأموال ، وكان الناس قبله قد ذهبوا مذاهب أدت بهم الى ترك أحكام الشرع جانبا .

فأما فى أمور الحكم فكان للأتراك عرف قديم يسمى « الياسة » ، يخطىء بعض مؤرخينا القدامى والمحدثين فيحرفونه الى «السياسة» ، وكانت قواعده تقوم على العنف فى العقوبة وأخذ الناس بالظنة واستحلال كل جريمة فى سبيل تأييد الحكم والاستغناء عن شهادة الشهود اذا بدا للحاكم أن حضورهم متعذر . وقد وجد أولئك الحكام من الشيوخ من التمس لهم من الأحاديث

الموضوعة ما يبرر مسلكهم ، كاستنادهم مثلا الى حديث يقول : الفتنة أشد من القتل ، وهو حديث موضوع يبيح للحاكم قتل من يريد تفاديا لما يسميه الفتنة .

وكان الذى يتولى تطبيق هذا العرف عامل يسمى بالشّحنة ، أى ما يعادل رئيس الشرطة فى الماضى ، فكان الشحنة يستحل كل شيء ، فيقتل أو يحبس أو يصادر أموال الناس تحت هذا الستار . ولم يستسغ نور الدين ذلك ، وهو المؤمن الذى يقدس حدود الله ويستعظم الاقدام على دماء الناس . فأصدر أمرا بالغاء الشّحنكية ونقل اختصاصها الى القضاء ، وطلب اليهم أن يقفوا عند حدود الشرع لا يتعدونها .

وساء ذلك الجند والقواد ورجال الدولة ، وضاقوا بغل أيديهم وتقديم القضاة عليهم ، واستعانوا بالزهاد والمتصوفين فى رد نور الدين عن رأيه ، وكان بين الصوفية والفقهاء من الخصومة ما هو معروف فى كل زمان . فلما ألغيت الشحنكية فى الموصل ، جاء أكابر الدولة الى الشحنة السابق وقالوا له : « قد كثر الدعار وأصحاب الفساد ، ولا يجيء من هذا شيء الا بالقتل والصلب ، فلو كتبت الى نور الدين وقلت له فى ذلك ! فقال لهم : أنا لا أكتب اليه فى هذا المعنى ولا أجسر على ذلك ، فقولوا للشيخ عمر (الملا)

يكتب اليه ، فحضروا عنده وذكروا له ذلك ، فكتب الى نور الدين وقال له : ان الدعار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ويحتاج الى نوع « ياسة » ، فمثل هذا لا يجيء الا بقتل وصلب وضرب ، واذا أخذ مال انسان فى البرية من يشهد له ؟ قال — أى ابن الأثير — فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره : ان الله تعالى خلق الخلق، وهو أعلم بما يصلحهم . وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة فى المصلحة لشرعها . فما لنا حاجة الى زيادة على ماشرعه الله تعالى . قال : فجمع الشيخ عمر الملا أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال : انظروا فى كتاب الزاهد الى الملك ، وكتاب الملك الى الزاهد ! » .

وقد اشتد نور الدين فى ذلك حتى عزم على ألا يولى أمور الحكم بين الناس الا الى القضاة ، حتى نوابه على المدن والامارات أمرهم بألا يقطعوا برأى فى أمر دون رأى الفقهاء والقضاة حتى يتأكدوا من اتفاقه مع الشرع . وضرب هو بنفسه المثل ، فحرص على أن يحضر الى مجلس القاضى اذا طلبه . ولم يكن يفعل ذلك طلبا لحسن الأحدوثة ، بل ايمانا منه بحرمة القضاء . وكان يتمثل فى كل مرة بقول الله تعالى فى سورة النور : « انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا » .

وقد بدت منه فى مجالس القضاء بدوات لا تصدر الا عن نفس عظيمة ملأها حب الخير ، ومن ذلك أن رجلا ادعى حقا فى بعض أملاكه فحضر أمام القاضى كمال الدين الشهرزورى ، وطلب اليه أن يسلك معه ما يسلكه مع غيره ، فنظر القاضى ، وتبين أن لا حق للرجل فيما ادعى . فقال نور الدين للقاضى ولمن حضر : هل ثبت له عندى حق ؟ قالوا : لا ، قال : اشهدوا أننى قد وهبت له هذا الملك الذى حاكمنى عليه ، وهو له دونى . وقد كنت أعلم أن لا حق له عندى ، وانما حضرت لئلا يظن أنى ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له !

وليست هذه أقاصيص مما ينسبه الناس الى أمثال نور الدين ويثبته المؤرخون لهم فى كتبهم ، لأنها تتفق وايمانه وطبعه ، فان ايمانه العميق بالاسلام هو الذى حفزه على التزام حدود الشرع وترك ذلك العرف الجائر الذى أتى به الترك معهم ، وأما طبعه فقد كان رحيما لا يطيق القسوة على الناس ، وفى الشريعة الاسلامية رفق ورحمة توافق ذلك الطبع . ومن دلائل رفقه ما يجمع عليه المؤرخون من أنه لم يكن يعاقب العقوبة التى كان الملوك يعاقبون بها فى تلك الأعصر ، بل كان يكتفى بأيسر ما فى الشرع من الجزاء ، ويتطلب البينات والشهود قبل أن يصدر على أحد حكما . وقد

عرضنا حياته فلم نره قتل أحدا أو ألقى فى ظلمات المحابس بانسان، ولم يصادر رجلا من رجاله مرة واحدة .

وهذا فى رأيى أعجب ما فى سيرته وحسناته ، فان قتل الوزراء والعمال والخصوم ومصادرة أموال الناس أمر لم تخل منه سيرة خليفة أو سلطان فى هذه الأزمان . بل حفلت سير العظماء منهم — كابن طولون والاخشيد — بأخبار من قتلوهم وعذبوهم ، حتى أصبح الناس يعتقدون أن ذلك من لوازم الحكم وضروراته ، بل حسبه البعض فضيلة تتفرع عن الحزم والقدرة ، فجاء هذا الرجل وأثبت أن الملك القادر يستطيع أن يستغنى عن هذه المساءات كلها ويقيم ملكه بدونها . بل لقد اشتهر نور الدين بأنه لم يجرح شعور انسان بكلمة ، ولم يوجه لرجاله على الخطأ الجسيم الا أقل اللوم، وكان أحرص ما يكون على عفة اللسان ، حتى ليمكن القول بأنه لم يكن لينطق الا عن تفكير ، فما حفظ له التاريخ كلمة نابيـة لانسان أو فى حق رجل ، وهذه مرتبة فى كمال الخلق لم يصل اليها الا أفذاذ نوادر على طول التاريخ .

وكان ساعده الأيمن فيما طلب من اقامة الشرع قاضى القضاة أبو الفضل كمال الدين محمد بن عبد الله بن المظفر الشهرزورى ، وكان فقيها واسع العلم حسن الرأى بلغ عند نور الدين من المكانة

ما لم يبلغه غيره حتى أصبح كأنه وزيره ومشاوره ، وكان شافعى المذهب جرىء القلب ، فصيح العبارة ، أصله من الموصل ، وهناك عرفه عماد الدين زنكى واستقضاه على بلده ، ثم اتصل بنور الدين وعلت مكانته عنده وولاه قضاء دمشق سنة ٥٥٥/١١٦٠ ، ثم لم يلبث أن أصبح قاضيا للقضاة فولى ابنه محيى الدين قضاء حلب ، وأقام اثنين من أبناء اخوته قاضيين على حمص وحماه ، وطال به العمر بعد ذلك فخدم صلاح الدين وكانت له عنده مكانة عظيمة ، وتوفى عام ٥٩٢/١١٩٥ عن احدى وثمانين سنة .

وقد أنكر الأمراء على القضاة هذه المكانة التى بلغوها على أيام نور الدين ، فصاروا يغتابونهم فى مجلسه المرة بعد المرة ، حتى نال أحد الأمراء يوما من القاضى قطب الدين النيسابورى الشافعى فقال له نور الدين : « ياهذا ، ان صح ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها ، وهى العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها . ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا — ان صحت — مع وجود حسنته علىّ ؟ اننى والله لا أصدقك فيما تقول ، وان عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنك » .

وهكذا كف نور الدين الأمراء وأهل الحكم عن الفقهاء والقضاة وأهل العلم ، ومع ذلك فهو لم يطلق أيديهم فى الأمور ، بل حرص كذلك على أن يحول بينهم وبين الاستبداد ، وكان يعتمد فى تعرف أصول الدين وأحكام الشرع على الزهاد والمتصوفة والعلماء ، ممن لا يتولون مناصب يرتزقون منها ، فهؤلاء كانوا صحابته وخاصته ، أوسع عليهم النفقة وجالسهم وأفضى اليهم بما فى نفسه ، فكانوا يخلصون له النصح ، ويدلونه على صحيح الأحكام حتى لا يجمح الجاه بالفقهاء والقضاة .

ومن دلائل حرصه على ألا يخدعه الشيوخ أنه وجد خطباء المساجد يبالغون فى الدعاء له ويصفونه بهذه العبارات الرنانة التى تعودوا أن يتقربوا بها الى قلوب السلاطين ، فطلب الى خالد بن محمد بن نصر القيسرانى أن يوقف ذلك وأن يكتب له صيغة دعاء بسيطة ليس فيها الا ما يطابق الواقع من حاله وأفعاله ، فكتب له صيغة هى : « اللهم أصلح عبدك الفقير الى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد فى سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين » ، فقرأ نور الدين نسخة الدعاء وعلق عليها عبارة نوردها بنصها ، لأنها تعطينا فكرة عن أسلوبه فى كتابة العربية : « مقصودى

ألا يكذب على المنبر . أنا بخلاف كل ما يقال . أفرح بما لا أعمل ؟ قلة عقل عظيم ! الذى كتبت جيد هو . اكتب به نسخ حتى نسيره الى جميع البلاد » . ثم أضاف : « ثم يبدأوا بالدعاء : اللهم أره الحق حقا ، اللهم أسعده ، اللهم انصره ، اللهم وفقه .. من هـذا الجنس » .

وكان — على تواضعه ورفقه — شديد الاحساس بما ينبغى للرياسة من هيبة ، وقد رأينا مجلسه وما كان يسوده من جلال ، ونضيف عبارة قالها ابن الأثير : « وأما هيبته ووقاره فاليه النهاية فيهما ، ولقد كان كما قيل : شديدا فى غير عنف ، رقيقا فى غير ضعف . واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فانه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه الى غاية لا مزيد عليها ، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة (أى بواجبات التحية) الصغير منهم والكبير ، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، الا نجم الدين أيوب — والد صلاح الدين يوسف — وأما من عداه ، كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية وغيرهما ، فانهم كانوا اذا حضروا عنده يقفون قياما الى أن يأمرهم بالقعود . وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم اذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه ، ويجلسه الى جانبه كأنه أقرب الناس اليه ، وكان

اذا أعطى أحدهم شيئا يقول : هؤلاء لهم فى بيت المال حق ، فاذا قنعوا ببعضه فلهم المنة علينا » .

وقد التزم نور الدين أحكام الشريعة أيضا فيما يتصل بما يجبى من الضرائب ، وقد كانت مقاديرها ووجوهها قد تزايدت مع الزمن حتى أن الفاطميين فى مصر كانوا يأخذون على البضائع مكسا (أى ضريبة) يصل الى خمسة وأربعين فى المائة من قيمتها . وابتكر ظلمة الحكام منها أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها ، حتى استغنى الكثيرون من التجار عن المتاجرة وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكامهم فى بلاء شديد ، وارتفعت نسبة الخراج الذى كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما يتقوتون به ، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب الى نفر من الجهابذة التزاما ، فيدفع الواحد منهم مبلغا ثم يجبى أضعافه من الناس . وليتهم مع ذلك قاموا بحماية الناس ورعاية المرافق !

فاستقر رأى نور الدين على أن يلغى كل الضرائب التى لا يقرها الشرع ، وقد راع ذلك رجال الدولة واحتج عليه أسـد الدين شيركوه ، وبعث الى نور الدين يقول : « فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم ؟ » فكان رد نور الدين : « ان كنا نغزو من هذه الجهات (أى من هذه الموارد) نتركها ونقعد

ولا نخرج » . فقال شيركوه ما معناه : « ان أعداءك لا يتركونك تقعد ! » فسكت نور الدين ، ومضى يتدبر الأمر بضعة أيام ، ثم أصدر أمره بالغاء الجبايات غير الشرعية جميعا ، وأرسل بذلك منشورا الى كل الجهات .

والحقيقة أن الجانب الأكبر مما كان يجبى من هذه الضرائب المستحدثة كان يتسرب الى أيدى الجباة والعمال والوزراء وحواشى القصور ، فقد أحصى نور الدين بعد ذلك ما كان يتحصل له من المكوس والضمانات والعشور والمعونة وما اليها فلم يزد على ١٦٥٠٠٠ دينار ، وهو مبلغ ليس بالكبير ، ولا تختل بسببه ميزانية ولا يتوقف جهاد ، أما الذى توقف فهو السلب والنهب وارهاق الناس . ولم يكتف نور الدين بذلك ، بل أمر خطباء المساجد بأن يطلبوا الى الناس أن يسامحوه فيما جبى منهم قبلا من هذه الضرائب ، وكتب الى الخليفة كتابا يعلمه بذلك حتى لا يصر على أن يتقاضى منه من المال ما كان يأخذه قبلا ، ولم يغفر هو لنفسه ما جباه من هذه الوجوه الباطلة ، فكان يدعو الله أن يغفر له ، ويقول : « اللهم ارحم العشار المكاس ! » .

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل ، فأخرج التجار أموالهم ومضوا يتاجرون ، وأعلن كل انسان ما عنده ،

فجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام . فأقبل يعد للجهاد آلته مما آتاه الله ، ونشط فى البناء والتعمير حتى أنفق فيهما الملايين بعد الملايين من الدنانير ، وقد أعانه على ذلك أنه لم تكن له نفقات خاصة : لا قصور ولا خدم ولا حشم ولا جوار ولا مجالس أنس تملأ أفواه الندامى فيها بالدر والدنانير جوائز على أبيات من شعر الملق السخيف . وهــذه هى الأبواب التى استنفدت ثروات الخلفاء والملوك قبله وبعده . هذا رجل اكتفى بأيسر الضرائب ، واستطاع بالقليل الذى وصل اليه أن يهيىء الجيوش بعــد الجيوش ، ويبنى مئــات المدارس والمســاجد والمستشفيات ، ويقيم أسوار المدائن وقلاعها ويشك كل قلعــة بالجند والذخائر والأقوات . نعم انه كان يشكو الضائقة بين الحين والحين ، حتى كان يستدين المال ممن يأنس فيهم القدرة ، ولكنه لم يأخذ من أحد دينارا الا رده ، وخلف فى خزائنه من الأموال بعد ذلك قدرا طيبا بدده من تولوا أمور البــلاد بعده فى الشام فى شهور !

وقد أورد أبو شامة وصف مجلس عقده نور الدين فى دمشق فى ١٩ صفر سنة ٥٥٤/١١ يوليو سنة ١١٤٩ دعا اليه القضاة وكبار رجال الدولة فيها ونفرا من الأعيان وشهود العدالة فيها للنظر معهم

فى شئون الأوقاف المرصدة للجامع الأموى . وكان شيوخ الجامع فيما مضى قد أدخلوا فى أوقاف الجامع عقارات وأعيانا أخرى داخلة فى المنافع العامة ، فأحب نور الدين أن يفصل هذه عن تلك ، لكى يستخدم أموال المنافع العامة فى « سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريم أموالهم » اذ أن هذه كانت عنده « أهم المصالح » ، وقد تناقش الحاضرون فى الموضوع على أسلوب حر طلق هو أقرب ما يكون الى ما نعرفه من مناقشات أرقى مجالس النواب ، وأقر المجلس رأيا لا يتفق تماما مع ما أراده نور الدين ، فلم يأذنوا له بصرف « فواضل الأوقاف فى عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة على المسلمين » وأجازوا له أن يأخذ من هذه الفواضل قرضا يستخدمه فى تلك الوجوه على أن يرده من بيت المال . ومع شدة حاجة نور الدين الى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع فى ذلك الحين ، فانه قبل رأى المجلس بنفس راضية ، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة أو فواضل أموالها احتراما للرأى وتكريما للدين ورجاله .

*

ونختم هذه الصفحات ببعض اشارات وردت فى الكتب عن صفاته وأحواله فى بيته وبين أهله : كان نور الدين أسمر طويل

القامة وسيم القسمات ، أظهر ملامح وجهه جمال عينيه واتساع جبهته وقلة شعر لحيته فى العارضين وغزارته أسفل الفم . وكان قليل الكلام لا يتكلم الا لضرورة ، ولا يخرج كلامه عن شئون الدولة وأمور الجهاد ومصالح الناس . فاذا تبسط فى الحديث كان ذلك مع الفقهاء والقضاة وأهل العلم والزهد والعبادة ، يتعلم منهم ويطلب اليهم الرأى فيما يحزبه من أمور ، أو يستمع الى دروس فى الحديث النبوى أو تفسير القرآن وأخبار الصالحين من الخلفاء ورجال الاسلام الأول .

وكان مفتونا برسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى أن يجرى على نهجه وسنته فى كل ما يفعل ، وقد أشرنا فى سياق كتابنا الى اجتهاده فى ذلك ، ونضيف أن الأمر بلغ به أنه سمع مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج للحرب متقلدا السيف ، أو معلقا اياه فى حمائل تدور حول الرقبة كأنها القلادة بخلاف ما جرت به عادة المحاربين فى أيام نور الدين من تعليقــه بحزام يدور حول الوسط ، فأصدر أمره الى قواده بتقلد السيوف ، وخرج هو بنفسه وسيفه على هيئة سيف الرسول عليه السلام .

وكان نور الدين قد استعرب لسانا وقلبا ، وقد مرت عملية استعراب السلاچقة والتركمان والأكراد فى دور طويل نستطيع أن

تبينه اذا نحن تتبعنا تطور الأسماء ، فقد كانت الأجيال الأولى منهم تحمل أسماء تركية أو كردية أو فارسية خالصة ، مثل طغرل بك وتمرتاش وأتسز ، وفى الجيل الثانى أضيفت الى الأسماء الأعجمية ألقاب تشريف لا تعتبر جزءا من الاسم كقولهم : الملك المعظم ملكشاه ، أو قسيم الدولة آق سنقر ، ثم صاروا يسمون بأسماء عربية اسلامية مضافة الى الأسماء التركية كقولهم عماد الدين زنكى ومعين الدين أنر وظهير الدين طغتكين .

ونلاحظ أن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة ، فبينما كان البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة ، فيقولون : عضد الدولة وبهاء الدولة وصمصام الدولة ، كان السلاجقة يختارون : عماد الدين وسيف الدين ومعين الدين وما الى ذلك .

ثم جاء جيل نور الدين عربى الأسماء ، فاختفت الألقاب التركية ، كما نرى فى نور الدين محمود وسيف الدين غازى وقطب الدين مودود ونصرة الدين محمد . وبعد نور الدين سارت العملية الى أبعد من ذلك ، فالتمسوا لأنفسهم أنسابا عربية تقطع الصلة بينهم وبين ماضيهم ، فقالوا مثلا فى نسب صلاح الدين انه : ابن أيوب بن شادى بن مروان بن على بن عنترة الحسن بن على

ابن أحمد وهكذا الى الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، والمعروف أن آباءه من الأكراد الروادية أحد بطون الهذبانية من بلدة تسمى دوين فى آخر آذربيجان من جهة اران وبلاد الكرج .

وكان نور الدين يتكلم العربية كما يتكلمها أهل عصره فى الموصل وحلب ، فاذا كتبها كتب بأسلوب بسيط عملى لا يلتزم فيه قواعد النحو ، وقد يخلط به بعض الدارج كما رأينا فى النموذج الذى أوردناه . ومن أمثلة كلامه رأيه فى مسألة ضرب دينار باسمه والغاء القراطيس ، ذلك أن الأساس فى المعاملة المالية على أيامه كان الدينار ، وكان عياره قد اختل حتى أصبح الناس يفضلون التعامل بالدنانير الصورية أى الافرنجية التى تأتى من الدولة البيزنطية أو حملها الصليبيون والجنويون والبندقيون وغيرهم من الايطاليين الى الشام ، وكانت تحمل صور الملوك على أحد وجهيها ، وكانت ثابتة العيار والقيمة . وكانت كسور الدينار تسمى القراطيس ، وهى عملة فضية مفردها قرطاس ، فلما اضطرب عيار الدينار اختلف عدد ما فيه من القراطيس ، فصارت حينا ستين وحينا سبعة وستين ، واختفت الدنانير من الأسواق ، وأصبح التعامل بها اسما ، أى بقيمتها من القراطيس ، فاقترح الناس على نور الدين أن يلغى ذلك كله ويضرب دينارا باسمه ثابت القيمة وابطال التعامل بالقراطيس ،

فقال : « اذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنى خربت بيوت الرعية ، فان كل واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس : ايش يعمل به ؟ فيكون سببا لخراب بيته ».

ولم يتزوج نور الدين الا امرأة واحدة هى عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، ولم يذكر له المؤرخون من الأبناء الا بنتا وولدا واحدا هو اسماعيل الملقب بالملك الصالح ، أنجبه وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، وتركه صبيا يتيما فى الحادية عشرة .

وقد أقام اسماعيل أولا مع شمس الملك بن المقـدم صاحب دمشق ، ثم انتقل الى حلب بعد أن صارت دمشق لصلاح الدين . وقد أساء رجال حلب الذين كانوا يتولون الوصاية على اسماعيل التصرف مع صلاح الدين ، فقرر تأديبهم ووصل اليها فى سـنة ١١٧٥/٥٧١ وقد صمم على انتزاعها من أيديهم . وكان اسماعيل غلاما فى الثانية عشرة من العمر ، فمضت أخته الى صلاح الدين فى الليل « فدخلت عليه فقام قائما وقبل الأرض بين يديها وبكى على نور الدين ، فسألته أن يرد عليهم « عزاز » فأعطاها اياها ، وقدم اليها من الجواهر والتحف شيئا كثيرا . واتفق مع الملك الصالح (اسماعيل) أن من حماه وما فتحه (صلاح الدين) الى مصر له ، وباقى البلاد الحلبية للصالح » .

وقد قنع اسماعيل بن نور الدين بحلب ، ولكن اخوة صلاح الدين وأقاربه مضوا يضيقون عليه ويتهددونه حتى عاش السنوات القليلة الباقية من عمره فى خوف منهم . وقد أدركته منيته وهو شاب دون العشرين ، فتوفى عام ٥٧٧/١١٨١ وكان كأبيه شديد التدين ، حتى لقد وصف الأطباء له شرب شيء من الخمر عندما زادت به علة القولنج ، فقال : « لا ، حتى أسأل الفقهاء » فسأل الشافعية وبعض الحنفية فأفتوه بالجواز ، فلم يقبل ، وقال : « ان الله تعالى قرب أجلى ، أيؤخره شرب الخمر ؟ » قالوا : « لا » قال : « فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم على » ، فمات ولم يشربها . وفى ذلك العام بالذات كانت أفراح أمثاله من الشباب من أولاد صلاح الدين وأخيه العادل أبى بكر على قدم وساق ، فتزوج ثلاثة من أبناء صلاح الدين ثلاثا من بنات العادل فى ليلة واحدة ، وغطت بهجة الأفراح على حسرات الباكين فى صمت فى حلب يندبون نهاية نسل صاحب الفضل فى ذلك كله : نور الدين محمود .

بيـــان

بأهم الأعـــلام غير العربية الوارد ذكرها في الكتاب ،أوردناها بحسب الأبجدية الأفرنجية ،واستغنينا عن ذكر ما يقابل كل لفظ غير عربي في سياق النص

Adhemar de Monteil	أديمار دى مونتى
Agnès de Courtenay	آجنس دى كورتنيه
Alfonso Jordán, comte de Toulouse	ألفونسو جوردان ، كونت تولوز
Amadeus, comte de Savoie	أماديوس ، كونت ساڤوا
Andronicus Contostephanos	أندرونيكوس كونتوستفانس
Andronicus Ducas	أندرونيكوس دوكاس
Arnulf Málecorne von Rohes	آرنولف ماليكورن ڤون روه
Baudouin de Boulogne	بلدوين دى بولونيا
Baudouin de Le Bourg	بلدوين دى ليبورج
Baudouin III	بلدوين الثالث
Baudouin IV	بلدوين الرابع
Baudouin de Ghent	بلدوين دى غنت
Bernard de Clairvaux	برنار دى كليرڤو
Bertrand de Blancfort	برتراند دى بلانكفور
Bertrand de Le Puy	برتراند دى ليبوى
Bertrand de Toulouse, comte de Tripolis	برتراند دى تولوز ، كونت طرابلس
Bertrand le batard de Toulouse	برتراند الزنيم ، حفيد رايمند صاحب تولوز
Betrada de Monfort, comtesse d'Anjou	برترادا دى مونفور ، كونتيسة أنجو

Bobastro	بيشتر (مدينة قرب سرقسطة)
Bohemond de Tarento	بوهيموند (بيمند) أمير طارنط
Caeser Johannes Roger	قيصر حنا روجر
Constance, Régente d'Antioche	كونستانس وصية أنطاكية
Constantin Coleman	قسطنطين كولومان
Constantin X	قسطنطين العاشر
Diambert ou Dagobert	ديامبر أو داجوبير
Eléanore d'Aquitaine	إليانور الأقطانية
Elinand de Bures	إليناند دى بور
Emma, comtesse de Jaffa	إما ، كونتيسة يافا
Entienne, comte de Blois	اسطفان كونت بلوا
Eschiva de Bures	استشيڤا دى بور
Eudacia	يوداشيا
Eugenius III	يوجين الثالث (البابا)
Eustache de Césarée	يوستاش القيصرى
Everard de Le Puits	ايڤيرار دى ليبوى
Evremar de Therouannes	إيڤريمار دى تروان
Fréderik von Schwabenland	فردريك أمير سوابيا
Fulk, comte d'Anjou	فولك ، كونت أنجو
Gaudefroy de Bouillon	جودفروا دى بويون
Gaudefroy, duc de Loraine	جودفروا دوق اللورين
Guibelin de Sabran	جيبيلين دى سابران
Guienne	جيين
Guilbert d'Assailly	جيلبير داسيى
Guillaume de Nevers	ويليام دى نيڤيه
Guillaume Jordan	ويليام جوردان

Guy Brisebarre de Berpouthe	جي بريسبار دى باربوت
Guynemer de Boulogne	جونيمر البولونى
Henri, comte de Champagne	هنرى ، كونت شمبانيا
Heinrich von Oesterreich	هاينريخ أمير النمسا
Hodierna, comtesse de Tripolis	هوديرن ، كونتيسة طرابلس
Hugh (Hugue) de Bourgogne	هيو (هيج) دوق برغنديا
Hugh (Hugue), comte de Vermandois	هيو (هيج) كونت ڤيرماندوا
Hugh (Hugue) de Lusignan	هيو (هيج) دى لوزنيان
Hugh de Payne	هيو دى باين
Hugh (Hugue Garnier de Gaesarea	هيو (هيج) جارنيه صاحب قيصرية
Hugh(Hugue)de Le Puiset, comte de Jaffa	هيو (هيج) دى ليبويزيه كونت يافا
Hugh Falconberg de St. Omer	هيو فالكنبرج دى سانت أومير
Hugo von Tübingen	هوجو ڤون توبنجن
Irène von Saltzbach	إيرين ڤون زالتسباخ
Joseph Tarkhaniotis	يوسف طرخانيوتس
Joscelin	جوسلين
Joveta (Yvette)	جوڤيتا (إيڤيت)
Konrad von Hohenstaufen	كونراد ڤون هوهنشتاوفن
Manuel Comnenos	مانويل (منويل) كومنين
Manzikart	ملاذكرد ، منازكرد
Melisende	مليزاند
Menasses de Eyberg	منسى دى ايبرج
Michael Dukas	ميخائيل دوكاس
Miles de Plancy	ميل دى بلانسى
Mleh	مليح الأرمنى
Otta von Freisengen	أوتو ڤون فرايزنجن
Pierre l' Hermite	بطرس الناسك

Polislav	بوليسلا ف ملك بولندا
Pons, comte de Tripolis	بنص ، كونت طرابلس
Raymond IV de St.—Giles, comte de Toulouse	رايموند دى سان جيل ، كونت تولوز (صنجيل)
Raymond de Poitiers, prince d'Antioche	رايموند دى بواتييه
Raymond de Le Puy	رايموند دى ليبوى
Reinaud de Chatillon	رينو دى شاتيون
Reinaud de Marosh	رينو صاحب مرعش
Reinaud de Saint-Valéry	رينو دى سان ڤاليرى
Reinaud Garnier	رينو جارنييه
Robert Borsa, duc d'Apulie	روبرت بورصا ، دوق أبوليا
Robert, compte de Flandre	روبرت ، كونت فلاندر
Robert de Rouen	روبرت دى روان
Robert, duc de Normandie	روبرت ، دوق نورمانديا
Robert Guiscard	روبرت جسكار
Roger le Bourg	روجيه ليبورج (روجيل)
Romanus IV Diogènes	رومانوس أو أرمانوس ، الإمبراطور
Roussel de Bailleul	روسل دى بايول
Sibylla	سيبيلا
Thierry d'Alsace, comte de Flandre	تيرى دالزاس ، كونت فلاندر
Thoros I	توروس ملك الأرمن
Viterbo	ڤيتربو (مدينة بجنوب إيطاليا)
Vdalsialv von Boemen	ڤلاديسلاف ملك بوهيميا
Walter de Mesnil	والتر دى مسنيل
Walter Sans-Avoir	والتر المفلس
Urban II	أربان الثانى (البابا)

المراجع

١ ـ مراجع عربية

ابن الأثير ، عز الدين على بن محمد : الكامل فى التاريخ ، طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة (بدون تاريخ) جـ ٨ و ٩ .

الباهر فى تاريخ أتابكة الموصل ، طبعة باريس ضمن Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux. Tom. II Paris.

ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس : وفيات الأعيان ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ، فى ٦ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٨ — ١٩٥٠ .

ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع : النوادر السلطانية فى المحاسن اليوسفية ، القاهرة ١٣١٧ .

ابن العديم ، عمر بن عبد العزيز بن أبى جرادة : بغية الطلب فى تاريخ حلب ، نشره الدكتور سامى الدهان ، دمشق ١٩٤٨ — ١٩٥٠ .

ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، طبعة مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٠ هـ ، جـ ٤ .

ابن القلانسى ، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى : ذيل تاريخ دمشق ، نشره أ.ف. أمدوز ، بيروت ١٩٠٨ .

ابن واصل ، جمال الدين محمد : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشر الدكتور جمال الدين الشيال ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ والجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٧

أبو شامة المقدسى ، شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل : كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين ، نشره أبو السعود أفندى المترجم ، القاهرة ١٨٧٠ ، ونشر قسما منه يصل إلى حوادث ٥٥٨ الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٥٦ .

المذيل على الروضتين (طبع فى مصر باسم : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين) القاهرة ١٩٤٧ .

أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، جـ ٥ (١٩٣٥) و٦ (١٩٣٦) .

أسامة بن منقذ : ديوان أسامة بن منقذ ، نشره الدكتور حامد عبد المجيد والأستاذ أحمد احمد بدوى ، القاهرة ١٩٥٣ .

كتاب الاعتبار ، نشره هارتويج ديرنبور ، باريس ١٨٨٦ .

حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى (مذيل بالترجمة العربية الكاملة للحوليات الافرنجية (Gesta Francorum) القاهرة ١٩٤٧ .

نور الدين والصليبيون ، حركة الإفاقة والتجمع الإسلامى فى القرن السادس الهجرى ، القاهرة ١٩٤٨ .

عماد الدين الأصفهانى ، الفتح بن على بن محمد البندارى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، طبعة لاندزبرج ، لايدن ١٨٨٨ .

تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ١٩٠٠ .

خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء مصر ، نشره الدكاترة : أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس ، جـ ١ و ٢ ، القاهرة ١٩٥١ ؛ قسم شعراء الشام ، نشره شكرى فيصل ، دمشق ١٩٥٥ .

محمد العروسى المطوى : الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، تونس ١٩٥٤ .

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الأول من الجزء الأول ، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ .

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

ب ـ مراجع غير عربية

Anna Comnena, *Alexiad* (ed. B. Leib), in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé.* 3 Vols. Paris, 1937-1945.

Cohen, Claude, *La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades.* Paris, 1940.

Dussaud, René. *Topographie Historique de la Syrie Antique et Mediévale.* Paris, 1927.

Fliche, A., et Martin, V., *Histoire de l'Eglise.* Vol. VII. Paris, 1940.

Fulcher von Chartres, *Gesta Francorum Hierusalem.* (ed. H. Hagenmeyer). Heildelberg, 1913.

Gibb, Hamilton A.R. , *The Damascus Chronicle : Extracted and translated from the Chronicle of Ibn al-Qalanisi,* London, 1932.

Grousset, René, *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem.* 3 Vol. Paris, 1934-1936.

Guillaume de Tyre, *L'Estoire de Eracles ... et la conqueste de la Terre d'Outremer.* (dans *Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Occidentaux.* Vol. I.)

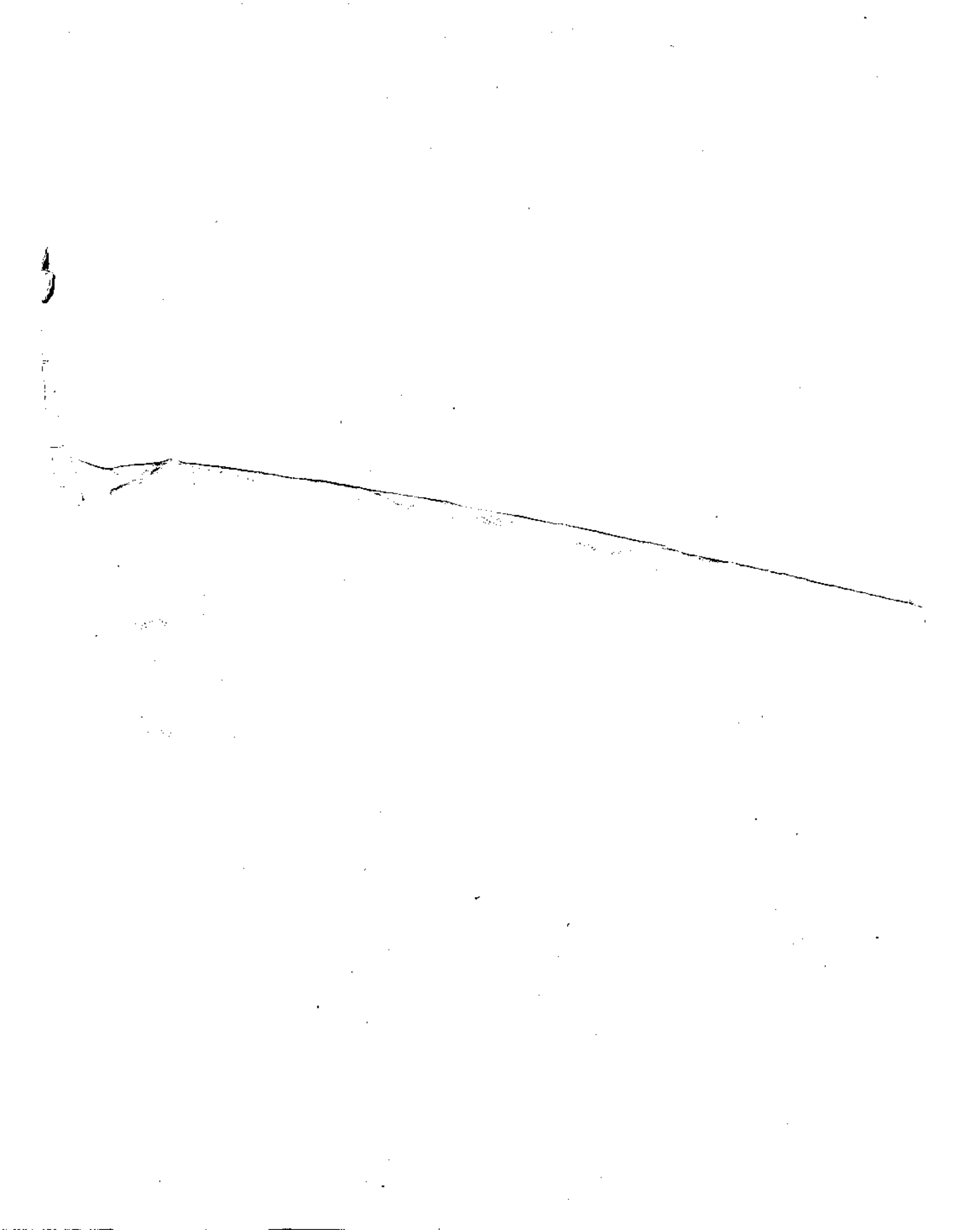
Michel le Syrien, *Chronique* (éd. avec traduction française par J.B. Chabot. 4 Vols. Paris, 1899-1910).

Roger le Tourneau, *Damas de* 1075 *à* 1154. *Traduction annotée d'un fragment de l'Histoire de Damas d'Ibn al Qalanisi.* Damas, 1952.

Runciman, Steven, *A History of the Crusades.* 3 Vols. London, 1957-58.

Stevenson, W.B. , *The Crusaders in the East.* Cambridge, 1907.

Vaziliev, A. , *Histoire de l'Empire Byzantin.* 2 Vols. Paris, 1932.



المؤلف

مؤلفات :

ا – تاريخ :

١ – الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٨ .

٢ – فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ (الطبعة الثانية المزيدة فى المطبعة) .

٣ – Essai sur la chûte du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1948.

٤ – صور من البطولة (طبعتان ، القاهرة ١٩٤٩ و ١٩٥٦) .

٥ – مصر ورسـالتها (طبعتان ، القاهرة ١٩٥٥ و ١٩٥٦) .

٦ – Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration with R. Roolvink and Others). Admsterdam, 1957.

٧ – مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية الإخشيديين – فصل فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » الذى تنشره وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

٨ – فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

ب – أدب :

١ – حكايات خيرستان ، قصص رمزية .

٢ – أهلا وسهلا ، قصة مصرية طويلة .

أبحاث :

١ – عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى ، نشر فى الجزء الثانى من المجلد الثانى عشر من حوليات كلية الآداب بجامعة القاهرة .

٢ – تطور العمارة الإسلامية فى الأندلس ، نشر فى المجلد الأول من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

٣ – وثائق عن مهدى السودان ، نشر فى العدد الثانى من المجلد الثـانى من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .
٤ – غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ / ٨٤٤ و ٨٥٩ م ، نشر فى العدد الأول من المجلد الثانى من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
٥ – السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، نشر بالعدد الأول من المجلد الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
٦ – المسـلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبيـة ، نشر فى العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
٧ – المجتمع فى الدستور ، بحث نشر فى كتاب « روح الدستور » ، وهو رقم ٢٥ من سلسلة « اخترنا لك » .
٨ – لكى لا ننسى .. هذا صوت التاريخ ، بحث نشر فى كتاب « قنـاة السويس – حقائق ووثائق » ، وهو رقم ٢٩ من سلسلة « اخترنا لك » .
٩ – سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين . صحيفة المعهـد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
١٠ – De nuevo sobre las fuentes árabes de la historia del Cid.
صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
١١ – Egipto y el Mediterraneo ، فصـل نشر بالإسبانية والفرنسية فى كتاب Panorama del Mundo Arabe ، الذى نشره معهد العلوم السياسية فى مدريد سنة ١٩٥٤ .
١٢ – نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ .
١٣ – أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، للونشريشى . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .
١٤ – La división político - administrativa de la Espana musulmana
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .
١٥ – الفولكلور ، تاريخه ومدارسه ومناهجه . صحيفة «المجلة» العدد ٢٣ سنة ١٩٥٨ .

نشر وتحقيق :

١ – رياض النفوس لأبي بكر المالكي ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .

ترجمة :

١ – الامبراطورية البيزنطيـة لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشـتراك مع الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

٢ – الشعر الأندلسي لغرسية غومس (عن الإسبانية) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٢ و ١٩٥٧ .

٣ – تاريخ الفكر الأندلسي لجونذالذ بالنثيا (عن الإسبانية) القاهرة ١٩٥٥ .

٤ – ثم غاب القمر ، مسرحية في ثمانية مناظر مقتبسة من قصة The Moon is Down لجون شتاينبك ، القاهرة ١٩٥٦ .



الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام



جنوب الشام
بيروت
بعلبك
جبل لبنان
البقاع
عين حار
الزبداني
نهر بردى
القطيفة
دمشق
مرج الصفر
داريا
الكسوة
صيدا
صرفند
شقيف أرنون
صور
بانياس
تبنين
اسكندرون
الحولة
الصنمين
صفد
نوى
عكا
تل كيسان
رأس الماء
تل عشترا
حطين
كشفين
حيفا
صفورية
الناصرة
طبرية
الأقحوانة
عثليث
الفولة
جبل طابور
دابوريه
كوكب الهوا
وادي رحوب
عين جالوت
السواد
بصرى
قيسارية
جينين
بيسان
صرخد
حوران
قاقون
سبسطية
جرش
أرسوف
نابلس
نهر الأردن
البلقاء
يافا
اللد
سلط
بيت نوبة
الرملة
عمان
الرقيم
النطرون
القدس
يبنا
حشبان
عسقلان
تل الصافية
معين
بيت لحم
البحر الميت
بيت جبرين
غزة
الخليل
الداروم
(دير البلح)
مؤتة
الكرك
الشوبك

فهرس